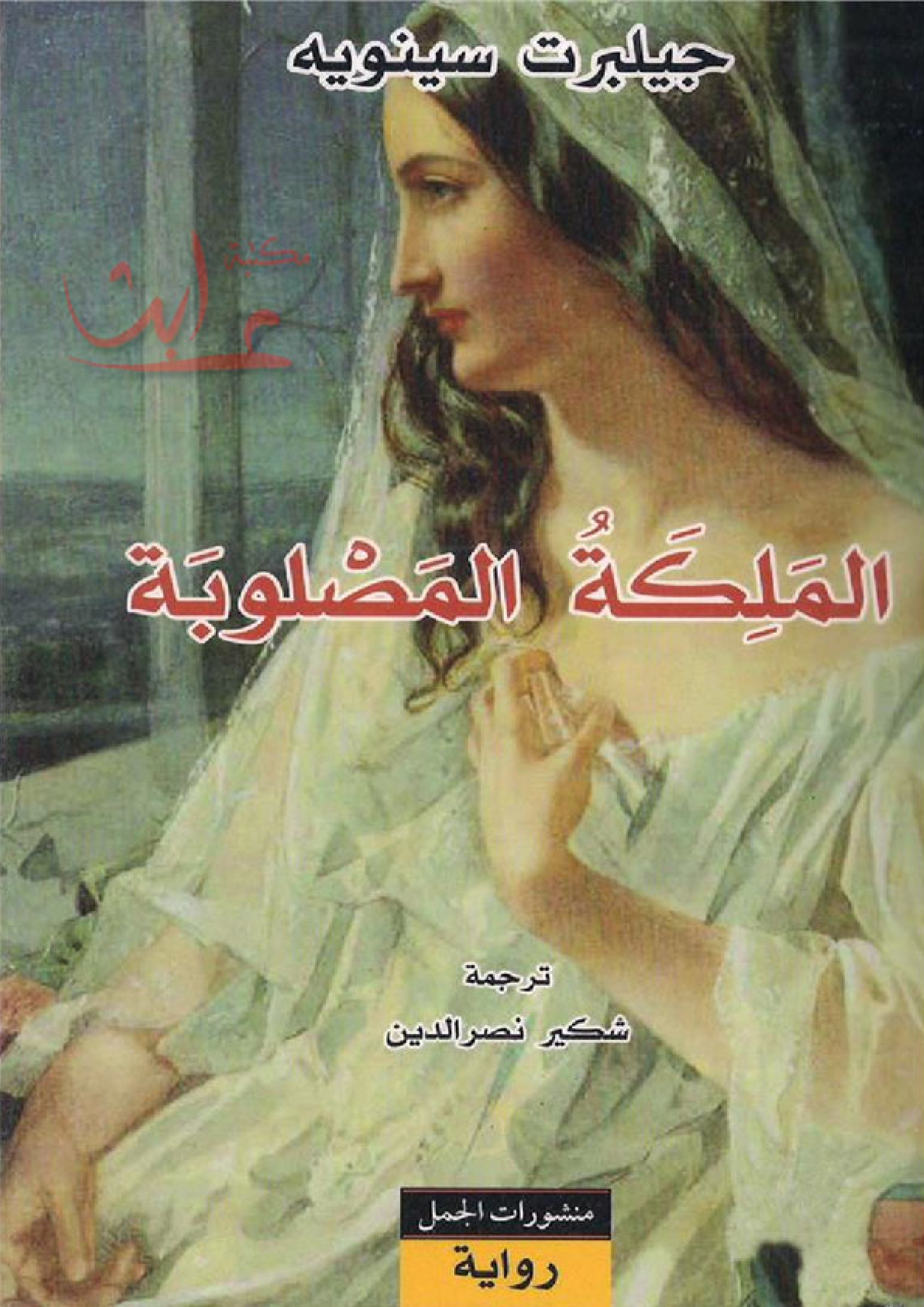

جيلبرت سينويه
مكتبة
المَلِكَةُ المَصْلوبَة
ترجمة
شكير نصرالدين
منشورات الجمل
رواية

جيلبرت سينويه

المَلِكَةُ المَصْلوبَة

رواية

ترجمة

شكير نصرالدين

منشورات الجمل



جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر ثم أكمل دراسته الموسيقية بباريس حيث تحصل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان، رواية (١٩٩٩)؛ المصرية، رواية (٢٠٠٥)؛ ابنة النيل، رواية (٢٠٠٧)؛ اللوح الأزرق، رواية (٢٠٠٨)؛ أخناتون ـ الإله اللعين، رواية (٢٠١١)؛ الفرعون الأخير، رواية (٢٠١٢)؛ أنا، يسوع، رواية (٢٠١٢)؛ يريفان، رواية (٢٠١٢)؛ صمت الآلهة، رواية (٢٠١٥)؛ البكباشي والملك ـ الطفل، رواية (٢٠١٥).

جيلبرت سينويه: المَلِكَةُ المَصْلوبَة رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

©Al-Kamel Verlag 2016
Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



لم يكن في وسع العاشِقين

العيشَ ولا الموت أحدهما دون الآخر.

وهما مفترقان، لم تكن تلك حياة ولا كانت موتا،

بل حياة وموت في وقت معا.

ج. بيدييه. تريستان وإيزولد. XV.



١

برغش، قشتالة، ٢٤ اكتوبر ١٣٤٠

داخل مُصَلَّى قصر سانْ سِرْفاندو، شموعٌ معدودة تسلط ألسنةَ لهبها على تمثال المسيح الحجري المسمَّر فوق المذبح، مضيئة أثناء ذلك رجلين متأهبَين.

- هل تظن أن الراهب الفرانسيسكاني سيأتي هذه المرة؟ سأل أصغرهما.

ضجيج عربة تنحدر مسرعة من الزقاق النازل حجب الجواب جزئيا.

- الرسالة... لقد تعهَّدَ... لا داعي للقلق...
- ثلاث ليالٍ ونحن نأتي إلى هنا. لقد وصل حقا من روما، منذ أكثر من أسبوعين، أليس كذلك؟
- رويدك. سوف يأتي.

هبّةُ ريحٍ، آتية من حيث لا ندري، جعلتْ نار الشموع تتراقص وكشفت بفعل ذلك وجه كل من الرجلين. للوهلة الأولى، يشبهان بعضهما؛ للوهلة الأولى فحسب. أحدهما سند للأربعين، لكن يبدو وكأنه يفوق ذلك بعشرٍ أخرى. قسمات وجهه حرثها الدهر، أو هي كذلك لإفراط كبير في مواجهة الشمس. أما الآخر، الأصغر منه بثلاثة أعوام أو أربعة، فإنه يبدي خلقة لا يعتد بها. وجهه المستطيل



والمسطح يُفصح عن نوع من سلامة الطويّة. وحدها النُدبة البارزة التي تشقّ جبينه، بالضبط فوق الحاجب، ما يمنح هذا الوجه شيئاً من الحياة.

- Signori...[١]

برّقا بعينيهما حتى يتبينا من خلل الظلال مَن نادى عليهما بالإيطالية.

- الأخ كاردوتشي؟ سأله أكبرهما اتباعا للعُرف.
- Si. Sono io[٢]
- اقترب إذن.

خطوات رخوة معدودة. انكشف طيفٌ. كان يرتدي مسوح الإخوة الأصاغر ومعطفا بُنّيا، خصره مشدود بحزام من ليف القنب، وعلى رأسه قلنسوة. الرجل يتنفس بمشقة. لا ريب أنه السن.

- لقد تأخرتَ. ماذا حدث؟
- كانت الرحلة طويلة جداً، سيدي. طويلة وشاقة. سوء أحوال الجو.. الطرقات...
- لم يخامرني شكّ في ذلك. هل لديك الوثيقة؟
- Certamente[٣]
- أرِنِيها!

وقد استبدت به حيرة مباغتة، تراجع الراهب خطوة.

- و... ما تعاهدنا عليه؟
- أرني أولا!

---

(١) بالإيطالية في الأصل: أيها السيدان
(٢) بلى. أنا هو. بالإيطالية في الأصل:
(٣) بالإيطالية في الأصل: بالتأكيد.



حركات يَدَيْن. انزلاقُ ثيابٍ.

ناولَ الرجلَ ذا القسمات المحفورة ما يشبه غلافا من الجلد المثني.

بتوتر قام هذا الأخير بفك الشرائط التي تلف الغلاف وأزاح الجوانب. بدت الكثير من الأوراق. عرضها على مُرافقه.

- ما رأيك؟

انحنى الآخر وقرأ ناصية الورقة الأولى:

- EPISTOLA PRESBYTERI JOANNIS(١)

وأسفل من ذلك:

- نحن يوحنا، القس، بنعمة من الرب، الملك القاهر المهيمن على كل الملوك النصرانيين، نبعث بسلامنا إلى مانويل، امبراطور بيزنطة، وإلى ملك فرنسا، صديقينا...

توقف عن الكلام، وابتسامة غامضة ترتسم على طرفي شفتيه.

- حسنا.

- سادتي، قال الفرانسيسكاني حائرا. إذن؟ هل أنتما راضيان؟

- أجل، رد الأكبر سنا. يبدو أنك قمت بعمل جيد.

انبسطت أسارير المسافر.

- لو تدريان المشقة التي تكبدتها! ليس كل من هبَّ يصل إلى سجلات لَاطْرانْ. أظن أن جزائي مستحق.

- بالطبع.

وضع الرجل الغلاف على حافة المذبح وتقدم:

- ألف مرابطية، ذلك كان هو المبلغ المتفق عليه، أليس كذلك؟

- بلى، سيدي...

---

(١) باللاتينية في الأصل: رسالة القس يوحنا.



عندها تم كل شيء بسرعة خاطفة.

وضع الرجل يده على مقبض سيفه. برز النصل، إرتفع في الأجواء، قام بنصف دورة ثم هوى صوب عنق الإيطالي. مدَّ هذا الأخير ذراعيه قصد الاحتماء؛ بلا جدوى. أطلق صرخة حينما غاص طرف النصل في حنجرته. وصارت الصرخة غرغرة قبيحة. لطّخ الدمُ البلاط، ومشكاةَ خبز القربان، وسراويل الرجل ذي الوجه المحفور.

خرَّ الفرانسيسكاني.

حتى بعد أن لفظ أنفاسه يخيل للمرء أنّه ما يزال يتساءل عن سبب وفاته.

٢

قصر مونْتِيمور. البرتغال. اليوم الموالي.

هل كانت الشمس تهبط حقا على الرّيف أم كان سراباً مائلاً إلى الحمرة، محمَّلا بالدم، بالضوضاء، بصرخات الانتقام؟

منذ الصباح، عادت أصوات الماضي محدثة ضجيجاً يصمّ ذاكرة ألفونسو الرابع، ملك البرتغال. تذكره تلك الأصوات بالكلمات الجارحة، بانكسارات نفسه. توجع الذكريات اللقيطة. لن تعود أبداً! لن تعود أبداً!

غطى العاهل أذنيه، والبدن مطويّ وكأنه يعاني ألماً قاهراً. لن تعود أبداً! عليه النسيان. همس فيما يشبه الشكوى: *إيزابيلّا... إيزابيلّا*... تمالك نفسه للفور، انتصب والذقن شامخ. إن ملكاً لا ينادي أمّه. ثم ما كانت أمّهُ لتسمعه. فالمرأة القديسة ترقد في قبرها منذ أربعة أعوام، هناك قرب كويمبرا، في دير سانتا كلارا. عاشت قديسة، وماتت قديسة. ذات يوم، بالتأكيد، سوف يتم تكريسها، لأجل حياتها المخصصة بأكملها للعطاء وللنقاء. la Pacificadora[1]... صانعة السلام، ألم يعمّدها الشعب الطيب بهذا الاسم؟

بحركة متوترة، أزاح العاهل خيطاً ذهبياً غير مرئيّ من صداره وعاد

---

(١) بالبرتغالية في الأصلية: صانعة السلام



ينظره إلى الريف. من نافذة القصر، كان يبدو وكأنه يمتد إلى ما لا نهاية له، خلف سهول الألتنخو، خلف الأفق، أبعد من المملكة. هذه المملكة، كان يحبها. يحب الروائح الصاعدة من تراب أرضها، اللاذعة والقاسية، السائلة مثل مياه الغواديانا والأنهار التي لا يحصيها عدّ، الجارية بين الصخور وأشجار الخروب العنيدة. أرض خضعت على التوالي لنفوذ الفينيقيين، والقرطاجيين، والرومان، والقوط الغربيين وفي الأخير العرب. العرب... آه! هذا الجرح المفتوح في جسد شبه الجزيرة! قرابة ستمائة سنة من ذي قبل، هم القادمون من المغرب، كانت لهم الجرأة على تجاوز مضيق الجنوب وانتشروا، مثل الطاعون، من مدينة إلى أخرى. إشبيلية، قرطبة، قادس، وادي دُورُو، أسبوعا بعد أسبوع، لم تقدر قوة على التصدي لضربات الإسلام القاصمة. كان ذلك في الماضي. استجمع الإيمان المسيحي قواه. هو بنفسه، ألفونسو، كرَّس ما يقارب خمسة عشر سنة من حياته لحرب الاسترداد. منذ الانتصار الكبير في لاس نافاس دي تولوسا وسقوط مملكة الغرب، لم يعد هؤلاء الغزاة يمثلون تهديدا حقيقيا لمملكته، ولا لجيرانه في أقاليم نافارا وقشتالة وليون. بعد أن دبّت فيهم الفرقة، وتم دحرهم، قريباً سوف يرغمون على الاختباء في أقصى جنوب شبه الجزيرة، في منطقة الأندلس. وسوف تتنفس هواء أشد نقاء في نهاية المطاف. المعركة ـ لا ريب أنها الأخيرة ـ التي يستعد ألفونسو لخوضها ستسمح بتحقيق هذا الحلم.

انتشله طرْق على الباب من تأمله. كان ينتظر ذلك الزائر.

ـ ادخل!

تسلل طيفُ شاب في سن العشرين داخل الحجرة.

ـ أرسلتَ في طلبي، أبي؟



كان الصوت يفتقد اليقين، وكأنّ الكلمات تصطدم بالحنك قبل أن تُلْفَظ.

- اقترب، دُونْ بِيدْروا

لشدة ما كان الرجلان شبيهان، لولا فارق ثلاثين سنة، لكان في الوسع الاعتقاد أنهما توأمان. فارعان، بشرة داكنة، سحنة لفحتها الشمس، العين والشعر أسودان، الوجه مثلث والأنف مستقيم؛ كان كل منهما مقيم على هيئة مماثلة: مزيج من الغطرسة والكبرياء.

انتظرَ دون بيدرو حتى جلس العاهل وجلس بدوره.

- كما هو معهود، يبدو أنك خائر القوى، أشار ألفونسو. إنك لا تنام بما فيه الكفاية، حسب ما قيل لي.
- لقد سبق أن تحدثنا في الأمر، أبي. إني أكره الليل.
- لكن، يجب أن تنام جيداً. الطبع يحثّ على ذلك. ماذا تفعل إذن بلياليك؟
- أقرأ.
- تقرأ؟ الشّعر، بطبيعة الحال. ترانيم واهنة.

بدت ابتسامة طفيفة على شفتي بيدرو التي كان من الصعب أن لا يُرى مسحتها الساخرة.

- أقرأ أيضاً أشعار مؤسس جامعتنا، حامي الفنون والآداب العظيم. من تسبغ عليه عامة الشعب لقب «الملك الشاعر». أقصد بالكلام جدّي، الملك المرحوم دينيس. هل تحتقر أيضاً تلك الكتابات؟
- إنّ الأمر يتعلق بك، وليس بوالدي. وإني أنبّهك أنه يُلقّب على الأخص بـ «الملك المزارع»، لأجل ألوف أشجار الصنوبر التي زرعها لبناء أسطولنا القوي. لقد مات. لترقد روحه بسلام. ثم هناك أمور غير قراءاتك. عند انبلاج الفجر، تمتطي حصانك رفقة ذلك العبد الذي نسيتُ اسمه...



- مَصَالا.
- مصالا. ولا يراكما الناس من جديد إلا مع شمس الظهيرة...
- وما... السوء... في...

من جديد تلك المشقة في نطق الكلمات حينما يصير التوتر شديداً. إنقبضت أصابع دون يدرو. مدَّ نفَسه بشدة ثم تابع:

- ما السوء في ركوب الخيل؟
- ركوب الخيل بلا هدف مضيعة للوقت! إنك تعلم ذلك. في وسعك على الأقل تخصيص بعض الساعات للقنص. هذا شاغل نافع لمن سيكون مدعواً ذات يوم للحكم. القنص يصنع الرجل. ويعلم الصبر.
- لا ريب، أبي. ربما لاحقا. هلا أخبرتني بسبب حضوري؟
- هناك سببان.

نهض ألفونسو بغتة ومشى نحو النافذة المفتوحة على السهل. أولاه ظهره وأخبره:

- نزَل جيش موريسكيٌ من بني مرين بجبل طارق، مستجيباً لطلب النصرة من أمير غرناطة. يقوده أبو الحسن، «السلطان الأكحل». كل شيء يدعو للظن بأنه ينوي الشروع في هجوم واسع والصعود نحو الشمال. سوف يسير إلى ملاقاته ملك قشتالة وليون. لقد طلب منا العون.

علت ملامح الأمير الشاب مسحة من الشك.

- وقد وافقتَ؟

التفت ألفونسو بشدة:

- أما كان علي فعل ذلك؟
- ليست الأندلس هي البرتغال. حسب علمي، لم تحمل يوماً لقشتالة في قلبك وداً. وبفضل حروب الإسترداد ـ التي شاركت



فيها رغم ذلك قلباً وقالباً ـ فإن قشتالة اقتطعت لنفسها حصة الأسد. غاليسيا، ليون، إكستريمادورا، ممالك المسلمين القديمة، طليطلة، إشبيلية، قرطبة، جيان، مورسية! وقد أوشكت إلا قليلا أن تضع يدها على البرتغال. العام الماضي خضتَ معركة ضد هذه المملكة وعاهلها، سيِّك، ألفونسو الحادي عشر.

صدرت عن الملك إيماءة نفاد صبر.

ـ إنك تعلم سبب ذلك! لقد تزوج ألفونسو من أختك، دُونَا مَارْيَا. لم تعد تتحمل أن يعاملها زوجها بقسوة وإذلال. لم يكن لدي خيار آخر غير التدخل. صارت تلك حكاية من الماضي. ومنذئذ، اقرّ صهري بأخطائه، وعادت كل الأمور إلى مجراها.

ـ ذلك أفضل. أما أنا، ما كنتُ لأغفر لذلك الشخص بتلك السرعة.

ـ لأن لديك عناد الشباب، وتجهل كل شيء يخص شؤون السياسة. السياسة لعبة قاسية لا غاية لها سوى الحفاظ على مصلحة المملكة التي نتحمل أعباءها. ثم إن الوشائج العائلية مقدسة! ليست دونا ماريا هي ما يربطنا فحسب بجيراننا القشتاليين. أمك ذاتها، الملكة بياتريس، أليست ابنة الملك المرحوم سانشو الذي حكم قشتالة؟ من جهة أخرى، يبدو أنك تنسى بأن الموريسكيين هم منذ الأبد أعداؤنا المشتركون. كل ما يهدد حرب الاسترداد يهدد البرتغال.

لوَّح ألفونسو بيده في الهواء منزعجاً.

ـ استغرابك سخيف!

ثم أثار انتباهه بنبرة قاطعة:

ـ لكنه ما كان ليفاجئني. لو انشغلت أكثر بالأعمال، ما استغربتَ قراري. ألستُ على حق؟

ـ متى تذهب؟



- آه! ها إنك حقاً إبن هذه الأرض! دائماً الرد على سؤال بسؤال آخر! سوف أنطلق غداً، على رأس ألف من الرماة.
- هل يمكن لي مرافقتكم؟
- ذلك غير وارد! إذا كان يجب أن أفقد حياتي في المعركة، لا يمكن للمملكة أن تبقى يتيمة. لم تهبني أمك سوى ذكر واحد وبنتين. أنت وريثي الوحيد.
- كما ترون. سوف أبقى إذن.

عم الصمت من جديد. عاد العاهل إلى مجلسه وعبث بلحيته قبل أن يواصل الكلام.

- لدي ما أقوله لك غير هذا.

هز بيدرو رأسه وانتظر.

- سوف تتزوج.
- أنا... أتزوج؟ مرة أخرى؟
- زواجك الأول من بيانكا القشتالية لا يعتبر. كنتَ تبلغ بالكاد عشرة أعوام، وهي لم تتعدّها. في كل الأحوال، تم إلغاء الزواج في غضون الأشهر التي أعقبت ذلك.

أجبر الإنفانتي[1] نفسه على التبسم.

- بسبب العَتَه الخِلْقي والذهني لزوجتي...
- ذاك من الماضي! أنصت إلي. مثلما تتذكر، صحيح أن الأجواء كانت عاصفة مراراً بيننا وقشتالة. جدّي، الملك إنريكي، خاض معركة عنيفة كي يقبل القشتاليون في آخر المطاف الإعتراف بحوزتنا الترابية.

(١) infant تدل الكلمة في البرتغال على أبناء وأحفاد المنتسبين لعاهل البرتغال الذكر، فحسب ابتداء من القرن الثالث عشر، ويقصد بها عموما الأمير أو الأميرة.



- معركة، وكذلك تدخلا من البابا.
- صحيح. لولا اعتراف الكنيسة، لبقيت مملكتنا مجرد سراب. مع ذلك، اليوم، ولو أن العداوة والغيرة باقيتان، فإن زواج دونا ماريا وملك قشتالة سمح لنا بالنظر إلى الحاضر بحكمة أشد. الحاضر... يبقى المستقبل.
- المستقبل؟
- أنت، يا بني. مستقبل المملكة هو أنت. إذا أردنا أن يدوم السلام الذي ظفرنا به بعد مشقة، ومواصلة التقارب الذي شرعنا فيه بيننا وجيراننا...
- إنك تأمل أن...
- تتزوج دونا كونستانزا، أميرة قشتالة. ليس ذلك أمل. بل هو ضرورة. إنها ابنة خوان مانويل القشتالي، أمير فلينا، دوق بينْيافِيل وإسْكالونا. إنها في سنّك تقريبا. تسع عشرة سنة. إنها جذابة، حسب ما يقال. طيبة ومطيعة. سوف يقرّب هذا الزواج أكثر المملكتين ويضمن لي الخلَف ولك.

إكتسح بعض الجمود ملامح الأمير الشاب. بحث عن ردّ. وما الفائدة؟ سوف يشقّ عليه كثيراً التعبير عنه. منذ أمد بعيد تعلم أنّ ابن ملك لا يمكنه أن يقرر.

- متى؟
- عند عودتي. لقد تم الطلب واستقبل بسعادة. بالنظر إلى سحنتك، هذه السعادة غير متقاسمة.

تطلب الأمر من دون بيدرو بعض الوقت قبل أن يتكلم:

- أليست السعادة هي التظاهر بأننا نصنع بشغف ما نصنعه لأجل المصلحة؟ إنها كلماتك ذاتها. هل تتذكرها؟
- تماما.



- سوف أتزوج إذن دونا كونستانزا. أما الشغف، سوف يولد من بعد.
- هذا عين الكمال.

نهض الملك.

- يجب أن نفترق الآن. الوقت يستعجلنا. ينبغي أن أشدّ الرحال.
- ليحفظك الرّب، يا أبي. عد لنا سالما آمنا.

بادر الأمير بحركة خجلى نحو العاهل، لكنه تراجع. لم يكن ألفونسو يتحمل انهمار المشاعر، كيفما كان نوعها.

انحنى وغادر الحجرة.

برغش، قشتالة

رغم الشمس التي كانت تسلط أشعتها عبر النافذة، كتمت دونا كونستانزا رجفة وخاطبت الوصيفات الستّ المجتمعة حولها في نصف دائرة.

- إني أرتعد! أيتها السيدات، لو تفضلت واحدة من بينكن وأمرت خادماً بأن يُسْعر ذلك المِجمر. إنه لا يوفر سوى الهواء البارد.

بينما كانت سيدة تنفذِ الأمر يصحبها في ذلك حفيف حرير ونسيج، تابعت وهي تزفر:

- تسعة أشهر من الشتاء، وثلاثة من الجحيم. تلك حقا قشتالة. هل تعتقدن أن الحال سيكون بالمثل في البرتغال؟
- أجابها صوت مبتهج:
- يقال إن الحُبّ قد يحرق بمقدار ما تستطيعه ألف شمس. أليس الحب هو ما ينتظرك هناك؟
- Querida[1]، الشمس تُرى. لكن الحب؟ ألحق أقول، لا أعلم أي

---

(١) بالاسبانية في الأصل: وتعني هنا «حبيبتي»، من باب التودد والألفة.



شيء عن هذه الكلمة وعن المعنى الذي تكتسبه.

وبالزخم نفسه، استدارت الأميرة نحو امرأة شابة، الأصغر بينهن جميعهن:

- وأنتِ، إيناس؟ هل تعلمين عن ذلك شيئا؟ بعد كل شيء، سوف تبلغين عشرين عاما. تكبرينني بعام واحد. وهذا أمر يعتبر.

إحمرّ وجه إيناس دي كاسترو.

- أوه! دونا كونستانزا. لا أعرف أكثر مما تعلمين. (صحّحت بخجل)، وإلا فهو شعور من أرفع وأنقى المشاعر.

- إنك تتحدثين عن ذلك بيسر. هل جربته في السابق؟

- كلا. أبداً. ومع ذلك، أعرف أنه حتى وهو غير مرئي، فإنه موجود. بعد كل شيء، عدم رؤية الرب لا تمنع الإيمان.

تردد صدى قهقهات مكتومة عقب كلامها. لكن ملامح دونا كونستانزا تجهّمت.

- أنا خائفة. هل سأنال إعجابه؟ هل أنجح في إغرائه؟ يقال عن دون بيدرو بأنه رجل وسيم. أنظرن إلي...

غادرت الأميرة مجلسها وهي ترفع بخفة شملتها ذات الحواف الحمر وانصرفت نحو مرآة صغيرة محدبة تزين أحد جدران حجرتها.

- أنظرن إلي! الوجنتان مدورتان بإفراط! الرموش بسيطة! والعينان - وأنا لم أبلغ بعد تسع عشرة سنة - تحاصرهما هالتان، وشفتيَّ ما هما إلاّ ندبة جلد.

- إنك تجلدين نفسك، دونا كونستانزا، احتجّت إيناس. هذا لا يليق بك. إنك تمتلكين كل ما قد يغري سيداً نبيلاً. بأية حال، هل تظنين أنّ الجمال هو الجوهر؟

- بالنسبة لامرأة، قطعا! إستدارت الإتفاتتا نحو الفتاة الشابة.

- بداهة، أنت، ليس لديك هذا الهمّ. أنت تُشرِقين. تُشعِّين.



أشهدت الأخريات على كلامها:

- ألستُ على صواب؟ كنَّ صادقات. ليس بينكن واحدة لا تأكلها الغيرة بحضور إيناس دي كاسترو. وما عسى أقول عن الحيرة التي تبثها وسط الرجال؟ Cavaleiros vilàos[1] أو [2]، من أقل رتبة فيهم إلى أعلاها، كلهم منبهرون، يهمسون بلا كلل اللقب الذي أطلقوه عليها: ...colo de garça عنق البجعة. آه! كم إن الطبيعة ظالمة.

- بكل صدق، دونا كونستانزا، احتجّت جارتها، اللوحة التي ترسمينها لشخصك قاسية جداً. ألم تلاحظين أبداً بأنّ ميزة النساء الجميلات هو أن تجدن لأنفسهن ألف عيب وعيب؟ أما القبحات فإنهن لا يعرفن وخز الضمير.

انحنت صوب إيناس، وسألتها ببراءة مفتعلة:

- ألستُ على صواب؟ ألا تجدين في نفسك ألف عيب وعيب؟

لم تحر إيناس جوابا، وعينها محدقة دائماً في البلاط.

- هيا! صاح صوت. أبعدي إذن تلك الغيوم وتخوفاتك. سوف يستسلم دون بيدرو لسحرك، لا يخامرك الشكّ في ذلك بتاتاً.

غير مبالية بهذه التشجيعات، تهالكت الأميرة فوق أريكة.

- منذ أن أخبرني أبي بهذا الزواج، لا تمضي ليلة دون أن تهجم فيها علي الكوابيس. أرى أشياء مرعبة. مخلوقات قذرة تنبعث من الظلمات وتطاردني عبر دهاليز طويلة لا نهاية لها. ينفتح باب. أهرع إليه. ويبدو لي أني نجوت. ثم...

انكسر صوتها. استرسلت بعناء:

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: الفرسان الأشرار

(٢) بالبرتغالية في الأصل: القضاة قديما.



- ثم... هناك، في انتظاري طين دامٍ، وحلّ فوقه تطفو قطع من الجلد، عيون مقتلعة، أيادي مبتورة. هناك من يريد دفعي إليه. ذلك فظيع!

شدّت وجهها بين يديها واستسلمت هذه المرة للنحيب.

مذعورات وحائرات بالقدر نفسه، لم يسع الوصيفات الستّ قول أيّ شيء.

في البعيد ترددت جلبة عدو فرسان، أعقبه خوار دابّة بريّة ونباح كلاب.

لما عاد الصمت، لفظت دونا كونستانزا، وقد انقطع نفسها:

- إني خائفة. خائفة من دون بيدرو...

قصر مونتيمور، البرتغال.

- أجل. الملك أمر بذلك. ما العمل؟ أخبرني، مصالا، ما العمل؟
- الملك يأمر. والأمير يُطيع. هكذا تجري الأمور منذ أن وُجدت الممالك وكان الملوك ملوكاً. تذكر أنّ جلالته هو أبوك قبل أي شيء. ومنذ غابر الأزمان، يدين الأبناء بالشرف والاحترام للأب. إنه السلطة.
- مصالا، إنك عربي حقا! متغير مثل الريح. أليس أنت الذي علمني ذات يوم أن ليس هناك سلطة حقيقية إلّا وكانت مبنية على الحب؟ بيد أنّ أبي، وأنت أدرى بذلك، لا يحبني. إنه يتحملني!

زمجر مصالا علامة على التذمر:

- مولاي، كم من مرة ينبغي لي تذكيرك بأني لستُ عربيا، وإنما أنا بربري؟

تظاهر بيدرو بالجهل.



- أين يكمن الفرق؟

- الفرق؟ أنا ثمرة ممالك تعود لآلاف من السنين كثيرة! بل إن قبيلة مِكْناسَة التي أنحدر منها بَنت مملكة قديمة قدم النجوم. مملكة سِجِلْماسَة. عند تخوم الصحراء، سيدة الواحات وطرق القوافل. وهذا قبل أن يظهر أثر للعرب!

أومأ مصالا باستياء.

- ما جدوى تكرارك لما تعرفه عن ظهر قلب؟

أطلق بيدرو ضحكة مدوية.

- أنا سعيد بملاحظة أنه بالرغم من شعرك الأبيض ولحيتك الهرمة، تظل مفرطاً في حساسيتك أكثر من أي طفل.

- سوف أسمح لنفسي بإبداء ملاحظة أنّ مولايَ لا يخالفني في ذلك، إذ إضافة إلى الحساسية المفرطة، هناك غياب البصيرة. أقصد بالكلام النظرة التي لديك عن أبيك.

- تابع الكلام.

- الملك يحبك. لكنه لا يعرف السبيل للتعبير عن ذلك. هل تظن أن الإفصاح عن الحب هو دليل على الحب؟

- لا حركة، لا إشارة، لا عطف! لا شيء! لا تخرج من فمه سوى عبارات النقد والتأنيب.

لم يجد مصالا بُدّاً من التبسم.

- لستَ سوى طفل، مولاي. ومثل كل الأطفال، كل شيء فيك متطرف. لقد شاهدتك وأنت تشب عن الطوق. لديك ثبات على التعلق، إستقامة، إنك لا تتحمل الظلم إلى حد أنك مستعد للمجازفة بحياتك كي لا تكون شاهداً عليه أبداً. وفي الوقت نفسه، أنت مسلّط قاهر، مُفعَم بعنف متحكم فيه، ما إن ينطلق حتى يصل حد الثوران. إنك تسيء الظن بنفسك. أليس ذاك دور



الأب، والأكثر من هذا دور الملك، أن يريد الأحسن لخلفه؟ هناك حيث ترى النقد ليس ثمة سوى الرغبة في جعلك تتفوق على نفسك؛ هناك حيث ترى التأنيب، فليس ثمة سوى نصائح. كُفَّ إذن عن كونك تلك النار الحارقة التي لا تهلك أحدا سواك. فيما بعد، سوف ترى. ذات يوم، ستعرف بدورك متطلبات الأب.

ثبت دون بيدرو عينيه في عيني خادمه.

منذ أمد بعيد جعله القدر إلى جانبه. لقد شهدت طفولة بيدرو وجه مصالا مراراً أكثر من وجه ألفونسو. صحيح أن بيدرو كان يعرف قصته عن ظهر قلب، على الأقل ما أراد الرجل الإسرار إليه به. ومنذ سن السادسة عشر، كان بحاراً تارة، ومشاركاً في هجمات في البحر الداخلي؛ وتارة تاجراً، يقايض الفلفل والزنجبيل والقرفة، والبخور وتوابل أخرى بالذهب. وفيما بعد، كان صائغ حلي في جنوة، مرتزقاً في البندقية لحساب دوج، المدعو زُوزْدي، ولأسباب مجهولة، عند عودته إلى المغرب، انخرط في جيش موريسكي. وخلال إحدى هجمات هذا الأخير على لشبونة، تم أسره، وخضع للعبودية، واقتيد إلى بلاط ألفونسو الرابع. قدر غاشم، حينما نعلم أنه لقرنين من ذي قبل، في الأراضي البرتغالية، قد عاش أجداد البربري فترات زاهية من المجد حينما أصبحوا حكاما على مدن عريقة مثل لشبونة، وسانتاريم أو كويمبرا أيضاً. بعد تعيينه لخدمة دون بيدرو، تمثلت مهمة مصالا الأولى في تعليم الأمير ركوب الخيل. وفي ذلك، تعدى نجاحه كل الآمال.

- كم عمرك، مصالا؟

- عشرة أيام؟ ألف عام؟ ذلك رهن بالمواسم وبذكرياتي. لكن، لنترك الحديث عني. ولنتحدث بالأحرى عن زواجك المقبل.

- إنك على علم بكل شيء. سوف يتم وفق مشيئة والدي.



- هذا هو القول الحكيم. ومن يدري؟ للنساء ما يكفي من الحيل. ربما تنجح أميرة قشتالة في إدهاشك.

على ضفاف نهر سالادو، ٣٠ اكتوبر

ريح معتدلة تجري على طول المشهد حيث يتناثر الحصى والأشجار العطشى. أخذت طلائع الفجر الأولى تعمّ السهل. يبعد المكان بفراسخ معدودة عن ميناء طريف الصغير وعن جبل طارق، في أقصى جنوب شبه الجزيرة.

وسط صمت مطبق، محاط بالجيوش القشتالية والبرتغالية، كان الأب ألفاريس بيريرا قد فرغ للتو من صلاة تقدمة الذبيحة، ثم شرع الآن في صلاة الشكر. بعد أن ختم قراءته، كشف الكأس المقدسة بيديه الإثنين، ونزع المربع الحريري الذي كان يغطي الصحن ثم ناوله للغلام الذي بجانبه قصْد طيِّه.

في الصف الأول، كان ألفونسو الرابع يراقب مجريات القداس، بوجه رابط الجأش، وجبين شامخ. أمّا صهره وسمِيُّه ألفونسو الحادي عشر، ملك قشتالة وليون، فقد بدا أنه متوتر بشدة. توتر ربما عزاه القدماء إلى فتاء سنّ العاهل: كان بالكاد يبلغ عشرين عاماً.

حولهم، رايات وأعلام خفاقة تشكل غابة على امتداد ضفاف سالادو، التي كان يهب عليها نسيم معتدل تغمره العطور.

كان المسلمون يحتلون أعالي نهر سالادو. وحده النهر كان يفصلهم عن الجيوش القشتالية والبرتغالية.

بدت بلاد الأندلس متأهبة بأكملها.

حينما انتهى القداس، ودون مشورة، خفَّ العاهلان نحو الخيمة الملكية.



ما إن كانا بداخلها، توجه ملك قشتالة وليون نحو المائدة التي نشرت عليها خريطة المنطقة. تفحصها بتمعن وخاطب صهره:

- أخشى من أن نكون قد تأخرنا كثيراً في الوصول، مع الأسف. لقد نجح جيش «السلطان الأكحل» في الالتحام بجيش يوسف، أمير غرناطة. الأول، في مواجهتنا. والثاني، يحتل الربوة، بالجانب الآخر من النهر، حسب طليعتنا، يستقوي بأكثر من ألف من الرماة وستة آلاف من الفرسان والمشاة.

رفع ألفونسو الرابع حاجبه.

- ما القصد من كلامك هذا لي؟
- مولاي، من الحكمة أن نؤجل المعركة. إن كتيبة الفرسان التي خرجت من طليطلة لن تصل إلى هنا قبل انقضاء يومين. من دونها، قد نخاطر بنقصنا العددي.
- تأجيل المعركة!

نظر العاهل البرتغالي بتعجب إلى صهره. كان ذا طلعة بهية، يلبس ديباج بخارى المطرّز بالذهب والفضة. أعلِن راشداً لما بلغ الرابعة عشر من عمره. تم تتويجه في سن التاسعة عشر. وبسرعة أظهر الرجل على أنه محارب رفيع. لقد كان لألفونسو، الذي واجهه طوال ثلاثة أعوام، ما يكفي من الوقت لاختبار شجاعته وخصاله العسكرية.

- عجيب. أنت شاب ومع ذلك تمتلك حيطة الشيوخ. هذا أمر سخيف! كلاّ! الآن! الآن أو فات الأوان! رجالي مستعدون. أنا مستعد. سوف أجتاز النهر عبر جسر المنار وأستولي على الربوة.

قطب القشتالي جبينه.

- مولاي، أنصتوا إلى صوت الحكمة. أنتم معروفون بجسارتكم. لكن، في هذه الحال تحديداً، فقد ندفع ثمنها غالياً جداً.

وأشهد كبار قادته على كلامه.



- ألستُ على صواب؟

وافقه الرجال بالإجماع.

- في هذه الحال، صاح ألفونسو، سوف أغير عليهم لوحدي.
- إنك لا تفكر في ذلك! واحد في مواجهة اثنين!
- خطأ! بالتساوي. إن رمحاً برتغالياً يساوي وبكثير رمحان عربيان!
- أرجوك. لا ترمِ بنفسك في الهاوية. إنّ السلطان لا يستعجل مغادرة الأندلس، سوف يكون لدينا دائماً الوقت للانقضاض عليه!
- إني أسمعك، لكني لا أنصتُ إليك البتة.
- يومان، مولاي! أتوسّل إليك.
- كلا!
- إنك لا تنوي حقيقة الدفع بجنودك دون سند من قواتنا؟

بمثابة جواب، خفّ ألفونسو نحو المخرج.

- صاحب الجلالة! إلى أين أنتم ذاهبون؟ قال مذعوراً أحد الجنود القشتاليين.

كان ألفونسو الرابع قد مضى إلى الخارج.

بخطوات مديدة، عبَرَ المعسكر إلى غاية نقطة تجمع جنوده. لما وصل بمحاذاة واحد من ضباطه، قال آمراً:

- صانشو! حصاني! فليأخذ الرجال أهبتهم. حانت الساعة.
- والجيش القشتالي، مولاي؟
- إنه يقيم في المعسكر، صانشو! إنه يقيم في المعسكر.

لم يسْع الضابط لفهم المقصود. أمر جندياً بإحضار مَطيّة العاهل، حصان عربي رفيع مصدًّا يذكر بالذهب المحروق، ثم أسرع نحو الخِيام. في بضع لحظات، تراصّ ألف فارس برتغالي في صفوف متزاحمة، السيف في الغمد، والرمح في اليد.

اتخذ ألفونسو مكانه على رأس الفرسان، وفي الوقت نفسه الذي



كان يشير فيه بسبابته نحو الجنوب، هناك حيث يترقبهم العدو، صاح بصوت صارم:

- Meus irmãos![1]. إخوتي! مستقبل العالم المسيحي بين أيديكم. سوف تكون المواجهة قاسية، لا يأخذنا في ذلك شك. لكن عند نهايتها، فإن الأجيال المقبلة سوف تخُلّد إلى الأبد ذكرى انتصاركم. إن فزنا هنا، ستكون نهاية التهديد العربي. إلى الأبد!

رفع عينيه نحو السماء ورأى كرة الشمس الملتهبة التي كانت فوق رؤوس الرجال بالتمام. عندئذ استنشق الهواء ملء رئتيه وقرأ البيت الأول من المزمور السابع:

«يا ربي إلهي، عليك توكلت، خلصني!

وفي الحين، ردد الجيش بأكمله الدعاء. وكانت تلك صيحة تردد صداها في أقاصي الأندلس.

ضغط ألفونسو الرابع بخفة على الزمام، وبحدة لكز بعقبيه جنبي مطيته التي شبّت قبل أن تندفع توا إلى الأمام. تواً شطر الجنوب. آخر شيء تناهى إلى سمعه كان نداء كبار القادة القشتاليين المتوسل: «مولاي! كلا! توقفوا!».

كان قد ابتعد سلفاً.

معتلياً صهوة جواده العربي الأصيل، في أعلى الربوة، كان «السلطان الأكحل» أول من رأى سحابة الغبار التي أثارها جيش الفرسان البرتغال. لم يكن في حاجة إلى أمر رجاله باتخاذ وضعية القتال: كانوا على أهبة الاستعداد سلفاً. إن لم يقر عزم العدو على المبادرة بالهجوم، فإن أبا الحسن كان هو المبادر.

- مولاي!

---

(١) بالبرتغالية في الأصل.



ألقى السلطان نظرة سادرة صوب طليعة الجيش المغبرّ الذي نادى عليه.

- ماذا هناك؟
- لعله فخ؟
- فخ؟
- لم يغادر الجيش القشتالي معسكره.
- وبعد؟
- لا أدري، مولاي. ألا يدعو ذلك للغرابة؟ أما كان له أن يزحف على جيش الأمير يوسف؟
- لاشيء يدعو للاستغراب حينما يحكم الله الناس.

استدار السلطان صوب جيوشه وصرخ بصوت عال:

- لقد بث العزيز الجبار الفُرقة بين الكفار! علينا أن نبثّ فيهم الموت!

لوح بيده ومثل رجل واحد، شكُل الرماة الألف صفّاً للمعركة.

في الأسفل، يصحبه هدير الطبول المرعب، كان ألفونسو الرابع قد وطأ للتو جسر المنار. يفصلهم عن الربوة بالكاد فرسخان. وقطعت المسافة عدواً. عند سفح العقبة استراحت الجيوش بعض الوقت لتنظيم الصفوف من جديد. في هذه الآونة تحديداً حُجبت الشمس. من دهشتهم، رفع بعض الجنود رؤوسهم، وشهدوا في الحين موتهم. لم تكن تلك سحابة، ولا سرباً من الجراد ما أظلم السماء، بل هو سرب هائل من السهام. الفضاء والهواء بأكمله، يهتز بقدر ما تتساقط الأطراف المسنونة.

- إلى الأمام! صاح ألفونسو، وقد أدرك بأن حركة من الكرّ كانت تحدث. إلى الأمام!

وقد دبَّ فيها الحماس، باشرت كتيبة المشاة صعود الربوة.



تراكمت الجثث. كان المرء يتقدم وسط الدم والأجساد المثخنة بالجراح. يتقدم بطريقة أو بأخرى، على شفا الإنهاك.

ما إن تم الوصول إلى قمة الهضبة، فكأن موجتان من قعر البحر تلاطمتا وفاض عنهما الزبد والرمل. غضب عارم، إستبسال. وبينما اشتبك الجيشان، إزداد هدير مجلجل مفعم بصرخات مديدة تكابد العناء.

وعلى الفور، صار من غير الممكن التفريق بين البرتغاليين والموريسكيين. بعد اشتباكهم، صاروا كتلة مختلطة يغمرها العرق والصديد.

بلا كلل، كان سيف ألفونسو الرابع يضرب الرؤوس والأطراف. واحد بمواجهة ثلاثة، واحد بمواجهة عشرة. من شدة السعار الكامن في الضربات الموجهة، يصعب تفسير الأمر بإرادة النصر وحدها. كان هناك سبب آخر؛ وكأنه انتقام من نوائب الدهر الماضية، وكأنه، بنشره للموت، كان الملك يفرغ نفسه من عذابات قديمة. ما كان الأمر يتعلق بالموريسكيين فحسب الذين كان يقطع رؤوسهم ذات اليمين وذات الشمال، وإنما لذلك صلة بأشباحه أيضا.

دامت المواجهة طوال ساعة دون أن يختار الحظ معسكره. متردد، كان يميل تارة لهذا الجانب، وطوراً لذاك. لكن حينما وصلت الشمس إلى منتصف مسيرها من الأفق، فقد خلف الانطباع بأنه قد حسم أمره.

- لن نحتمل وقتا طويلا! صاح صانشو. الذي كان يعارك مثل شيطان إلى جانب عاهله. ها هو جيش أمير غرناطة يهاجم خطوطنا الخلفية!

- هراء! سوف نحتمل!

ثار الملك بشدة، مشجعا من معه كلما تدحرج عدو تحت حوافر حصانه.



هل كان لهم أن يتحملوا؟ هل في وسعهم كسر المقاومة الموريسكية لوحدهم؟ سيظل الجواب غير معروف لأن الجيش القشتالي قرر في نهاية المطاف أن يهب لنجدتهم.

لأنهم أخذوا على حين غرة، وتجاوزهم العدد، فإن جنود «السلطان الأكحل» ويوسف قاموا بالتراجع. جزء منهم، الذي يولي ظهره للنهر، لم ينجُ إلا بالارتماء في المياه. ولما انتهى كل شيء، وعلى مدار أكثر من ثلاثة فراسخ، لا ترى سوى الجثث المبقورة، برتغالية، قشتالية وموريسكية. وكأن نهر سالادو خرج عن مجراه كي يغطي بماء أدعى إلى السواد سقوط هذه البقعة من أرض الأندلس.

تحت السماء التي كانت تردد صدى أنّات الجرحى والمحتضرين، ترجل ألفونسو الرابع من مطيته، ركع على ركبته، وقدم الشكر للقديس فانسون.

عند حلول الظلام، تم عدُّ الغنيمة. ومن شدة ما كانت وافرة، فإن قيمة الذهب، في الأيام الموالية، كانت سائرة إلى الانخفاض في كل الأسواق المسيحية بشبه الجزيرة.

امتنع ألفونسو عن أخذ أي نصيب من هذا الكنز. ولم يحتفظ سوى بسيف مزيَّن بالأحجار الكريمة وبوق من النحاس، ورافق ذلك طلب وحيد بأن يوضع الغرضان في قبره يوم مماته.

وقد خلع عليه رجاله، بعد المعركة، لقب O Bravo، المقدام. أما صهره، فقد حاز الدرجة المستحقة، ألا وهي «المنتقم».



٣

لشبونة، ١٥ نوفمبر

ينفتح الساحل المصدَّع على مصب النهر الواسع حيث تتدفق مياه تاجة. شطر المنبع، كان الطمي الذي جرفه النهر يرسم مجموعة من الجزر الصغيرة الموحلة ومن المستنقعات. ونحو المصب، شريط من الكثبان الرملية يحاول الوقوف دون امتزاج المياه العذبة بالمحيط. عند الضفة اليمنى من مصب النهر، تتعاقب خلجان ومرافئ تطوقها رمال ناعمة. وفي الخلف، تنتصب تلال، هي بقايا بركان قديم خامد.

كل يوم قدَّره الرّب، حينما يزحف الغروب، ينبض قعر الأمواج بلمعان خلاسيّ يخلِّف ما يشبه غبار الذهب. وفي هذا المكان يصير نهر تاجة «بحر القصب» وتلك كناية يعود مصدرها لغابر الأزمان. يستمتع الشيوخ بحكاية أنه عندما فقد فِيِيتُون التحكم في عربة الشمس، تسبب في احتراق الكون. ودمرت نيران مخيفة سطح الأرض، وجفَّت الأنهار الكبرى، وسال الذهب الذي جرفه نهر تاجة في مجراه، بعد أن صهرته النيران. في ذلك اليوم بالذات أخذ النهر الواقع قبالة لشبونة اسم «نهر القصب».

زعموا أن عُولِيس مرَّ من هنا. بل بنى المدينة. استولى عليها العرب مدة وسموها أشبونة. وطردهم منها الملك ألفونسو إنريكي. وقد جعل منها واحدٌ ممن خلفه، ألفونسو الثالث، عاصمة مملكته الناشئة.



لقد مات عوليس. والعرب يقبعون في غرناطة. ومضى على موت ألفونسو إنريكي ما يقرب من مائة سنة، وفي يوم العرس هذا، توقفت مياه تاجة عن جرف الذهب من أجل نقل ظل الأعلام التي تزين المدينة.

المدينة والمرسى.

المرسى حيث تتكدس السفن الآتية من المغرب وبيزنطة وانجلترا ومن أماكن أخرى. حيث تتدافع القوارب ذات الهيكل المقوس، ورائحة البحر وسمك القد تزكم الأنوف. يتم إفراغ حمولة زوارق الرابيلو، تلك المراكب ذات الأشرعة المربعة التي تشبه سفن القراصنة، وبراميل الخمر القادمة من أعالي وادي الدورو. حمولات الفلفل والأرز، والأثواب الرقيقة والسكّر التي تعج بها مستودعات تلك السفن الجديدة المسماة caravelas[1]. هنا، فوق الجسور، يتم تفريغ أكوام القماش المصبوغ القادمة من رُوان وغاند؛ هناك، صناديق من النحاس، والقصدير والشمع والرصاص. يتجادل الباعة بحركات بادية حول سعر خشب شجرة البرازيل، تلك الشجرة الغريبة التي تُستعمل مادتها المائلة إلى الحمرة في صنع الأصباغ. والشّب، الآتي من آسيا الصغرى، المطلوب بكثرة لجعل أثواب الصوف تتشرّب باللون، تتخطفه الأيدي وكأنه أحجار كريمة.

يقال إن من هذا المكان، ذات يوم، ركب البحر ثمانية إخوة وأبناء عمومة بحثاً عن «نهاية المحيط». هل رجعوا بعد ذلك؟ أم قضوا نحبهم، وابتلعهم «بحر الظلمات»؟ لم يتبق من مغامرتهم سوى اسم درب، على امتداد الحمامات العمومية: درب المغرورين.

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: سفن شراعية ضخمة من صنع البرتغال استعملت في الرحلات ذات المسافات الطويلة.



اليوم، تفتخر أشبونة بأن تم اختيارها لاستقبال زواج الأمير ولي العهد وأميرة قشتالة. كل سكان المدينة هناك. نساء وأطفال ومتسولون ورجال شرفاء يشكلون مجموعة متنافرة على جانبي الطريق الذي يربط باب البحر وكاتدرائية سِّيه Sé، وهي رمز دائم الحضور لانتصار الملك ألفونسو إنريكي على الموريسكيين. بل هناك أيضاً يهود سُمح لهم، في هذه المناسبة، بمغادرة «حيِّهم اليهودي» في سَاوْ جُولْيَاوْ، الذين يمكن التعرف عليهم من بين الجميع بالنجمة الحمراء ذات الفروع الست المخيطة على لباسهم. وعرب كذلك، إذ تسللوا خفية خارج الحي العربي، موراريا، الحي الواقع على الجانب الغربي من هضبة الحصن الذي يمتد إلى غاية الريبيرا، ذلك النهر ذو المياه الصافية. ويتميزون بوضوح عبر الهلال المطبوع على جلابيبهم.

الأبواب مزينة بالأعلام. وفي الساحات، تتدفق وديان الخمر سلفا. لم يتم نسيان الفقراء، الذين وزعت عليهم سلال الخبز. واسودّ نهر التاجة بالمراكب والسفن الغليونية التجارية.

الناس يترقبون، يحدقون في باب البحر من حيث سوف يلوح الموكب الملكي. ينفد الصبر. يغتنم الباعة المتجولون الفرصة لبيع دمى وأغراض رخيصة يعرضونها على أطباق معلقة إلى حبل حول العنق، بينما باعة الزَّرابي يمتدحون ملء حناجرهم صفات بُسطهم الجلدية.

بغتة، وسط صلصلة النحاس، إرتجّت أجراس الكاتدرائية، وبسرعة، غمر اهتزازها عنان السماء وتوحدت إلى الأبد مع نور الشمس.

سرت رعدة في الجموع. *إنهم قادمون، هذا مؤكد الآن.*

أجل. ها هم!

يتقدم الموكب أطفال بلباس أبيض كامل وهم يفرشون الطريق بالورود. فوق رؤوسهم تصطفق الرايات، لكن العيون لا ترى سوى



لواء المملكة: تسعة قصور مصطفة على طول شريط أحمر، وفي الوسط، أربع شارات زرق خلفها بياض.

الآن حان دور الملك ألفونسو لاجتياز القوس. زوجه، دونا بياتريس، تمتطي فرسها إلى جانبه. وفي الحال، تعالت الصيحات من كل النواحي: المقدام! المقدام! الظاهر أنه لم يعد أحد لا يعرف بالنصر المشهود في سالادوو مفاخر العاهل العسكرية.

هناك تناقض عجيب بين الملكة وزوجها. تبدو نحيفة جداً، أما هو فإنه فارع الطول. تبدو رزينة بشدة، بينما هو مضطرب جدا.

يتبعهما النبلاء، ملتفعون في معاطفهم المطرزة بخيوط من الذهب والفضة.

رجَّ صهيلٌ السماء. إنه حصان دون بيدرو الذي لا ريب قد تذمر من كل هذا الصخب. إنزاح قليلا لكن الفارس أدركه بسرعة. بحركة مهيبة، داعب الأمير رقبة دابته. هدأت ثم انطلقت تَخُبُّ في أثر الزوج الملكي.

وهو يتقدم، كان الزوج المقبل يتكبد عناء الرد على الهتافات بانحناءات بسيطة من رأسه. إنه يستمتع بذلك. لطالما أحب القرب من هذا الشعب الذي يشعر وسطه براحة تفوق كثيراً ما يخالجه وهو بين رجال ونساء الحاشية. سجيته تؤثر في مشاعره. بساطته تزكي يقينه بأن كل ما تبقى ليس سوى كذب.

إلى أين هو ذاهب؟ أين يجره قدره؟ ما مصير هذا الزواج؟

جالت عين دون بيدرو التي بها كحل حول الكاتدرائية. بعد أن ضربهما زلزال منذ بضع سنوات من ذي قبل، إلاّ أن البرجان الاثنان اللذان يحيطان بزهرية واجهتها صمدا رغم ذلك. حدَّث بيدرو نفسه بأن هذان البرجان يشبهانه. مثلهما، فهو يتحمل، وسوف يتحمل في مواجهة الضربات الأبوية الموجعة.



لم ير بعد الأميرة. قيل إنها مليحة. لكن هل تكفي الملاحة حينما يجب الاستحواذ على قلب رجلٍ وهو موصد؟

الآن، وصل الموكب إلى الفِناء.

ينبغي الترجّل من على الفرس. الملك والملكان موجودان بالداخل مسبقا. النبلاء كذلك.

تكفّل خادم بالمَطيّة. إجتاز بيدرو البوابة بدوره وصعد الممشى إلى أسفل المذبح حيث تجمع رجال الكهنوت، ومثلما هو معهود، سيادته مِنْديس، مطران لشبونة.

وقف الأمير على شمال المذبح. عبَر تيارٌ صقيعي ظهره. هذه القاعة العظيمة، المظلمة، بأعمدتها المندفعة نحو الأعلى مثل أشجار الغابة، بأقواسها التي تبدو وكأنها أنياب نشبت في القبة السماوية، لطالما أقلقت راحته. وكأن الموت أتخذ صحن الكنيسة مقاما له. وما العجب في ذلك؟ والنّاووس الذي سيحتضن ذات يوم جثمان والده، ألا يتربع وسط كنيسة سانتو إدفونسو الصغيرة، واحدة من المصلّيات التسع المصطفة على جانبي رواق الخورس؟

سرت رجفة في الحشد. بدورها دخلت الأميرة إلى الكاتدرائية. إنها تمشي ممسكة بذراع والدها مانويل القشتالي، دوق بينافييل. والرجل حسنٌ مُؤنق. يبدو وكأنه يطفو. شارب مثني يخط وجه النسر العجوز الذي له.

يحاول دون بيدرو تمييز ملامح خطّيبته تحت حجاب الدانتيلا الأبيض الناصع، لكن لم يلمح سوى ما يشبه الشفتين، وتخطيط ذقنٍ، وحاشية عينين. إنها تمسك بشدة بين يديها باقة من الأزهار البيض المعقودة بشرائط من الحرير الأبيض المصقول. ذيل ثوبها، الذي يرفعه أطفال، يذكر بأثر عقبته سفينة في البحر.

في أعقابهم، الوصيفات.



هن ستة.

يبتسمن. يشعر المرء وكأن التأثر غلبهن. ربما هنّ كذلك أكثر من العروس، ظن دون بيدرو. بعد كل شيء، مثلما هو الشأن بالنسبة له، لم يكن لدى الأميرة من خيار. لقد أيقظت هذه الخاطرة في الأمير الشاب إحساساً خفياً بالشفقة.

صدحت الجوقة بترنيمة تمجد مريم العذراء. ثم الثناء على حامي البلد، ساو فرناندو دي بوغليون، المعروف أيضاً باسم القديس أنطوان البَادُوفي، الذي رأى النور على بعد خطوات من هنا.

الآن لم تعد الأميرة ووالدها إلى على بعد خطوة واحدة من دون بيدرو. وجه الدوق التحية ثم تنحى.

ها هما لوحدهما. وجهاً لوجه.

إنها لا تجرؤ على رفع طرفها نحوه. بالكاد يجرؤ على تفرّسها. دعاهما المطران للاقتراب.

في وسع المراسيم أن تبتدئ.

فيم يفكر؟ تساءلت دونا كونستانزا، وهي مطرقة دوما.

أمر عجيب، لحظ دون بيدرو. يداها ترتجفان.

بين فينة وأخرى، ينتزعهما سيادته منديس من تأملاتهما. حينها استجمع كل منهما قوته وتظاهرا بالصلاة.

فيما بعد، لن يتذكر دون بيدرو سوى الانطباع الذي خالجه أثناء تبادل الخاتمين، في اللحظة المحددة التي تلامست فيها أياديهما. إحساس بالحرج. ومنذ تلك اللحظة، أدرك بأنه رغم اقترانهما، فلن يتحد بَدَناهما دون عناء.

باركهما المطران، وصدحت الجوقة بترتيل صلاة الشكر. قُضي الأمر. تم زواج أميرة قشتالة والأمير ولي عهد البرتغال. في وسع المملكتين أن تذهبا في سلام.



ولمّا دار على عقبيه لصعود الممشى المركزي ناحية المخرج، أبصر دون بيدرو...

كلا. ليس في مقدورها أن تكون حقيقية! ذلك البياض! بريق ذلك الملمح، ذلك الجمال الأخّاذ! ليس في وسعها أن تكون حقيقية. تلكما الوجنتان من زنبق ومن ورد. جيد من مرمر. وتحت الاستبرق، نهدان من عاج أو من ثلج؟ شعر مذهب، ذلك مؤكد، مضفور بذُرَى بحر القصب. شفتان مرصعتان بالياقوت والمرجان. وعيناها. عينانِ لهما لون العقيق كالبحر. خضراوان مثل غد. خضراوان مثل الأبد.

وكانت أول الكلمات التي خطرت بباله هي colo de garça,colo... de...garça عنق البجعة.

كان لا بد له من الاستناد إلى ذراع دونا كونستانزا حتى لا يترنّح. هل فطنت لذلك؟

حينما وصلا بمحاذاة إيناس دي كاسترو، حدّث بيدرو نفسه بأنها لا محالة سمعتْ قلبه الذي جُنَّ. جَسَر على الوقوف. جسر على رفع ناظريه نحوها. أحدّ بصره فيها وكأنه أراد الإنصهار بداخلها وأن تنصهر بداخله. كم من الوقت؟ كم من الوقت ظل مقيماً على ذلك النحو في تأملها؟

كانت الحاشية تنتظر. المطران ينتظر.

وفي الأخير، أفلح في التخلص من رؤيته واستأنف مسيره نحو المخرج.

وبعد أن جلس إلى مائدة في غرفة الطعام بالقصر الملكي في الكَاسُوفَا (القصبة) قرر أن يتفرس زوجته.

كانت مليحة بالفعل. وقد أراحه ذلك بعض الشيء.

إندسّ مشعوذون وموسيقيون بين المدعوين. في ثنايا موقد هائل، يُشوى جَديٌ صغير. ضحكات منطلقة، والأطباق، المحملة



بالمأكولات، تصفف مسبقاً على الموائد. أسماك القدّ، محّار، أنقيلس، رخويّات متبلة بنبات الكزبرة، دجاج، أرانب... ومهما كان تنوع الأطباق، لم يلمسها الأمير.

- ألا تشعر بالجوع؟ تجرأت وسألته دونا كونستانزا بغتة.

إنتفضَ، وقد أُخذ على حين غرة:

- إنّه الإنفعال... الإنفعال بلا ريب. لكن أنا... أنا...

انقبضت يداه. مرة أخرى الكلمات التي تتعثر، تنحبس في الحلق. وقد أفلح رغم كل شيء في إتمام جملته:

- لم تكن لدي أبداً شهية كبيرة في الأكل.

حاولت الأميرة حجب حيرتها. لم يتم إخبارها بأن زوجها المقبل كان يعاني من التأتأة. والغريب في الأمر، أنه بدل أن تسبب لها حرجاً، فإن هذه الملاحظة أدخلت عليها الطمأنينة. لقد جعلت الشخص أقل مهابة.

شجِعة، خاطرت بسؤال جديد:

- متى نذهب إلى مونتيمور؟

- بعد غد.

خيم صمت، ثم:

- هل وُلدتَ هناك؟

- كلا. أبعد من ذلك نحو الشمال. بكويمبرا. ناحية البيراس.

حركت الأميرة رأسها.

- حسنا.

ما إن كادت تنطق بهذه الكلمة حتى تساءلت عن معناها. لكن ماذا تقول غير هذا؟ لم يكن الأمير يدل على مشاركته الحديث. الذنب بلا ريب، يعود لصعوبة التعبير.

- أشرب نخب السعادة! أشرب نخب رفاه الزوجين.



انتصب الملك ألفونسو ورفع كأسه ناحية الزوج الشاب. ثم واصل:

- فليكونا سعيدين، ولينعم عليهما رب العزّة بالعافية والبنين.

انحنى صوب كارلوس فالديس، سفير قشتالة، هاتفا بصوت أشد قوة:

- A Castelà! A Portugal[1]!
- لقشتالة! للبرتغال!

ألقت الملكة بياتريس على نجلها نظرة عطف وتواطؤ. نطقت شفتاها بمتمنيات السعادة، لكن الضجيج حجبها.

في هذه اللحظة عبر برق مباغت غرفة الطعام، وتبعه دويّ مكتوم.

- العاصفة، لاحظ دون بيدرو. سوف تمطر السماء.

لم يكد يكمل جملته حتى انشقت الغيوم المتراكمة فوق القصبة وقد خلّصت سيولا من المياه.

تقبّضت دونا كونستانزا.

لطالما خشيت العواصف.

- في النهاية، لا يبدو أن الطقس أكثر رحمة مما هو عليه في قشتالة. ليت الخدم فكروا في سعْر المَجامِر بحجرتها.

خيّم الليل على المدينة. كفّت العاصفة. لم يعد يسمع سوى التطام البحر في الخلجان والمرافئ الذي يختلط بنبضات قلب دونا كونستانزا.

كانت قد أسدلت ستائر الحرير الأزرق التي تحيط بالسرير ذي المظلة، وهي تنتظر، مضطجعة على هيئة الجنين تحت الملاءات. كانت ترتجف لأدنى خشخشة. وحدها النيران التي تلتهب في الموقد كانت تضيء الحجرة بومضات شاحبة.

---

(١) بالبرتغالية في الأصل.



هل سيأتي؟

قرع جرس الكاتدرائية معلنا منتصف الليل.

هل سيأتي؟

مرّت ساعة. بات جفناها مثقلان. كلا. لا يجب أن تنام على الأخصّ. ليس في ليلة العرس.

لحسن الحظ أن ألف خاطرة كانت تحاصر عقلها وتمنعها من السقوط في براثن النوم. كلمات، قطع من جمل مختلسة هنا وهنا من أفواه الخادمات، تعود بلا كلل. كانت تسعى لأن تطبع صورة على تلك الكلمات. دون جدوى. الأمر يتعلق بألم وبدم، بلذة أيضا؛ لكن نادرا ما يحصل ذلك.

إنه...

كفت الأميرة عن التفكير. هناك طرق على الباب.

هو!

تمتمت:

- أدخلْ. ..

ظل الباب موصداً. كررت، لكن هذه المرة وهي ترفع صوتها درجة:

- أدخلْ!

سمعت صرير دفة الباب التي تدور على مفاصله.

- أهذا أنت؟ دون بيدرو؟

طمأنها الأمير.

خفق نعل. كان يمشي نحو السرير.

بالكاد أزاحت الستائر بما يكفي للمحه.

قال:

- كنتُ... كنت أخشى إيقاظك.



لم يجسر على أن يضيف: «أبي. أبي كان سوف يعتبر غيابي غير مناسب»

- كلا. لم أكن نائمة بتاتا. الجو بارد بشدة.

ألقى نظرة نحو المدخنة.

- رغم ذلك يبدو أن النار سُعِّرَت جيدا.

شرعت الستائر بالكامل وجهدت للتبسم:

- قلت لي، إنك عادة ما لا تتمتع بشهية كبيرة في الأكل. وأنا، عادة ما أشعر بالبرد.

ماذا كان يفعل وقوفاً عند هذا السرير، ملفّع في سراويله الضيقة ومعطفه الذي للمطران؟ لو انتصح، لدار على عقبيه، وذهب إلى مربط الخيول، وامتطى حصانه، وانصرف مسرعا نحو الأمام. كان يتخيل من حيث هو هنا الهرج الذي سيعقب مثل هذا الموقف. ستنتقد اللعنة من جديد على المملكة. بل أسوأ من ذلك، سيتم الإعلان عن حرب ما.

تشجع، دون بيدرو! عناق أفضل من حرب وتلك هي المناسبة للكشف أخيراً عن ذلك الفعل الغامض المسمى «حُبّ». لقد تكلم مراراً عن هذه الأشياء مع مصالا الذي لم يعدم أبداً قصصاً عن النساء. أربعة! أربعة في ليلة واحدة، هذا ما أفضى به إليه ذات يوم.

خلع معطفه الذي تركه يسقط على الأرض وجلس على حافة السرير.

انزوت لصق الوسائد.

أشار إلى عُصابة رأسها الليلية التي كانت تحجب شعرها جزئياً.

- لديك شعر جميل. للأسف لا نراه أبداً.

إحمرّت خجلاً وفكّت بتؤدة الشريط المخملي الذي كان يعصب قمة رأسها. وفي الأثناء، أرخت اللحاف الذي كان يغطيها.

رأى بأنها كانت عارية....



٤

٢٢ نوفمبر، أفينيون، قصر البابوات

اجتاز قداسة بنيدكت الثاني عشر، واسمه الحقيقي جاك فورنيي، بخطوة نشطة حجرة الاستقبال التي تجاور غرفة نومه. ودون أن يتوقف، حيًا بإيماءة من رأسه كاتبه الخاص، وتوجه ناحية المصطبة المغطاة بمظلة ذات لون قرمزي، صعد درجتين وجلس على الكرسي البابوي.

للحظة وجيزة، وقع بصره على النجود المزخرفة التي تزين الجدران، وانتقل ناحية المذبح، والمدخنة، والزينة الأخاذة بالمرمر المخادع للعين، وحدَّث نفسه بأنه بعد كل تمحيص، لم يكن مستاءً من العمل المنجز، حتى ولو أن هناك الشيء الكثير مما يتبقى إنجازه. ها قد مرّت ستّة أعوام على خلافته ليوحنا الثاني والعشرين على عرش بطرس. وفي وقت وجيز، أشرف على بناء هذا القصر العظيم الذي يضم منذئذ الكرسي الرسولي في أفينيون. صحيح أنه محاط بأبراجوتسيِّجه أسوار، إلاّ أنّ البناء يذكرّ على الأحرى بقلعة. لكن في تلك الأوقات العصيبة التي لم تكف الكنيسة عن جلب أطماع الأمراء والملوك، بعد انهيار السلطة الرومانية، التي أرغمت البابوية، ثلاثين عاماً من ذي قبل، على الهروب، صار من اللازم استضافة رئيس العالم المسيحيي في مكان يوفر قدراً كبيراً بعض الشيء من الأمن



يفوق في ذلك القصر الأسقفي القديم وأبعد أكثر من ضفاف نهر التيبر.

إنقلاب عجيب هو ذاك الرحيل القسري من إيطاليا. مهين أيضاً. لكن الحرب الضروس التي تواجه فيها آل أورسيني وآل كولونا، والضغوط التي مارستها هاتان العائلتان على الانتخاب الرسولي جعلت من وجود الكنيسة في روما أمراً لا يحتمل. ألم يبلغ السيل الزبى حينما وصلت الوقاحة بذلك المارق إتيان كُولُونا أن استولى على الموكب البابوي الذي كان ينقل المال المخصص لشراء أملاك عقارية في مستنقعات الجُسور؟ والأسوأ من ذلك، ألم يُقدم عضو آخر من هذه العائلة على اقتراف الجرم الأعظم حينما صفع بونيفاس الثامن لما هجم عليه داخل إقامته في آغاني؟ بين كماشَتي آل غوِيلفِا، وهم مؤيدون أشداء للبابا وآل جِبلينا، الذين يعادون السيادة البابوية، أصبح من العاجل على خليفة السيد المسيح في الأرض أن يستردّ ولو جزءاً من استقلاليته. جزء، إذ حتى في هذه الحال، لم يكن بمنآى عن استبداد الملوك وبطشهم. لِكم من الوقت سوف يظل الكرسي الرسولي بعيداً عن جذوره، بعيداً عن المدينة ذات الهضاب السبعة حيث يرقد رماد بطرس ويوحنا؟ لِكم من الوقت سوف تمتد هذه الغربة القسرية التي وصفها ذلك الكاتب الخائن دانتي ألغيري بعبارة «أسير بابل» أو «موعد العفاريت»؟ لم يمض يوم دون أن يسعى بنيدكت الثاني عشر للعودة إلى روما، لكن صوت الحكمة كان يهتف له بأنه مادام النظام المدني غائباً، فإن الرجوع إلى روما سوف يعرض حكم الكنيسة لخطر فادح.

بسط ثنايا مسوحه الأبيض السيسترسياني ـ وهو لباس يُصرّ على ارتدائه مفضلاً إيّاه على الألبسة الأسقفية المعتادة ـ وأشار إلى كاتبه بالتقدم نحوه.



- إذن مونسنيور، أي سبب يدعو لأن استقبلك دون انتظار؟ أفترض أن الأمر يخص شأناً خطيرا.

أقبل الكالردينال دو فونتناي ثم وقف عند المصطبة. قصير القامة، كان يبدو أنه جاثم تماماً تحت ظل البابا ـ الذي لم يكن رغم ذلك طويلاً جداً ـ وتحت المهابة التي تشع من المكان.

أجاب مذعناً:

- سوف تحكمون على ذلك بنفسكم، قداستكم.

استمد نفساً قصيرا.

- من أجل أن يكون عرضي واضحاً، سوف أجبر على الرجوع قليلاً إلى الماضي.

- إفعلْ إذن.

- بدأ كل شيء بعد وفاة واحد من سابقيك، بنديكت الحادي عشر...

- نيكولاس بوكازيني؟ أجل. كان عهداً قصيراً بالأخرى، إن أسعفتني ذاكرتي.

- بالكاد بضعة أشهر.

- تابعْ، من فضلك.

- بعد وفاته، إلتأم المجمع المقدس في بيروجْيا بغية إيجاد من يخلفه. بعد إحدى عشر شهر طويلة من النقاش، بسبب الانقسامات المعقدة والتي لا حصر لها، لم يحصل أي كاردينال على الأغلبية المطلوبة المتمثلة في ثلثي الأصوات. وفي نهاية المطاف، اتفق الناخبون على اختيار أسقف بوردو، المونسنيور برتران دو غوط. حينما وصل خبر انتخابه (وكان ذلك بتاريخ ١٩ يونيو ١٣٠٥) عمد كليمان الخامس ـ هذا هو الاسم الذي اختاره لنفسه ـ لشد الرحال فوراً عاقداً العزم على أن يتم تتويجه في



أرض الإمبراطورية بمدينة فيينْ، والتوجه بعد ذلك إلى إيطاليا.

- لم يصل أبداً إلى وجهته.

- ذلك صحيح. إنكم تعلمون الأسباب مثلي. تدخُل فليب لو بيل، ضغوطات من كل النواحي. متطلبات المَلِك من أجل تقديم حلول مناسبة للمشاكل التي اعترضته في الكرسي الرسولي. تهديدات بالانتقام إن لم يتم إرضاؤه. باختصار. رغبة منه لربح الوقت، قرر الكرسي الرسولي أن لا يواصل رحلته إلى غاية إيطاليا. لعلمه بالوضع السائد في دويلات الكنيسة والفوضى التي كانت تثيرها طبقة النبلاء، قرر أن يظل في منطقة الجنوب الفرنسية، وأقام هنا، في أفينيون. كان ذلك عام ١٣٠٩. ملك نابولي وصقلية، كُونْت بروفانسيا، كان إذّاك مالكا للمدينة. في نظر الحبر الأعظم، كانت تلك مجرد إقامة مؤقتة، لاسيما أن الكثير من خدمات الإدارة البابوية ظلت دائماً في روما، وبالتحديد بين أسوار قصر لَاطْرانْ.

توقف الكاتب هنيهة لاجتذاب الملاحظة:

- أثير انتباه قداستكم إلى هذا التفصيل الأخير. حيث ستكون له أهميته في ما يلي.

استأنف قائلا:

- مات كليمان الخامس شهر أبريل ١٣١٤. وسوف يتطلب الأمر مرور عامين للعثور على خلف له. وفي شهر غشت ١٣١٦ فحسب، برزت أغلبية لصالح فرنسي آخر، الكاردينال جاك دويز. وفي حقيقة الأمر، بخلاف سلفه، لم يتم اختياره نظراً لصفاته، وإنما لكبر سنّه. سنّ أعطى لمختلف الأطراف أملاً في عهدة أسقفية قصيرة، ومع ذلك طويلة بما يكفي للتوفر على الوقت بغية التفاوض مسبقاً على الانتخاب الموالي. لكن الانسان يفكر والرّب...



هزة كتف أكّدت هذه الجملة الأخيرة بينما كان مسترسلا :

وقد عُدَّ حكم يوحنّا الثاني والعشرين، ذاك هو الاسم الذي اتخذه لنفسه، واحدة من أطول فترات الحكم في تاريخ العهدة الأسقفية. ثمانية عشر عاما. ومنذ عهد كليمان الخامس، ورغم أن قرار الحفاظ على الكرسي الرسولي في هذا المكان لم يتم اتخاذه رسمياً إلا على يد قداستكم، لا أحد من خلفاء السيد المسيح على الأرض سعى للعودة إلى روما. وخلال كل هذا الوقت، فإن خدمات الإدارة البابوية - التي لم تغادر روما أبداً - صارت معزولة عن الكرسي الرسولي. لقد استعدنا بعض الرسائل الموضوعة الآن في مكان آمن، هنا، في الخزانة. إلاّ أن الغالبية العظمى من الوثائق ما تزال دائماً بلاطران.

كتم بنيدكت الثاني عشر تثاؤباً. ها قد مرت أربع سنوات تقريبا وبرتران دو فونتناي كاتبه الخاص. كان بلا منازع رجلاً محمود الخصال ومتبحرا رفيعا، لكنه يشكو من عيب كبير: الهوَس بالتفاصيل.

رفع البابا يده وكأنه يوقف الأخبار التي سوف تلي.

- أعتقد، مونسنيور، بأنه لم يكن حرصك الشديد على هذا اللقاء بغرض أن تعطيني درساً في التاريخ الرسولي؟

إحمرّت وجنتا الكاتب. وعاجل محتجّاً :

- كلا، كلا. ها أنا أصل إلى بيت القصيد.

اكتست ملامحه صرامة شديدة كي يعلن قائلا :

- لقد تم اقتراف سرقة.

زوى بنيدكت الثاني عشر ما بين حاجبيه :

- سرقة؟ أين ذلك؟

- في السجلات المهجورة بأقبية قصر لاطران. لقد أخبرني الأب كامبانا. وصل طيٌّ البارحة، آخر الظهيرة.



- والغرض المسروق؟

استغرق برتران دو فونتناي ثواني معدودة قبل أن يعلن:

- ملف «رسالة القس يوحنا». اختلسها أحدهم.

أمال البابا رأسه إلى الخلف بشدة.

- هل تقصد مجمل الملف؟

- يبدو أن الأمر كذلك، قداستكم.

- هذا غير معقول؟ كيف حدث شيء من هذا القبيل؟ حسب علمي، الوثائق السرية محفوظة في مكان سري. ولا يدخل الناس إلى لاطران مثل دخولهم إلى الخان؟

وشّح الكاردينال وجهه مسحة من الأسى.

- قداستكم، منذ أمد طويل غاب النظام والمنطق عن روما وصار كل من القصر والكاتدرائية رمزاً لتقلباتنا. يدخل من يريد. وينهب من يرغب. إن الـ Scala santa[1] الذي جيء به من قصر بيلاطس البنطي والذي كان ارتقاه مخلصنا يوم محنته ما فتئ يدنسه محطمو الأيقونات.

- الجرم اقترفه إذن شخص من الخارج.

كان ذلك سؤالا أكثر منه تأكيد.

- ذلك غير مؤكد كثيراً، قال فونتناي مستدركاً. وفق رسالة الأب كامبانا، يوم وقوع السرقة بالتحديد، اختفى راهب فرانسيسكاني، وانقطع أثره بالمرة. يتعلق الأمر بالمدعو جوزيبي كاردوتشي. كان يعمل في السجلات. كل شيء يدعو للاعتقاد بأنه هو المذنب.

نهض البابا واثباً وأخذ يذرع الغرفة بخطى سريعة.

- هذا مرعب! مرعب! هل تتخيل العواقب؟

---

(١) بالإيطالية في الأصل: السلم المقدس



توقف بغتة.

- شيء ما يستعصي عَليّ، رغم ذلك. إذا ارتأى أحد أن في اختلاس هذه الوثائق فائدة، فذلك لأنه كان على علم بمضمونها؟ وبما أنه باستثنائي أنا، ومن خلفني وقلة من المطلعين الذين تعدُّ من بينهم، لم يكن في مقدور أحد معرفة مضمون الملف.

طوّح بيده ضارباً في الهواء بغضب.

- كل ذلك يرقى إلى إنُسونْت الرابع. لم أفهم أبداً علة ذلك، بعد أن اكتشف ما اكتشف، رأى سابقي أنّ: من المفيد الحفاظ على تقرير المبشرين! وكان ذلك قراراً سخيفاً وخطراً! كان يجب تدمير تلك المعلومات. رميها في النار! لا شيء! كان لا يجب الحفاظ على شيء!

وافقه الكاردينال بصمت، وإن في أعماقه يعتبر أن إنسونت الرابع كان لديه بعض ظروف التخفيف. في تلك الحقبة المعنية، عام ١٢٤٥، كان في صراع مع الامبراطور فردريك الثاني من هوهنستوفن، وأجبر على اللجوء إلى مدينة ليون. ما كان مطلوباً أن تشكل قضية رسائل يوحنّا قسطاً من أولوياته. لكن تلك كانت حكاية أخرى.

عاد البابا إلى المصطبة وتهالك على الكرسي.

- اكتب حالا إلى الأب كامبانا. من اللازم العثور على السارق واسترجاع الوثائق. لازم! هل تسمعني؟

- بالتأكيد، قداستكم. سوف يتم ذلك، لكن...

- ماذا إذن؟

- لا أريد الظهور بمظهر المتشائم، لكن العثور على رجل هارب على امتداد إيطاليا ـ إن كان ما يزال موجودا بها في ساعتنا هذه ـ يبدو لي مهمة محفوفة بالمخاطر كثيراً، إن لم أقل مستحيلة.



رفع بنيدكت الثاني عشر ذراعيه نحو السماء.

- هل لدينا خيار؟

صرف البابا كاتبه الخاص بحركة من يده.

- انصرف! قم باللازم. وعلى الأخص لا تغفل عن الدعاء! أدعُ الرب! لأني لا أجرؤ على تخيل ما قد يقع إن تسربت أخبار عن هذه القضية.

بينما كان الكاردينال يتجه بخفة ناحية المخرج، ناداه الحبر الأعظم:

- سؤال أخير.

- أجل. قداستكم؟

- ما عدا أنت وأنا، من غيرنا على علم بهذه السرقة؟

حرك مونسنيور دو فونتناي رأسه:

- لا أحد، قداستكم.

إنه مخطئ. في اللحظة نفسها التي كان ينطق فيها بهذا التأكيد، داخل قاعة الطعام الفسيحة المجاورة لحجرة الاستقبال، كان هناك طيف مندسّ في معطف بُنّي، تغطي قبعةٌ قمةَ رأسه، خصره مشدودة بحزام من ليف القنب، يبتعد عن المصراع الذي لم يكف عن الاستناد إليه طوال الحديث بأكمله. دار الرجل على عقبيه واختفى بخطوات سريعة. كان وجهه يتوهج ناراً.

مونتيمور، البرتغال، ٢٣ نوفمبر.

توقف ناقوس صلاة التبشير عن الرنين. وخيم الصمت على شفق الغروب.

محتجباً خلف سارية، أحدَّ دون بيدرو بصره للمرة الأخيرة في مدخل دير القديس فانسان قبل أن يتلفظ بصوت مكتوم:



- لن تأتي.
- ذلك أفضل، رد مصالا. فكرتك كانت سخيفة! تفكر في الأمر إذن! كنتَ تريد أن أناول دونا إيناس طيًّا موقعاً باسمك، وهذا على مرأى ومسمع من زوجتك وأمام باقي الوصيفات. جنون!
- خطأ! ليس هذا ما ارتأيته، وأنت تعلم ذلك جيدا. يومياً، ترافق هؤلاء النسوة كوستانزا، يوميا بالضبط قبل صلاة التبشير المسائية. يتجولن هنا، تحت الأقواس، قبل الدخول للصلاة. كنت سأبقى متوارياً وكنتَ ستنتهز لحظة توجد فيها إيناس وحدها لمحادثتها.
- وماذا لو أن سيدتها أقبلت لسؤالها عن مضمون الرسالة؟ ماذا لو أمرت بقراءة خطابك؟ أقبل أن لا تهتم كثيراً لمصيرك، لكن فكر حينها في مصير دونا إيناس!

حرك رأسه بصرامة.

- إنك تخيفني. سرير زوجتك دافئ ما يزال وها إنّ قلبك وجسمك يتيهان نحو أخرى.

ندت عن دون بيدرو صرخة امتعاض.

- ألا تفهم إذن؟ أعرف أنها هي. ما إن أبصرتها في الكاتدرائية، حتى أدركتُ أنها هي.
- جنون! كرر مصالا. لقد أفضتَ إلي أنك لا تعرف شيئاً عن هذه السيدة! ربما قلبها مشغول سلفاً. حتى اسمها مجهول لديك.
- ارتدع. في هذه الأثناء، تكفلت بالاستخبار. إني أعرف أموراً كثيرة.

نظر إليه البربري، وهو مذهول.

- أجل. أكد بيدرو. لقد سألت واحدة من الوصيفات، وكذلك كبير الخدم.
- فليغفر الله طيشك! في هذه الساعة، كن على يقين بأن زوجتك قد



جرى إخبارها بتصرفك.

- وما أهمية ذلك؟

أمسك مصالا رأسه بين يديه.

- كنتُ محقا حينما قلت لك إنك لست سوى طفل، وبأنك مثل كل الأطفال، كل شيء فيك متطرف.

غير مبال بالفزع الذي أثاره، واصل دون بيدرو:

- ليس لديها زوج بتاتا.

- وماذا أيضا؟

- إنها بنت دون فرنانديز دو كاسترو الذي استحق لقب «أصيل الحرب». إنه من نسل ملك قشتالة سانشو الرابع. ينتمي لواحدة من أعرق الأسر في شبه الجزيرة، المنتسبة للجذع نفسه الذي منه دون دييغ.

- دون دييغ؟ أب le Cid، السَّيد؟

- تماماً.

...Le Cid دون رودريغ دياز دو بيفار. السيد. المولى. شخصية أسطورية إن عُدَّت كذلك. كل المنشدين في اسبانيا النصرانية جعلوا منه بطلا، بينما هو كان قد نهب كنائس، وأحرق أديرة، وذبَّح النصارى والمور على حد سواء. حاربه أسلاف مصالا. وسقط العديد منهم صرعى بحد سيفه.

- كل هذا طريف جداً، دمدم مصالا، لكنه لا يغير في شيء من الخطر الذي يحدق بك. إفهم أن الأمر لا يتعلق فقط بخداع، بل هو مسٌّ بشرف قشتالة. اصرف نظرك عن ذلك! اطرد هذه المرأة من خواطرك.

دبتَ مسحة صارمة في تقاطيع الأمير.

- لا شيء أثر فيك مما كشفته لك منذ حين؟



ـ بلى. دوختك.

ـ ألم أبين لك بأن أبا إيناس هو سليل الملك سانشو القشتالي؟ وهل ذلك بكل تلك الأهمية؟

ـ فكّرْ. أمي، الملكة بياتريس، أليست هي كريمة الملك سانشو؟

ـ ثم...؟

صاح دون بيدرو:

ـ الدم. دونا إيناس وأنا يربطنا الدم!

هز مصالا كتفيه.

ـ إذن؟

ـ هل أنت أعمى أم أصم؟ أليست هذه علامة؟

ـ طبعا. علامة على ضلالك!

أبعد الأمير العتاب بحركة منزعجة.

ـ إضافة إلى ذلك، تابع مصالا قائلا، إنك تنسى بأنها وصيفة. حتى لو أرادت، فإن وظيفتها تحرم عليها كل خيانة. إنك تهدر وقتك.

مستغرقاً في خواطره، عاد بيدرو من جديد للسير على طول رواق الأقواس القوطية.

ـ لا أفهم ما الذي قد وقع حقاً. لماذا لم تجئن؟ دونا كونستانزا هي التقوى وقد تجسمت في امرأة. لم يسبق لها أبداً أن أغفلت فرصة للخشوع.

استدار بحدة نحو عبده.

ـ هل أخبرتك بذلك؟ إنها ترتسم بشارة الصليب بعد مطارحة الغرام.

ـ أعرف من ترتسم بشارة الصليب قبل أن تهُم بالقتل. أفضّل تقوى زوجتك.

غمغم الأمير بشيء ما وانصرف قدّامه سويًا. وصل الرجلان قبالة بوابة الكنيسة، بوابة من الخشب الداكن صقله الزمن. هناك تفصيل



عجيب، إذ يمنة هذه البوابة، نافذة معزولة كان إطارها الخشبي منحوتا تزينه طحالب بحرية وأحجار المرجان وأصداف، ولكن أيضاً بحبال وسلاسل يحملها نُوتي.

- ماذا يفعل هذا الصُنعُ في مكان للصلاة؟ تعجب مصالا.

- يا له من سؤال! ألسنا شعباً من البحارة؟ سفننا تغامر هناك حيث لا يجسر أحد على المخاطرة، إلى حدود la terra incognita[1].
كل يوم تغتني خرائطنا البرتغالية بدلائل جديدة. خرائط ملاحية عندما نقارنها بالخريطة البحرية البيزانية، تبدو هذه الأخيرة بمظهر المخطوطة الشاحبة. ألا يدين الناس لجدي، الملك دينيس بامتلاك أسطول بحري قوي؟ هذه النافذة تكريم لمجد ربابنتنا.

توشح وجه العبد بابتسامة ساخرة:

- لعل أنفتك قد تتعرض للخدش، لكني أسمح لنفسي وأخبرك أن الأسطول الذي بناه جدكم لم تقم له قائمة دون اللجوء إلى قدرات بحارة من جنوة. من جهة أخرى، نحن العرب، أبحرنا أبعد من ذلك بكثير ومنذ زمن أقدم من بحارتكم أو بحارة شبه الجزيرة سواء عن طريق البر أو البحر. منذ قرنين على أقل تقدير تجاوز مستكشف اسمه القشراني جنوب الشلال الثالث للنيل ودخل بلاد النوبة النصرانية. أما أحد إخوتي في الدين، ابن بطوطة، وهو شخص كان لي شرف اللقاء به في طنجة، فقد جاب البحر الداخل بأكمله، وخانية القبيلة الذهبية وبلاد ما وراء النهر وخراسان والهند وجزر المالديف وسيلان وسومطرة والصين، وساحل إفريقيا الشرقية! إذن... بحارتكم...

أثار دون بيدرو الانتباه قائلاً بسخرية:

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: الأرض المجهولة.



أمر عجيب.

فيم العجب إذن؟

ها إنك عربي على حين غرة. وأنا من ظنّ أنك بربري!

مغيِّرا لهجته بغتة، هتف:

- ينبغي أن نجد وسيلة. يجب أن أوصل إليها رسالتي بأي ثمن.

بكل تأكيد، لا شيء في وسعه أن يقنعك بالصواب.

توقف الأمير فجأة.

- لقد خطرت ببالي فكرة!

سحب طيًا مختوماً من جيب صُدْرَته وأهوى بيده إلى صالا.

- خُذْ!

إبتعد البربري في حركة إلى الخلف، استبد به الفزع وكأنما مُدّت له جمرة حامية.

- خذ، ألحّ بيدرو. سوف توصله إليها في الحال.

- في الحال؟ أين؟ كيف؟

- بالطريقة الأسهل. يكفيك أن تدُسّ الرسالة من تحت الباب. أعرف أين توجد حجرتها.

قال العبد بصوت خفيض: «*هويت فتاة نيلها الخلد فالتمس، سبيلا إلى ما لست بواجد*».

- ماذا تغمغم عندك؟

- لا شيء. هي أسطر من قصيدة لا عمر لها. تتحدث عن عشق لا يُصدّقه عقل، بين فتى، اسمه قيس، وفتاة اسمها ليلى.

رفع بيدرو الطيّ من جديد:

- إذن؟

أمام غياب رد الفعل، إزدادت نبرة الصوت حدّة.



- أنا أحبك مثلما يحب المرء أباه. لكن لا تنسَ: طاعتي واجبة عليك أيضاً.

انحنى الآخر.

- حسنا. سوف يتم الأمر وفق ما تشاء. لكن تذكر: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم». ذلك وارد في الكتاب...

٥

سيدتي الجليلة، رفقا، رفقا بقلبي وبنفسي. منذ أيام لم يعودا ملكي، لقد رحلا نحوك، ومن ذلك الحين بات مصيرهما بين يديك.

هل أردتُ ذلك؟ إن كانت الإرادة هي السعي لجعل المحال ممكنا، إذن بلا ريب، لقد أردتُ ذلك. إن كانت الإرادة هي الحلم بملامسة الجمال وارتقاء الدرجات المؤدية إلى الجنة، أجل، أردتُ ذلك.

هل تعرفين الصحراء، دونا إيناس؟ ذلك الامتداد اللانهائي حيث لا يقع شيء، لولا الريح التي، بين الفينة والأخرى، التي تهب لتنمنم جبين الكثبان. تلك هي حياتي، تلك كانت حياتي قبل أن تقع عيني على عينك، هذا الصباح المبارك في الكاتدرائية. والأمر موكول لك وحدك حتى تخضوضر هذه الصحراء وتنمو من بين هذه الرمال القاحلة الأزهار الغنّاء، الأشدّ سموّا. إني أحبك. دونا إيناس.

بل إني أحببتك حتى قبل أن أعلم بوجودك. أحبك مثلما يحب المرء السعادة والأمل والنهار الطالع واللهفة التي تغمر من يترقب في الأفق عودة المحبوب. أحبك كما يحب الشعب مَلكه، مثلما تحب قرقعة السلاحِ السِّلمَ. في وسعك اعتبار اندفاعي أنه حقير، وإدانة الخطوة التي تجرني نحوك، وتوبيخ موقف رجل أوثقه رباط الزواج منذ حين إلى مصير آخر وعقله يتّقد سلفاً لصورة لمحها بالكاد. جيرِ.



أدبيني، ويّخيني، حقّريني، لكن رجاءً، كفي عن تجاهلي. سيكون استياؤك مواساة لي، إذ سوف أحدث نفسي: «إنها تفكرّ فيّ».

لا ريب أنك تجهلين ذلك، إلا أننا مرتبطان سلفا بأواصر الدم. أبوك من نسب الملك سانشو؛ أمي، الملكة، هي كريمة ذلك الملك. مهما كان موقف قلبك عند قراءة هذه الكلمات، فهذه الأواصر ستدوم إلى الأبد. وبهذا أيضاً سأكتفي. أنتظرك غداً، ما إن يطلع الفجر، على بعد خمسة فراسخ من هنا، عند التمثال المنذور للإلهة ديانا، في أطلال معبد إيفورا الروماني. سوف يكون عبدي مصالا رهن إشارتك ليرافقك في موكب إلى هناك. أقبلي متى شئتِ. أنا سوف أكون هناك مع الطلائع الأولى. سأنتظرك حتى مغيب الشمس. وسوف أعود سائر الأيام، طالما منحني الرب القوة.

دون بيدرو.

جالسة جنب الموقد، أعادت إيناس قراءة الرسالة، مرة ثانية وثالثة. وسندتها إلى خدها. هكذا، جعل المحال ممكناً. ما أحسّته يوم الزفاف، أحس به هو كذلك. تلك العاطفة التي من شدة قوتها صارت مؤلمة، تقاسمها معها. عجباً، بل إنها تدخل عليها السكينة، فإن معرفة أن التقاسم موجود جعلت الشعور أشد قوة، وأشد مثاراً للحيرة. بغتة، خيل إليها أن حجرتها صارت هاوية وأنها تقف عند أقصى حافتها. هل ستقع؟ أكان ذلك هو الثمن الذي تدفعه لعيش ما لا يجب على امرأة شريفة السماح لنفسها بعيشه؟

طفرت دموع رغما عنها وسالت على الكلمات. أكانت تبكي فرحاً أم فزعاً؟ حينما أدركت أن الحِبر في مسارب دقيقة يمزج الجمل الحبيبة، أزاحت الرسالة بهِمَّة ثم وضعتها على طاولة صغيرة، قريبة من الموقد.

والآن؟ الآن وقد صارت تعلم؟ ما العمل؟



كونستانزا. كونستانزا. لم يسبق أبد لهذا الاسم أن شغل كل ذلك الحيز من عقلها. وفي الحين تقريباً التصقت به كلمة «خيانة» وكلمة أخرى أشد رعباً: «خطيئة». أي واحدة منهما ستكون أثقل حملاً إن هي وقعت غداً في المحذور؟ أطبق وجه أبيها على ألسنة لهب الموقد وشعرت بأنها ترتجف. ماذا سوف يظنه حسن السمعة فرنانديز دو كاسترو، إن علم أن كريمته تراودها الرغبة في خرق واحد من أشد المبادئ الأولية التي أمضى حياتها في تلقينه لها: معنى الشرف؟

ما العمل؟ يا إلهي، ما العمل؟ لم تكن تعرف شيئاً عن دون بدرو، أو فقط القليل مما تفضلت عليها به سيدتها. وخلافا لذلك، لقد سمعت مراراً بهؤلاء الرجال الذين يتهافتون على امرأة مثلما يهجم قناصة على طريدة، لمتعة الأسر فحسب. آه! لو كانت أمها هنا فقط، ربما وجدت إيناس الشجاعة كي تبوح لها بما يستعصي على البوح. لم تفلح دونا كاتارينا دوما في العثور على الإجابات الصحيحة للأسئلة الأشدّ التواءً؟ لكان في وسع إيناس أن تهرع إلى حضنها وتفرغ ما في قلبها. للأسف، كانت أمها قد رحلت عشرة أعوام من ذي قبل، حيث أودى بها مرض مباغت ولا يرحم. كبرت إيناس وسط عالم الرجال، يتكون من أبيها ومن أخويها اللذان يكبرانها سنا.

استرجعت الرسالة. *أدينيني. وبخيني. حقريني، لكن رجاء، كفي عن تجاهلي.*

هل كانت تلك لغة قناص؟ ما السبيل لمعرفة ذلك؟ لم تكن لديها أي تجربة في هذا المجال. كان يستحيل عليها فرز الصدق من الكذب. أمر واحد كان مؤكداً: لم تكن تلك لهجة رجل شاب في العشرين من عمره. كان هناك ما يتجاوز القدر من النضج في العبارات، ما يتجاوز القدر من العمق. هل كان بيدرو نفسا مُسنَّة؟



خيانة، خيانة..

من جديد هذه الكلمة التي تطرق الباب. إنها مجنونة. كلا! مَنْ تنتمي لآل كاسترو لا تستطيع الاستسلام لغراميات مذنبة.

وضعت الرسالة ثانية على الطاولة. لن تذهب إلى إيفورا.

ما إن اتخذت قرارها، اخترق ألم لا يوصف بطنها وأجبرها على أن تنكمش على نفسها.

قصر مونتيمور، قاعة الخرائط البحرية البرتغالية، اليوم ذاته.

لا ريب أن القاعة المسماة بقاعة الخرائط هي المكان الأكثر سرية في المملكة. ليس حجم المؤلفات التي تضمها هو ما يجعلها شديدة القيمة بل عشرات الخرائط البحرية البرتغالية والخرائط الجغرافية المصففة بعناية في صناديق من خشب الزيتون، يحرسها ليل نهار رجلان مسلحان. بعض هذه الخرائط تم رسمه منذ ما يقارب ألفي عام، وتوجد هناك أيضاً الخريطة المنسوبة إلى عالم رياضيات المدرسة الإغريقية بالإسكندرية، واسمه بطليموس. كانت تمثل جغرافيا البحار، وعلى الأخص البحر الأبيض المتوسط وهي جزء من مؤلَّف المَجِسْطِيّ، وفيه كتاب كامل للحساب المثلثي المستوي والفضائي، ووصف الآلات اللازمة لمرصاد كبير، ودراسة النجوم وكذلك تعريف لحركة الكواكب.

هناك خريطة أخرى، قديمة بما يزيد عن ألف عام، من إنجاز رحالة كبير وجغرافي عربي اسمه الإدريسي. كانت تمتد من أوربا الغربية إلى الهند والصين، ومن البلدان الاسكندينافية إلى الصحراء.

خرائط غيرها كانت ثمرة جهد العديد من أُسر متوارثة لرسم الخرائط، تعود أصولها إلى جنوة، البندقية، فلورنسا، صقلية، أو ميورقة وبرشلونة. أما عن الخرائط البحرية البرتغالية التي لا تُحصى،



وإن كانت منحصرة في وصف السواحل، فقد كانت ضرورية للملاحة بالقدر نفسه. فيها معلومات عن مكان العلامات المرشِدة، وعن الأرصفة الرملية، والموانئ والمسالك الخطرة التي قد يصادفها ملاح عند الاقتراب من الشواطئ.

جلس الملك الفونسو إلى المائدة المصنوعة من خشب السنديان المصمت التي كانت تحتل وسط الحجرة ودعى ضيوفه للجلوس بالمثل.

كانوا خمسة: ألفاريز بيريرا، قس دومينيكامي، بيرو كويلهو، الذي يشغل الوظيفة السامية، وظيفة كاتب العدل، أو الكاتب الخاص، الذي تتجلى مهمته في مؤازرة العاهل في القضايا السرّية. إلى يمينه، هناك ديوغو لوبيز باشيكو، مراقب المالية. إلى شماله، ألفارو كونسالفيس، رئيس كُتّاب العدل، المكلف بإدارة وإنفاذ العدل في جميع أنحاء البلاد. وأخيراً، كان يحضر أيضاً، الأكبر سنّاً بين الجميع، بلثزار دو مونطالطو، وجه موسوم، يحفه شعر طويل أبيض يمنحه مظهر ساحر؛ والحقيقة بأنه أطلق عليه ذلك اللقب: «الساحر». كان يشتهر بكونه الشخصية الأكثر تبحّراً في العلم في البرتغال، وربما حتى في شبه الجزيرة. عالم فلك، رسام خرائط، عالم رياضيات، طبيب هاوي، لا تخفى عليه أسرار اللاتينية ولا الاغريقية ولا العبرية ولا العربية. البعض يؤكد أن أصله من بورطو، والبعض الآخر يقول من طليطلة. هناك من يشك في أنه مرّاني، واحد من أولئك اليهود الذين أجبرتهم محاكم التفتيش على اعتناق المسيحية، وأن اسمه الحقيقي هو إيليا بن يوسف. وآخرون يظنون خلافاً لذلك أنه ينحدر من أسرة مسلمة، بني يوسف. أين تكمن الحقيقة؟ بفضل بشرته شديدة السمرة وعينيه السوداوين مثل الفحيم، في وسعه أن ينتسب بالقدر نفسه إلى هذه الطائفة أو تلك، مثلما في وسعه بكل بساطة أن يكون ابنا نصرانياً من البرتغال.



ما كادوا يتخذون مجالسهم حتى خاطب العاهل ألفارو كونسالفيس.

- هيّا؟ حدثني إذن عن قضية القس يوحنّا الغريبة تلك. حسب ما فهمت، منذ مدة طويلة وأنت تحقق في هذا الموضوع، دون أن ترى فائدة في إخباري عنه. أنا أسمعك.

حلَّ كونسالفيس عقدة الشريط الذي يحيط صُحفاً جلدية كثيرة وأخذ وقته لصفّ هذه الأخيرة بعناية أمامه. ثم، وبالعناية ذاتها، وضع المحبرة إلى شماله والقلم إلى يمينه. كانت حركاته حركات رجل يقوده الحرص الشديد على النظام والدقة؛ رجل لا يفسح المجال لأي ارتجال. رأسه الذي للعُقاب، أنفه الأحجن، عيناه بلون أزرق جليدي تعبّر حقاً عن مزاجه ذاك: يخال المرء أنه وجه نحت من حجر، من قطعة واحدة. أجال بصره في القاعة للتأكد من أن الحارسين لا يستطيعان سماعه ثم بدأ قائلا:

- مثلما بيّنتُ ذلك لجلالتكم، ترقى القضية إلى ما يقل عن قرنين. عام ١١٤٥ بالضبط. في تلك الفترة، حل بروما شخص يدعى هوغس، مطران غابولا، قرب أنطاكية. ربط الاتصال برجل دين آخر اسمه أوطو فون فريزنغن. أخبر المطران فريزنغن بأنّ هناك ملك نصراني يسمي نفسه «القس يوحنا». وبأن هذا الملك يتزعم مملكة شاسعة يقال إنها موجودة في آسيا، فيها من الثروات ما لا يدركه عقل. علاوة على ذلك، أشار المطران، بأن هذا القس يوحنا ليس إلا سليل واحد من الملوك المجوس. ذهب فريزنغن عند البابا - وهو في هذا السياق لوسيوس الثاني - وأخبره بالقضية. ما الذي وقع بعد ذلك؟ لا علم لنا. هل سعى البابا إلى ربط الاتصال بذلك «القس يوحنا»؟ أم لم يصدق الحكاية؟ ظل ذلك لُغزاً قائماً. لكن يبقى أنه بعد اثنين وثلاثين عاماً من ذلك، يوم ٢٣



يوليو ١١٧٧، برزت القضية من جديد على هيئة رسالة تم بعثها إلى البابا الكسندر الثالث. ولم يكن صاحبها سوى ذائع الصيت القس يوحنا. وعلى طول الرسالة يذكر بوضوح اسم البلاد التي يحكمها: بلاد التتار.

- اثنين وثلاثين عاماً بعد ذلك؟ تعجب ألفونسو. لعل هذا القس يوحنا لم يعد في فتاء سنه.

- ذلك راجح، جلالتكم. لكن هناك تفصيل ينبغي أخذه في الحسبان. لم يكن ألكسندر الثالث هو المتلقي الوحيد للرسالة. حيث تم بعثها في الوقت نفسه إلى ملك فرنسا، لويس السابع، وإلى مانويل كومنين، الامبراطور على عرش بيزنطة. في الأيام التي أعقبت ذلك، قرر قداسته إرسال طبيبه الخاص، المدعو المعلم فليب، إلى بلاد التتار، مصحوباً بحامية وبكتاب إلى القس يوحنا. للأسف، لم يعرف أبداً ما الذي حصل له. انقضت أربعة وأربعون عاما. في ١٢٢١، ها هو البابا هونوريوس الثالث، ودوق النمسا ليوبولد، وملك انجلترا وجامعة باريس يتوصلون برسالة من توقيع مطران القديس - يوحنا في عَكَّا، جاك دو فيتري. يشير فيها دو فيتري إلى أنّ من بين ولد القس يوحنا، حفيده داوود، على استعداد للاصطفاف إلى جانب الصليبيين من أجل تحرير الأرض المقدسة من أيدي المسلمين واستعادة كنيسة القيامة.

توقف رئيس كتاب العدل لحظة للإشارة إلى الصحف الجلدية المتراصفة أمامه.

- لم نعثر على رسالة المطران دو فيتري، لكن خلافاً لذلك، أفلحنا في وضع اليد على الرسالة التي حررها القس يوحنا عام ١١٧٧. أو هي نسخة على الأقل. بعد إذنكم، سوف أقرأ عليكم مقتطفات منها. وها ما كتبه المؤلف في الصحيفة الأولى:



«نحن يوحنا، القس، بنعمة من الرب، الملك القاهر المهيمن على كل الملوك النصرانيين، نبعث بسلامنا إلى مانويل، امبراطور بيزنطة، وإلى ملك فرنسا، صديقينا. نريد أن نحدثكما هنا عن دولتنا وعن حكمنا. اعلما أننا نؤمن ونعبد الأب، والابن والروح القدس، الذين هم ثلاثة في معبود وإله واحد حق. نعرض عليكما دعمنا، ومهما كان من أمر يسعنا فعله لمد العون لكما، التمسا ذلك منا، إذ سنعمل ذلك بقلب مسرور. كما أنه إذا أردتما القدوم إلى أرضنا، لسوف نمنحكم السيادة والمقام. اعلما أيضاً أننا تعهدنا وأقسمنا بأغلظ أيماننا أن نستعيد كنيسة قيامة ربنا وكل الأرض المقدسة المحتلة في هذه الأيام من طرف المسلمين.

لدينا اسمى تاج عرفته الدنيا بأسرها، ولدينا الكثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة. في بلادنا، يبايعنا اثنان وأربعون ملكا. ونتصدق على كل الفقراء الذين يعيشون على أراضينا، بل حتى على الغرباء لمحبة وشرف يسوع المسيح ربنا».

ثم أوضح ما تلا ذلك بكثير:

«تنقسم أرضنا إلى أربع بلدان من الهند وتمتد ما وراء ذلك. في الهند الكبرى يرقد جثمان الحواري تُوما الذي قام لأجله ربنا يسوع المسيح بمعجزات تفوق في ذلك أي قديس آخر موجود في الفردوس. الهند الشرقية قريبة من بابل المقفرة، غير بعيد عن برج يسمى بابل. في هذه الناحية توجد بوفرة الخبز والخمر وكل الأغراض الصالحة لتغذية جسم الانسان. في أرضنا..».

- لحظة، قاطعه العاهل.

خاطب القس الدومنيكاني.

- ما رأيك في تلك الفقرة التي تتحدث عن الحواري توما.

ضم الأب ألفاريز يديه للجواب:



- يعرف هذا المريد خاصة بالشك الذي أبان عنه حينما تجلّى المسيح المنبعث من القبر للحواريين. مستغرباً لمثل هذه الأعجوبة، قال تلك العبارة التي ظلت راسخة في الأذهان: «إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع اصبعي في جيبه لن أؤمن». كان لقبه هو «دِيدِيمْ»، التي تعني في الإغريقية توأم أو صنو. مثلما أن اسمه، دائماً بالإغريقية، توما أو تُومي يقصد بها «فصل» أو «تقسيم».

- تومي، لأنه انفصل عن الآخرين في الإيمان بالبعث. ديديم، إذ يُزعم أنه توأم ربنا، أو ـ وهذا أكثر ما يقبله العقل ـ لأنه عاش هذا البعث بطريقتين. لقد كانت رؤية الحواريين للمسيح كافية، أمّا توما، فإنه أبصره ولمسه.

- لكن هل ممكن أن تُومَا مات في بلاد الهند؟

- تماما. إن جلالتكم تعلم جيداً أنه بعد عيد العنصرة تمنح هبة الألسن للمريدين. ومنذ ذلك الحين، اقتسموا الأرض بينهم بغية نقل تعاليم المسيح إلى الشعوب الأشد تنوّعاً. وقد أوكلت بلاد الهند للرسول توما من طرف ربنا بنفسه، الذي تجلى له بينما كان موجودا في القيصرية. ولأنه يمتاز بموهبة البناء، رحل وأقام بعض الوقت عند تاجر يهودي اسمه حَبَّان الذي كان يقطن على ساحل مَلابَار. ما إن بلغ عين المكان، حتى خصص وقته للوعظ، وأشرف على بناء سبع كنائس وانخرط في خدمة ملك الهند إذ شيَّد له قصراً بديعاً. ولردّ الجميل أغدق عليه الملك من الخيرات؛ خيرات عجَّل توما بتوزيعها على الفقراء الذين لا يحصيهم عدّ المقيمون في الناحية. وبعد أكثر من عشرين سنة من التبشير، مات شهيداً، إذ خرق جسمه رمح رماه به أمير حسود.

- ونتيجة لذلك، فالرسالة صادقة. لكن هناك رغم كل ذلك أمر



غريب. إن أسعفتني الذاكرة جيداً، في البداية الأولى لهذه الحكاية، هناك ذكر لبلاد التتار. وفي هذه الرسالة، نسمع عن الهند. إذن ما الأمر؟ بلاد الهند أم بلاد التتار؟

كان الساحر بلثزار دو مونطالطو هو من تصدى للجواب:

- مولاي، لهذه المناطق نقطة مشتركة: هما الاثنتان تقعان في آسيا. في نظري، لقد أخطأ مطران سوريا. إن الأمر يتعلق حقا بالهند. والرسالة لا تترك مجالاً لأي شك في الموضوع.

- صديقي (كان بلثزار هو الوحيد ضمن كل الشخصيات الحاضرة من يخاطبه الملك بهذه الكلمة المألوفة)، سوف تشرح لي بعد حين ما يجعلك موقناً من ذلك بكل هذا القدر. في انتظار ذلك، لنواصل.

«اثنان وسبعون منطقة تخدمنا، استأنف كونسالفو، البعض منها فقط يدين بالمسيحية. لكل منطقة ملكها، لكنها جُلّها تابعة لنا. أرضنا موئل الفيلة والأسود، والحمير البيض والحُمُر الموحشة، والنمور والثيران، والعنقاوات، والطيور ذات الألوان النارية والأجنحة القاطعة المسماة إِيلْفِرلانْ. هناك أيضاً أنواع أخرى من الطيور اسمها نمور وهي من القوة العظيمة بحيث تستطيع حمل رجل مسلح بكل عتاده وقتله. بعض رعايانا يتغذى على لحم البشر. وهم لا يهابون الموت. ويعتبرون مضغ اللحم البشري واجباً مبدئياً. أسماؤهم هي الآتية: ياجوج، ماجوج، إِنيي، فوميبري، بيفاري، كونيامانت، لغريماندري، فتيفولي، كاسبي والآني. نحن نتحكم فيهم حسب هوانا ضد أعدائنا، ولا يستحسنون لا الانسان ولا الحيوان. ومن بين الأنهار الوثنية، هناك نهر الهندوس. إنه ينشر ذراعيه جداول متعددة عبر الاقليم كله. هنا توجد أحجار الزمرد، والسفير والياقوت الأصفر، والزبرجد الزيتوني، والمرمر والزمرد المصري الأخضر وأحجار كريمة غيرها.

لي مملكتي تلؤى أيضاً أربعة أنهار نابعة من جنة الأرض. أحدها يسمى فيشون. من شلة ما هو صغير فإن طوله يبلغ مسير عشرة أيام وعرضه، مسير سبعة. النهر الثاني يسمى جيحون. من شلة ما هو واسع لا يمكن عبوره، ما عدا باستعمال مراكب كبيرة. نهر ثالث، اسمه حداقل، يجري بيننا وبين المسلمين. إنه يزخر بالأحجار الكريمة. زمرد، سفير، يَشب، عقيق أحمر، وأخريات لن أذكرها لكننا نعرف اسمها وخصائصها».

كفّ كونسالفيس عن القراءة ودفع الصحيفة أمامه.

- كما ترى، جلالتكم. الرسالة طويلة جداً. لم أبسط لك منها إلا المقاطع الأكثر إثارة للحيرة.

هذه الرسالة نسخة فعلا؟

نسخة، جلالتكم، أكد لويز باشيكو. مترجمة من اللاتينية. لا نعلم أين توجد الرسالة الأصلية.

- لا ريب أنها في السجلات السرية بقصر لاطران، اقترح الساحر.
- وأعتقد أن هذه النسخة جديرة بالثقة؟
- تماما، أكد باشيكو. لقد نقلها إلينا واحد من عملائنا في فرنسا. أعرف الرجل جيدا. إنه موثوق به.

رفع الملك ذقنه إلى الأمام.

- ينبغي الإقرار رغم كل شيء أن بعض المقاطع هي على الأقل شديدة الغرابة! هل يمكن فعلا تصور مملكة فيها تعيش عنقاوات وطيور ذات أجنحة قاطعة؟ مملكة تعبرها أنهار آتية من جنة الأرض؟ فيها يتغذى البشر من لحم بني جلدته؟

قال بلثزار دو مونطالطو:

- أنتم على حق، جلالتكم، لكن ليس من المحال أن وراء هذه الألفاظ تختفي أسماء مألوفة أكثر. للإشارة إلى حيوانات هي على



الجملة شائعة، فإن المؤلف يستعمل عبارات متداولة في الهند. هناك، ربما العنقاء ليست سوى طائر جارح ضخم جداً. فينيق. كاسر. وهكذا دواليك. بعد كل شيء، لدينا مثال قريب منا يؤكد هذه الفرضية.

توقف الساحر كي يسأل:

- هل تناهى إلى مسامعكم شخص يدعى إيزيدور الإشبيلي؟

أجاب الملك بالنفي:

- لقد عاش في الأندلس. كان ذلك منذ حولي سبعة مائة عام. في الموسوعة التي كتبها في هذا العصر المسماة *أصول الكلمات*، نجد خريطة للعالم لا تفوق راحة اليد. يبدو فيها العالم المسكون على هيئة قرص. حسب إيزيدور، لقد تم اقتسامه في الأصل بين أبناء نوح الثلاثة.

- سام، حام، ويافِث، أشار الدومنيكاني.

ثم أسرع إلى القول في حذلقة:

- لقد كان إيزيدور الإشبيلي رجلاً صالحاً.

- بالتأكيد، أبتي، وافقه بلثزار بإذعان متكلف.

ثم استرسل:

- يزعم أن آسيا، التي تتألف من سبع وعشرين قومية، هي من نسل سام. وأن أفريقيا، من حام، تضم ثلاثين عرقاً وثلاث مائة وستين مدينة. أما أوروبا، فلعلها عمرت بالقبائل الخمسة عشر من أبناء يافث وتضم مائة وعشرون مدينة.

توقف الساحر لحظة قبل أن يستأنف:

- هذا الوصف، الذي تعرف من الآن فصاعداً بأنه سخيف وغير صحيح، يحتوي مع ذلك على عمق من الحقيقة. إن أفريقيا وآسيا وأوروبا توجد حقا. إن تفسير أصلها هو الفاقد للمعنى شأن الخريطة التي تمثل أرضاً مسطحة لها شكل قرص. إننا...



ـ قاطعه الأب ألفاريز محتدماً.

ـ سنيور بلثزار، تعنُّتُكَ يصل حد التجديف! هل علي تذكيرك أن الخرائط هي هداية إلى الإيمان؟ حينما يصف القديس إيزيدور جنة الأرض، فهو يبيّن عن دقة جلية. إنه يحدد موقعها شرق العالم الشرقي، يحيط بها جدار من نار تعلو حتى السماء، مانعا بذلك الانسان من الدخول إليها. وهل تستطيع نفي أن أورشليم تقع في مركز العالم؟ ألم يُسطر في الكتاب: «هكذا قال السيد الرب، السرمدي، هذه أورشليم في وسط الشعوب قد أقمتها وحواليها الأراضي»؟ من ذا الذي أصيب بالخبل للزعم أنه قد يوجد بشر أقدامهم عند رؤوسهم؟ أو أماكن حيث تكون الأشياء معلقة من أسفل إلى أعلى، وحيث تنمو الأشجار بالمقلوب، أو يهطل المطر صعودا؟

لاذ بلثزار بالصمت. ما عسى يجيب هذا الجاهل؟ منذ زمن غير يسير سلفاً وبتأثير من رجال الكهنوت صارت الجغرافيا خلطة عجيبة. الأرض مسطحة؟ بينما منذ أكثر من ألفي عام توصل قدماء الإغريق إلى رؤية مخالفة؟ تكفي قراءة أفلاطون للاقتناع بذلك. والأقدم بالمثل، العظيم بطليموس، الحجة المطلقة على أقرانه، ألم يَخلُص ـ منذ ما يقرب من ألف وخمسمائة عام ـ إلى الكروية الأرضية؟ منذ سنوات معدودة، يعمل الإيمان والعقيدة على حجب كل ما تكفل جغرافيو العصر القديم بصياغته بعد مشقة وبكل دقة. يا له من تقهقر محزن إلى الظلام.

كانت تلك هي اللحظة التي اختارها الملك ألفونسو كي يهب لنجدة «صديقه».

ـ أبتي، لو تفضلت، فلنرجئ هذا النقاش إلى يوم آخر ولنرجع إلى مضمون الوثيقة. إذا لم يكن في الأمر أي بتبجح، فإن الوصول



إلى تلك الأرض سوف يكون فرصة رائعة بالنسبة للبرتغال. تخيلوا حلفا بين مملكتينا! ستكون تلك نهاية العرب، وبمعية جيوش هذا الملك يوحنّا، أو على الأرجح خلفِه، نكون أخيراً قادرين على تحرير - مثلما يبدو أنه يأمل ذلك - كنيسة القيامة واسترجاع الأرض المقدسة. دون حساب الفوائد التجارية التي سنجنيها من هذا الحلف. إن صدّقنا الشهادات بخصوص الثروات التي تحوزها هذه المملكة، فإنها لا تحصى. وسيعرف البرتغال ازدهاراً لا مثيل له. لكن... أين؟ كيف نتصل بهذا الجزء من العالم؟ لا أحد إلى يومنا هذا أفلح في ذلك. إذن؟ كيف؟

ومثل رجل واحد، صوَّب الجميع نظره نحو بلثزار دو مونطالطو. الظاهر أنه كان مفترض فيه معرفة الجواب.

أمسك الساحر كتاباً احتفظ به جانبه ثم وضعه على مرآى من الجميع.

- قبل كل شيء، مولاي، أود أن أبيِّن لكم على وجه الضبط بعض العناصر الأساسية. لقد قلتم قبل حين، في كلامكم عن الهند، أن لا أحد إلى يومنا هذا أفلح في الوصول إليها. اسمحوا لي أن أذكركم برحلة الحواري توما. مع أنه لم يكن الأول ولا الأخير. من المشهود به أن الهند كانت معروفة لدى العبرانيين قبل ميلاد المسيح بأمد طويل. بعد أن قام نبوخذ نصر بغزو أورشليم، هاجرت مستعمرة يهودية أولى إلى الهند، أقامت وتكاثرت هناك. وفي وقت لاحق بعد ذلك بكثير، حينما دُمِّرت مدينة أورشليم على يد القائد الروماني تيتوس، رحل عدد كبير من اليهود بدورهم نحو بلاد بعثة الحواري توما. من جهة أخرى، يُظهر لنا الإنجيل أيضاً أنه في عهد سليمان كانت تجارة التوابل موجودة سلفا بين سوريا وتلك المنطقة من العالم. يكفي تصفح كتاب الملوك،



للتأكد من ذلك. الاصحاح ٩، الآيات من ٢٦ إلى ٢٨، إذ قيل: «وعمل الملك سليمان سفنا في عصيون جابر التي بجانب أيلة على شاطئ بحر سُوف في أرض أدوم، فأرسل حيرام في سفن عبيده النواتي العارفين بالبحر مع عبيد سليمان، فأتوا إلى أوفير، وأخذوا هناك ذهبا أربع مائة وزنة وعشرين وزنة، وأتوا بها إلى الملك سليمان». بيد أن أوفير هذه ليست إلا تحريفا لكلمة سوفير، التي تعني «هند» في اللغة القبطية القديمة. في الأصحاح العاشر، الآية ١١، نقرأ كذلك: «وكذا سفن حيرام التي حملت ذهبا من اوفير، أتت من أوفير بخشب المُوجِيمْ كثيراً جداً وبحجارة كريمة». بيد أن خشب الموجيم هذا ليس سوى الصندل. خشب يستعمل بكثرة في صناعة تطعيم الخشب بالعاج والصدف لتزيين سقوف أغلب القصور الموجودة في بلاد الهند.

رفع الملك حاجبيه.

- صديقي بلثزار، حسب علمي، لم يسبق لك أبداً الذهاب إلى هناك. كيف تستطيع أن تكون موقنا من ذلك بكل هذا القدر؟
- لأن جميع سجلات الرحالة الذين زاروا المنطقة تذكر هذه الواقعة. من أشهر تلك القصص ما كتبه المليوني، ولدي نسخة منه أمام ناظري.
- المليوني؟
- أجل، مولاي. المشهور أكثر باسم ماركو بولو. عند عودته إلى البندقية، وبعد أن استقبله أهلها بتشاؤم، أطلق عليه هؤلاء من باب السخرية لقب صاحب الملايين .وعنوان كتابه هو كتاب *عجائب الدنيا*.

استنشق بلثزار نفسا جديداً وأشار إلى إحدى الخرائط التي كانت معلقة إلى حائط القاعة:



- شاهدوا هذه الخريطة. لقد رسمها رحالة بربري اسمه ابن بطوطة. بعد انطلاقه من طنجة قاصدا الحج في مكة، قام الرجل ـ الذي لم يكن يبلغ سوى واحد وعشرين عاماً ـ بمواصلة رحلته نحو سوريا، ثم أصفهان وشيراز، تبريز والموصل. ثم أقبل منذ حوالي عشرة أعوام على المضي نحو الساحل الشرقي لأفريقيا، وسار على امتداد الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، وصعد نحو خراسان قبل أن ينزل نحو الهند.
- من أين لك كل هذه المعلومات؟
- بكل بساطة من أحد خدام نجلكم. اسمه مصالا. بربري بدوره، لقد عرف ابن بطوطة حينما عاد هذا الأخير من أحد أسفاره. كان لقاؤهما وجيزاً لكن مفيداً.

سكت الرجل الهرم لحظة ودفع نحو الملك كتاب ماركو بولو.

- اقرأوه يا مولاي. في وسعكم التحقق من أن نظرياتي لها ما يسندها.
- أشكرك. لكن كل هذا لا يخبرنا دائماً كيف نصل إلى الهند. أشدد... (توقف ورفع سبابته). عن طريق البحر. إذ إنها هنا، النقطة الحاسمة. عبور أراضي معادية، المجازفة أمام ألف خطر وخطر، مواجهة قطاع الطرق، العسكر غير المنضبطين، تقلبات الأحوال الجوية، تلك عقبات تجعل صعبة، بل ومستحيلة، كل آفاق نحو تجارة منتظمة وآمنة مع هذه المنطقة. ونتيجة لذلك، فإنه ينبغي لنا فتح الطريق عبر البحر. بيد أنه حسب علمي، لا نتوفر على أيّة خريطة، أي مرشد ملاحي برتغالي موثوق فيه بما يكفي. إننا لا نعلم شيئاً عن الوجهة التي يجب اتخاذها، ولا شيء أيضاً عن مدة الرحلة.

- عداكم الصواب في ذلك، مولاي. قال بلثزار متداركا. هناك خريطة.

أفلت الملك صيحة من دهشته.

- خريطة؟
- تماما.
- خريطة تدل على الطريق الواجب اتباعها؟

أكد بلثزار من جديد.

- بأيّ سحر؟ مَن رسام الخرائط الذي وضعها؟

وشح الساحر وجهه بابتسامة متواطئة ثم همسَ:

- العناية الإلهية، جلالتكم. منذ بضعة أشهر، العناية الإلهية برتغالية.

ثم أعلن وكأنه يقدم مفتاح لغز:

- أفينيون...



٦

كانت الأعمدة الصخرية في معبد ديانا تترنح في المغيب، وإيناس لم تكن هناك بعد. كسرت أجراس كاتدرائية إيفورا الصمت. إيناس لن تأتي أبداً. هكذا، اختلق كل شيء. يا له من مجنون بئيس! لقد صدّق المحال.

لست سوى طفل، ولأنك مثل كل الأطفال، كل شيء فيك متطرف.

كلمات مصالا تضطرم في ذاكرته. كيف استطاع بيدرو اقناع نفسه بأن الانقلاب الذي شعر به كان متقاسما؟ صبياني! هذا النوع من المعجزات لا يوجد إلا في القصص والخرافات. كان الملك، أبوه، على صواب هو أيضاً حينما اتّهمه بتخصيص الكثير من الوقت لقراءة أشعار جده. شوق، شوق ...تلك الكآبة العنيدة التي، طول الوقت، تحرس مثل العسس أنفُس هذا البلد. في وسعها الآن أن تغزو فؤاده. *اقبلي*، اندهش دون بيدرو بهمسه لنفسه، *أقبلي، الطريق سالك. خذيني كُلّي، لن أقاومك.* داهميني، *احرقيني.* ولا *يظل سوى الرماد.*

ألقى نظرة منهزمة على تمثال ديانا القناصة المتدرعة بقوسها ونبالها. في الحال عبرت خاطرة ذهنه أنها شأن الإلهة التي توسلت إلى زيوس بأن يمنحها العذرية السرمدية، ربما التمست إيناس الطلب ذاته، لكن من الرّب. إذن، وهذا مؤكد لن تكون إيناس من نصيبه أبداً.



ومع ذلك، في أغوار سريرته كان هناك صوت يهتف له بأن لا يستسلم. ألم يكتب: *سأنتظرك حتى مغيب الشمس. وسوف أعود سائر الأيام، طالما منحني الرب القوة.*

لا يهم الوقت، والساعات والتعب. لا تخر قواه. غداً. سوف يعود غداً.

انتظر إلى أن تكسرت الأشعة الأخيرة خلف الهضاب وامتطى فرسه. لم يتردد. سلك وجهة أسوار إيفورا. سار عدواً على طول حقل شاسع من القمح، اجتاز ضريحاً عملاقاً، واحدة من تلك المنحوتات الصخرية الموجودة بكثرة في السهل، اخترق حاجزاً من بساتين الزيتون ودخل المدينة من باب المُورو. بدت البيوت البيض وقد غفت مسبقاً. بعد أن صعد الزقاق الذي تعلوه أقواس صغيرة المؤدي إلى وسط المدينة، وجد نفسه في فناء واسع مبلط ثم ترجّل عن فرسه. كانت العلامة الدالة على خمارة تحدث صريراً بفعل الريح. المشاعل متقدة سلفاً والرجال يلعبون النرد، جالسون إلى موائد بالخارج. كل العيون تحولت إلى الوافد الجديد. ماذا يفعل هنا هذا الفارس النبيل، بلباسه الفاحش الثراء ذاك؟

حيّاً بيدرو بإيماءة متأدبة. من دهشتمهم، رد عليه الرجال التحية. وكانت خادمة قد هرعت إليه مسبقاً.

- خمر، طلب بيدرو. أفضل خمر عندكم، وأكبر غرّافة..

جلس إلى أول مائدة شاغرة وشدَّ وجهه بين يديه.

آه! تلك الموجة التي اكتسحت نفسه! من أين أتت؟ لماذا شعر بكل ذلك الألم؟ لِكم من الوقت سوف يتعذب؟

إنك تنسى بأنها وصيفة. حتى لو أرادت، فإن وظيفتها تحرم عليها كل خيانة.



الشرف! مهما كان جديراً بالثناء، فإن هذا الشرف كانت له مخالب وأسنان بما أنه يمزق كل شكل من أشكال الرجاء.

- سيدي يرغب في شيء آخر؟

ظهور الخادمة انتزع منه نَفْضة.

- كلا، قال بصوت يكاد يكون خفياً.

وبينما كانت تنصرف، تدارك الأمر.

- إسْقِ الشراب للجميع.

رأت من الحيطة أن تسأله توكيدا:

- هل أنت متأكد، سيدي؟ الشراب للجميع؟

أومأ موافقاً.

في هذه اللحظة صاح أحدهم:

- إنه الأمير! إنه دون بيدرو!

جازف رجل، الأكثر جرأة، بالدنو من المائدة. وبعد حين، حذا آخرون حذوه وتشكلت دائرة حول الأمير. أصوات تتهامس: «أو ذلك ممكن؟ الأمير! هنا؟ في هذا المطعم الحقير؟» كان الناس يحدقون فيه بمزيج من الاحترام والإعجاب. تجاسر أحدهم وهنأه بمناسبة زفافه. وتمنى آخر طول العمر للملك ألفونسو والملكة بياتريس.

صب بيدرو لنفسه شربة ورفع قدحه.

- Felicidade e prosperidade!

- السعادة والرخاء!

ثم سأل:

- أليس هناك من موسيقيين هنا؟

- للأسف، أجابه الخمّار.

- خسارة...

عاجل رجل إلى القول:



- أنا أعزف على الطنبور. إذا رغبت سيادتكم، أستطيع إحضاره. أقيم عند ناصية الدرب.
- أنا أعزف على القيثارة، زاد عليه آخر.
- هيّا إذن! صاح بيدرو.

بسرعة شاع في المدينة خبر وجود الشخصية المرموقة. اندسّت رؤوس من بين دفتي الباب. كان الناس يطلُّون من النوافذ. يتزاحمون بغية لمح الأعجوبة. حول الفناء، وهم متوارون عن الأنظار، أخذ شيوخ يتحدثون بوقار عن ذكرى جد الأمير، «الملك الشاعر»، وعن ذكرى زوجته القديسة العظيمة إيزابيلا.

كان عازف الطنبور قد عاد وكذلك صاحب القيثارة. لم يكونا لوحدهما. التحق بهما عازفون بالمزامير وطبّالون. ثم جاء دور النساء. بعد حين لم تعد النجوم تميز بين الخواص والعوام. بيدرو الذي شرب غرافة خمره حتى الثمالة، غادر المائدة بغتة، ثم أمسك الصرّة المشدودة إلى حزامه. حفن منها ملء كفه قطعاً من الذهب ومشى نحو الأطفال.

- خذوا! هذا لكم!

وهي غير مصدقة، تفتحت أيدي صغيرة لاستقبال العطية.

لما باتت الصرّة خاوية، نادى دون بيدرو على الخمّار:

- الخمر! الخمر للجميع! إذا لم يكن عندكَ منه ما يكفي، فليتم إحضار براميل خمر من كل أنحاء المدينة. اشعلوا النار في الموقد، ولتشوى صغار الخنازير. وأطعموا الجميع!

ثم أضاف:

- ولا تهتم. غداً، في ساعة الصباح الأولى، سوف يعوّضك رجالي عن مصاريفك.

تردد الجمع الصغير لحظة. ما الغاية الدنيئة من وراء كل هذا



الكرم؟ ما لم يكن ابن الملك ألفونسو قد فقد صوابه؟ لكن الذهول لم يدم طويلاً. من خلف الأسوار علت فرحة عارمة. توجه الناس بالشكر للرب وللعذراء والقديس فانسان، حامي المملكة. في غمرة عبارات التبريك والهتافات، اندسّ الأمير في حلقة الراقصين. حركاته الخجلى في البداية، تحررت شيئاً فشيئاً، وامتزجت بإيقاع الطبول المهتز. بتشجيع من الحشد، استسلم كليّاً، واندفع في حركات عربية، ذراعاه مفتوحتان، يدور، يلتف حول نفسه، أو يرسم في الهواء علامات غامضة نحو النجوم.

رقص على هذا النحو طويلاً، حد انقطاع الأنفاس، بشراسة، مستسلماً لدوامة الأردية الشفافة وقهقهات الأطفال الموحشة. وحينما أخذ الدوار يداهمه وشعر بأن ساقاه تخونانه، عندها فقط عاد إلى مائدته. كلا، لم يكن قد سكر. ليس بعد. بل كان حزيناً فقط.

لقد أصابتك الكآبة، مولاي. إذا كانت بقدر، فهي طيبة للقلب، لكنها، عندك، حارقة.

رفع الأمير الشاب وجهه الغارق في العرق نحو المرأة التي كلمته للتو. تلبس السواد كلها، وكلها تجاعيد.

أشارت إلى الكرسي الفارغ.

هل تأذن لي بالجلوس، مولاي؟ وافق الأمير وهو غير مبال.

ما إن جلست حتى مدت المرأة يدها المغطاة بالشقوق نحو يد بيدرو.

فهم قصدها واستسلم للأمر. المملكة تعج بتلك الساحرات الهرمات اللاتي يزعمن الكشف عن المستقبل.

أكبّت على كف الأمير مثل راهب على مخطوطه، وبتؤدة، جالت سبابتها على طول خطوط كفه.

- الحب، دون بيدرو، الحب هو ما يحرقك. لقد استحوذ على



أراضيك. ستة أعلام حريرية تحكم مملكتك من الآن فصاعداً.

- قطب حاجبيه.
- ستة أعلام حريرية؟
- أجل، أنت سجين دوائر الفضة. إنها تحبسك.
- لم أفهم. ماذا تقصدين؟

لم يبدُ أن المرأة سمعت السؤال.

- خذ حذرك. من ليس له عقل يناسب سنه، سوف يحصد من ذلك كل المآسي. أنت نفسٌ هرمة. نفس هرمة في جسد فتيٍّ جداً.
- إن للمرء العقل الذي يسعه، رد بيدرو بابتسامة مفتعلة.
- النار والنصل، تابعت المرأة. صراع الأسد والشبل.

رد عليها باستهزاء:

- يحدوني...

مثل كل مرة يستحوذ فيها الاضطراب عليه، ظلت الكلمات حبيسة حلقه. أجبر نفسه كي يجيب:

- يحدوني أمل... في أن يكون الشبل هو المنتصر.

لم تكن تنصت إليه.

- احذر الظلال، يا مولاي. أرى منها ثلاثة. سوف تسعى لتخبئك في معطفها المنسوج من الظلمات. إني...

ظلت جملتها غير مكتملة. وكأن الرّعب استبدّ بها.

- كلا. لا ينبغي ذلك. لا تُدنّس أبداً المكان المقدس، أقسِمْ على أن لا تفعل!
- المكان المقدس؟
- وإلا فإن الثلج سوف يصير دماً.

وباندفاع متوحش، إرتمَتْ عند قدمي الأمير.

- أجل، لا ينبغي ذلك، وإلا فإنكما، هي وأنت، سوف توثقان إلى



بعضكما، حتى نهاية العالم!

ثم قالت وهي تفخم الكلمات:

- Até ao fim do mundo![1]. حتى نهاية العالم.

هذه المرة، زاد الأمر عن حده، صاح بيدرو:

- هذه المرأة فاقدة لعقلها! ليتكفل بها أحدٌ ما.

هرع الخمّار. أمسك المرأة العجوز من ذراعها. وبينما كان يجرها بعيداً، واصلتْ تكراراً:

- تذكر، دون بيدرو! لا تقرب المكان المقدس.

المكان المقدس؟ نهاية العالم؟ أعلام حريرية؟ أجل، بالتأكيد، الحمق يُقيم أينما كان.

- ألتمس العذر لها، قالت الخادمة. لقد ثكلت إبنها الوحيد منذ عامين. ومن ذلك الحين، لم تعد تدرك جيداً ما تتفوه به.

- ابنها الوحيد؟ في أي ظروف؟

- لقد مات غرقاً. لا أحد يعرف كيف. لقد عُثر ذات صباح على جثمانه عند ضفة الدورو.

- أمر مؤسف. كم كان يبلغ من العمر؟

- فرنك، يا مولاي. لا يتعدى قطعاً العشرين.

كتم بيدرو رعدة.

- اسقني الشراب من جديد.

الساعات التي ستعقب ذلك، لعله لم يحتفظ إلا بذكريات مبهمة. كان هبوطاً متدرجاً نحو مهاوي مجهولة، يرافقها قرع الطبول. الصورة الوحيدة التي رسخت فيه كانت لصاحبة العرافة وهي تهمس في اذنه:

Até ao fim do mondo...

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: حتى نهاية العالم.





برغش، قصر الفونسو الحادي عشر، الملقب بالمنتقم، ملك قشتالة وليون

وقضيبه مدفون بين ردفي ليونور دو غوزمان، كان ملك قشتالة، وهو ينز عرقاً، يئنّ مثل حطّاب، منتزعاً من عشيقته صرخة ألم مع كل ضربة مفجعة. وكما جرت العادة، بدل أن تؤدي به إلى الاتزان أكثر، فإن معاناة ليونور كانت تزيد من هياجه. إذا لم يُعرف عن العاهل أنه اشتهر بكونه محارب أثناء معركة سالادو، فقد كان في وسع الناس الوثوق بأن من طريقة جماعه وحدها يدين بلقبه «المنتقم». من الغريب مهما يكن، أنه لم يستطع ممارسة ذلك الفعل إلا بالمقلوب.

لما قضى وطره وبلغ لذّته، سقط على جنبه وكأنه حجر.

أما ليونور، المقروحة بالكامل، فقد تهاوت على بطنها ومع أنها مسحوقة، وجدت من القوة كي تهمس:

- يا لها من رَكبة mi amor[1]!

أضاءت بسمة داعرة وجه العاهل.

- الفارس لا يساوي شيئاً، دون مهارة مطيّته.

وقرص بتشنج عجيزة مطيته.

- آه! هذه المؤخرة! هذه المؤخرة! لن أشبع منها أبداً.

لم تجد ليونور مفرّاً من الضحك.

- إن كان هو الطُّعم الذي يسمح لي بالتفوق دائماً على تلك العزيزة دونا ماريا، فأنا سعيدة بذلك.

كشَر المنتقم:

- الويل! ما هذه العادة القبيحة عندك بذكر زوجتي في كل حين!

(١) بالاسبانية في الأصل: يا حبي!



وحده استحضار اسمها يجمد حواسّي. بطنها يابس مثل عود زيتونة وحشمتها لا تضاهيها إلا عجرفتها.

توشحت ليونور دو غوزمان بابتسامة ساخرة:

- ومع ذلك، لا تجرؤ على طردها عند أبيها.

حدق العاهل في عشيقته وكأنها تلفظت للتوّ بحماقة.

- لست جادة في ما تقولين؟ أو نسيتِ مسبقاً أنّ دونا ماريا هي الابنة المحبوبة لِمَن؟

- ابنة ألفونسو الرابع، ملك البرتغال، أعرف.

- وأنه منذ زمن غير بعيد، أجبرني تباكي هذه الوقحة على محاربة أبيها! بسببها، كنا على وشك وقوع قطيعة بين مملكتينا وذلك في الوقت الذي بالكاد ضمدنا الجراح الناجمة عن ثلاثة أعوام من النزاعات المتكررة.

قالت ليونور بنبرة تحدٍ:

- في كل الأحوال، هي عجوز وأنا شابة! سوف تموت قبلي بكثير.

- حيّة أو ميتة، ما أهمية ذلك، بما أنك وحدك من له اعتبار في نظري؟ ثم، أقرّي بأنها تبقى متكتمة جداً. لا يسمعها الناس، أو قليلاً. بالكاد من حين لآخر تبث في همسٍ بعضاً من شكواها.

- ذلك من مكائد النساء، عقبت ليونور. هي تعلم بأنها سوف تخسر كل شيء إن هاجمت وجهاً لوجه. من ناحيتي، أنا مقتنعة بأنها تنتظر أن تحين ساعتها.

لوّحت بسبابتها أسفل منخر عشيقها:

- خذ حذرك، ألفونسو، يوماً ما، سوف تخرج خنجرها وتطعنك به في الظهر.

أطلق الملك ضحكة مدوية عظيمة:

- آه! إني أتعرف هنا على نفحة الغيرة.



نهض فجأة.

- تغادرني؟ فعلا؟

- لا مفر من ذلك. هناك من ينتظرني.

أكبّ على جسد ليونور بلون العنبر، مرّر يداً خفية ما بين الفخذين، ثم همس:

- إلى اللقاء قريباً، يا شمسي...

في قاعة المشورة، فحص المنتقم بالتناوب الرجلين اللذان كانا يواجهانه وسأل أصغرهما بلهجة متبرمة:

- هكذا، خوان، هل أنت متأكد من ذلك؟

أجرى المدعو خوان سبابته بتوتر على طول الندبة التي تعلو حاجب عينه ثم أقر:

- أجل، مولاي. لقد خُدعنا على يد ذلك الفرانسيسكاني الخبيث! إن ملف القس يوحنا فارغ. لم نجد فيه أدنى إشارة تسمح بتحديد موقع وجود الخريطة، ولا بمن يمتلكها.

ارتفع صوت ملك قشتالة درجة.

- رغم ذلك، أنت وأخوك، أكّدتما لي بأن هذا الملف المأثور يضم، وهنا أقتبس كلامكما: «الخريطة البحرية التي تدل على الطريق المؤدية إلى الهند».

توقف وخاطب هذه المرة الشخص الآخر:

- وأنت، فرانسيسكو؟ عندما صرّحتَ: «التوابل، الأحجار الكريمة، الثروات! ذات يوم، من إشبيلية، سوف تنطلق السفن التي ستكتشف عوالم مجهولة، وعلى قشتالة سوف يشع كل المجد». تُرّهات؟

مرت لحظة صمت قصيرة.

- مولاي، قرر فرانسيسكو الرد، إننا لا ننوي التواري، لكن أعلم



أننا لسنا مسؤولين كلّياً عن هذا الفشل. بين اللحظة التي علمنا فيها بوجود الملف واليوم الذي أقنعنا فيه الفرانسيسكاني بأنّ يسلمه لنا، لا بد أن حدثاً غير متوقع قد طرأ.

قطّب الملك جبينه.

حدث غير متوقع؟

او نقُل، تدخّلاً أجنبياً. أظن ذلك، جلالتكم. شخص ما وصل إلى السجلات في لاطران وتصرف بحيث أخذ الأشد أهمية قبل أن يعمد جيوسيبي كاردوتشي...

- جيوسيبي كاردوتشي؟
- ذاك كان اسم الفرانسيسكاني.
- تابع...
- أخي وأنا فحصنا بدقة مجموع المراسلات. نحن مقتنعان بأن بعض الوثائق ناقصة. لقد اختلِست، هذا مؤكد.

صاح المنتقم بشدة:

- إختُلِسَت؟ لكن على يد من؟ وعن هذه النقطة يبدو أنكما متأكدان من الواقعة! لقد صرّحتما أنه إذا كانت نسخ من رسالة القس يوحنا الغامض ذاك متداولة، فإنّ الأمر ليس كذلك بالنسبة لجوهر الملف الذي يظل، حسب رأيكما، بين يدي الكرسي الرسولي.

عاجل فرانسيسكو بالجواب:

- إننا نتمسك بتصريحاتنا. لكن أكرر ذلك، مولاي، لقد تمّ اختلاس وثائق.

خبط الملك الطاولة بقبضته.

- وأنا أعيد سؤالي: مَنْ؟

تبادل الأخوان طرفة عين ضجرة.

- الحقُ أقول، ردّ خوان، ليس لدينا أي تأكيد. قد يتعلق الأمر بأيٍّ



كان. سلف كاردونتشي، أو أفراد من جنوة، من البندقية، عرب، وأيضاً، وهذا ما يبدو لي أشد احتمالاً...

عمت لحظة خفية من التردد:

- جيراننا البرتغاليون.
- البرتغاليون؟ وكيف قد يكون وصل إليهم خبر القضية؟
- مثلما وصل إلينا، جلالتكم. أولاً، بعد العلم بالرسالة، ثم عبر مجموعة من التحقيقات. إنكم تعلمون بأن لديهم عملاء سواء في البندقية وجنوة أو في مكان آخر، وبأنه منذ سنوات معدودة، وبإيعاز من الملك دينيس، انخرطوا في مشروع عظيم لاكتشاف البحار. إن بحارتهم - إذا استثنينا أهل جنوة منهم - من أفضل رجال البحر. وسفنهم الجديدة، الكرافيلات، تسمح لهم بتحقيق منجزات كبيرة.

اكتست تقاسيم المتقم ملامح الحيرة.

- الكرافيلات؟
- أجل، مولاي، قال خوان مفسّراً. لقد سنحت لي الفرصة لرؤية بعض منها أثناء أسفاري. إنها سفن شراعية رفيعة لها خطوط دقيقة، وهي سريعة، وخفيفة على نحو خارق: لا يفوق وزنها مائة طن. صواريها المتعددة تجمع بين الأشرعة المربعة والأشرعة اللاتينية المثلثة. إضافة إلى ذلك، الهيكل العريض والحشية الخشبية العالية يجعلانها أشد أمناً.

ندّت عن العاهل حركة انزعاج.

- إذا فهمتُ جيداً مقصدكما، فنحن خاسرون مسبقاً.

إحتجّ فرانسيسكو:

- لسنا كذلك إذا أفلحنا في وضع اليد على الخريطة.
- هذا إن كنا متأكدين من أنها توجد بين يدي جيراننا. كيف؟ تدركان حقاً أنه إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن السرّ محفوظ جداً.



- ربما هنالك وسيلة، أعلن فرانسيسكو.

استقرّ الملك في أريكته وشبك ذراعيه.

- أنا أنصت إليك.

- في وسعنا محاولة الدخول إلى قاعة الخرائط. إذ هناك يجمع البرتغاليون معارفهم البحرية.

بدرت من المنتقم ضحكة ساخرة.

- لعلك تعرف حقاً أن المكان يتوفر، من دون شك، على حراسة أفضل مما في قصري! حينما تجدان وسيلة للتسلل إليه، لا بد أنني أكون ذلك اليوم قد رحلت عن هذه الحياة. شيء من الجدية!

قرر خوان أخذ زمام الكلام.

- هناك كذلك حلّ آخر.

نعم؟

- لتعذر ولوج القاعة، في وسعنا التسلل داخل الحاشية بفضل شخص ما يكون فوق كل شبهة. شخص ما، في المكان، يكون عيوناً وآذاناً لنا.

- يسهل قول ذلك. أين نعثر على هذه الجوهرة النادرة؟

- إنها موجودة. إنها في الموقع مسبقاً.

أترع المنتقم عينيه واسعاً.

- أجل، أكد خوان. إنها واحدة من الوصيفات اللائي رافقن دونا كونستانزا.

- اسمها؟

- إيناس. إيناس دو كاسترو.

- دو كاسترو؟

تعاظمت دهشة العاهل. وجرى نظره من أخ إلى آخر.

لكن أنتما، ألا تنتسبان إلى أسرة دو كاسترو. هل هي قريبة لكما؟

أضاءت ضحكة وديعة وجه الرجلين، بينما كان خوان يعلن:

- إنها أختنا، جلالتكم.



٧

قصر مونتيمور

- هل أنت أحسن حالاً، بيدرو؟

رفّت عيناه. من أين يأتي هذا الصوت؟

نهض وفي الحين إطمئن بالتعرف على النافذة ذات العوارض، المشرعة على هضاب الألنتيجو، وسجّاد آرايلوس الذي يزين أحد جدران غرفة نومه. بعد ذلك صادف نظرات أمّه؛ وجه لم ينل منه الدنو من الخمسين أو كاد. حينذاك، استسلم للتهالك على الوسائد.

- كيف وصلتُ إلى هنا؟

- مصالا. المخلص لك، مصالا. لقد وجدك داخل علّية، مريضاً، ممدداً على فراش من القش، مثل أي متسول بئيس.

تفحصت الملكة بياتريس بيدرو لحظة قبل أن تسأل بصرامة:

- ما الذي حل بك إذن، يا بني؟

كبح رعدة.

- أشعر بالبرد، أماه.

وضعت يدها على جبين بيدرو.

- إنك تغلي. لكن البارحة كنت أشد من هذا.

أمسكت كوباً منقوشاً موضوع على منضدة وقربته من شفتي الأمير.

- اشرب. لقد ألزمنا الطبيب بذلك. هو بنفسه من حضر هذا المستخلص المغلي.



كشّر عن أسنانه.

- ذاك الدجال... لن يعالج حتى تشقق في اليد.
- هيًا! لا تستهزئ. بلتزار صاحب عقل متقد.
- منذ متى وأنا هنا؟
- منذ يومين. لم تصنع شيئاً غير الهذيان والنوم.

كررت سؤالها.

- ما الذي حل بك؟
- لا شيء. لقد أسرفتُ في الشرب. هذا كل ما في الأمر.
- لا أسألك عما فعلت، وإنما لماذا فعلت. الملك غاضب. أنت محظوظ لأنه ذهب إلى لشبونة البارحة مساء. وإلا فهو من كنت ستجده عند استيقاظك وليس أنا. يبدو أنك أمضيت ثلاث ليال كاملة في مخالطة أناس لا يُنصح برفقتهم. وفي الرقص مع الفتيات. وهذا موقف لا يليق بأمير. أنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟ إذن، لماذا؟
- لم يسبق لي أبداً أن شبهت الشعب بناس لا ينصح برفقتهم.
- لا تغير الموضوع.

طرحت سؤالها من جديد:

- لماذا؟
- لقد أجبتك، أماه.
- هيًا، بيدرو! لا تتلاعب. هل نسيت أنه في وسعك مجاهرتي دون خشية؟ بخلاف أبيك، أظن أني أظهرت دائماً حِلماً كبيراً تجاهك. ربما أفرطت في ذلك.

توجهت حدقتا الرجل الشاب نحو الملكة، بعدما كانتا إلى تلك اللحظة مثبتتان في السقف.

- لو قلت لكِ أني أشعر بالألم وأني عاجز عن تفسير سبب هذا الألم، هل تصدقيني؟



تكلم بصوت بعيد وكأنه كان على بعد آلاف الفراسخ من حيث هو.
هزّت كتفيها.
- ليس لدي خيار، أليس كذلك؟
عم صمت وجيز. ثم استأنفت:
- لقد تكلمت أثناء هذيانك. لقد تفوهتَ ببعض الكلمات. ذكرت اسماً. دائماً الاسم نفسه، أكثر من مرة.
- آه؟
- من هي إيناس؟
خفق قلب بيدرو بشدة.
- إيناس؟
أشاح بوجهه.
- لا أدري.
وضعت الملكة الكوب على المنضدة.
- لا تدري... أدعو الرب أن يكون الشأن كذلك بالنسبة لزوجتك.
بالكاد حجب دهشته.
- أجل، بيدرو. لأننا سهرنا عليك بالدور.
وتعجبت:
- أستحلفك! لا تتركني فريسة لعذابي.
- أمي، أنا أحبك. لكن دعيني لكآبتي. لأن الأمر يتعلق بكآبة. لا شيء غير ذلك. سوف تمرّ. تذكري ما قلته لي ذات يوم: بما أن السعادة ليست أبدية، لماذا سيكون الحزن أو العذاب بخلاف ذلك؟»
- أنت تعاني إذن إلى هذا الحد؟ في سنّك هذا؟
تأمل أمه في صمت. أين تجد هذا الصبر؟ من أين نهلت، طوال كل هذه الأعوام، القوة للعيش إلى جانب ألفونسو؟ المختلف عنها



جداً، المناقض جداً. التفهم مقابل انعدام التسامح. الحلم مقابل انعدام الرحمة. ما تفسير كونه إلى جانبها لا يعاني من تلك التأتأة التي لا تطاق؟

عادت إلى الهجوم.

- كلمني! أخبرني سرك. لأن لديك سرّاً. قلبي هو ما يخبرني بذلك.

كان يهمّ بالرد حينما طُرق الباب. وتقريباً في الحين نفسه، انفتح المصرع، مفسحاً ظهور طيف دونا كونستانزا.

- هل في وسعي الدخول، جلالتك؟

مدت بياتريس يدها نحو الأميرة.

- أهلاً بك.

دنت المرأة الشابة من الفراش، وهي خائفة تقريباً.

- كيف تشعر اليوم؟

- أفضل، أظن ذلك.

أشارت الملكة إلى المقعد الذي غادرته للتو.

- اجلسي مكاني، يا بنتي. إني أترككما.

- لا ينبغي ذلك، جلالتك، أنا...

- بلى. كنت ذاهبة.

طبعت قبلة على جبين ابنها وأسرّت له:

- لا تنسَ...

استولى الصمت مجدداً على الحجرة. صمت ثقيل لم تجسر كونستانزا ولا بيدرو على كسره. وفي الأخير، كانت الأميرة هي من همس:

- لقد بتنا قلقين عليك، بيدرو.

- أعرف. أنا آسف.

ثم لاحظت بنبرة أرادت لها أن تكون غير ذات بال.



- هل يحدث مراراً أن تختفي على هذا النحو، دون سابق إعلام؟
- كلا. طيب أجل. لطالما وددت أن أكون لوحدي. أختبئ في أماكن حيث لن يستطيع أحد العثور علي. وأنا طفل، كان يحدث معي ذلك أيضاً.

ولأنها لم تعد تقوى على المقاومة، وضعت رأسها على صدر زوجها.

- لقد انتابني خوف شديد، شديد.
- أنا آسف. لم أقصد ذلك.

لقد تفوهتَ ببعض الكلمات. ذكرت اسماً. دائماً الإسم نفسه، أكثر من مرة.

هذا الإسم، هل سمعته كونستانزا؟

سعى إلى تبديد الحرج الذي عمّ وسألها بنبرة غير مبالية:

- ماذا صنعت أثناء هذين اليومين؟
- لقد صلّيت. صليت بكل ما أوتيت من قوة كي تعود لنا سالمًا معافى.
- لم أكن في خطر. صدقيني.

تصلّبت وهتفت:

- لماذا؟

سؤال الملكة نفسه.

- لقد شرحت لك الأمر. عادة ترقى إلى الطفولة، حاجة إلى العزلة.
- العزلة؟ وسط الحشد؟ في السكر والرقص؟

فكر قبل أن يرد، وكأنه لم يكن مقتنعاً بصحة ذكرياته.

- لا ريب. إنّ المرء يهرب حيث يستطيع.

خيّم الصمت من جديد، وقد كسره للتوّ رنين ناقوس في البعيد.

- صلاة التبشير، لاحظ بيدرو. أو لا تذهبين للصلاة؟



أومأت برأسها أن نعم.

من جديد، الصمت.

إنها تعلم. لقد سمعت، لكنها لا تجرؤ على قول أي شيء.

نهضت الأميرة وسوّت كسوتها بحركة متوترة.

- أدعك، بيدرو. قد يستبد الظن بوصيفاتي. لقد قاسمنني حيرتي.

وأضافت دفعة واحدة.

- إحداهنّ، على الأخص.

موستيرو دو بِليم، ميناء لشبونة القِبلي

وضع ألفونسو يده اليسرى على كتف بلتزار دو مونطالطو، وبيمناه أشار إلى مصنع السفن الذي كان حشد من العمال يغدو ويروح على طوله.

- ها أنت ترى، صديقي. هنا يستقر مستقبل البرتغال. ذات يوم، يوم قريب، سوف تتجاوز أشرعتنا الأفق، وتخفق فوق أراضي جديدة. تلك العوالم، التي ما تزال مجهولة اليوم، سوف تكون في ملكنا. الميناء يعج مسبقاً بخيرات آتية من الشرق، أثواب غالية، معادن نادرة، توابل، قوافل للعبيد. لكن غداً، آه! غداً... فهذه الخيرات سوف لا يحصيها عدّ، شأن بريق الذهب الذي يلمع على نهر تاجة.

أمّن الساحر على كلامه.

- أنا مقتنع بذلك، جلالتكم. هكذا كان ظني دائماً. إذ في عبور المحيطات سوف نؤبّد عظمتنا.

- لذلك فإنّ من المهم جداً وضع اليد على تلك الخريطة المفروض فيها أن تدلنا على طريق الهند. بفضلك، آمل ذلك، سوف ننجح.

وبسرعة سأل الملك:



- لأنك تؤمن بذلك، أليس كذلك؟ لا تشك في أن المفتاح لا يزال دوماً بين يدي ذلك الفرانسيسكاني، في افينيون؟

أومأ بلثزار برأسه:

- إذا لم يعد بين يديه، فهو يعلم مكان وجوده.
- في كل الأحوال، لن يطول بنا الزمن للتحقق من ذلك.

مشى الملك بضع خطوات وترك لنظراته أن تهيم على البحر.

- مَن في وسعه أن يقول لنا...؟ قال وقد صار مستغرقاً على حين غِرّة.
- يقول لنا، جلالتك؟
- أي أسرار تختبئ ما وراء هذا الامتداد؟ هل سنلفي أراضي معادية أم ستستقبلنا بالأحضان؟ أي رجال سنلاقيهم؟ هل يشبهوننا؟ إذا كانت لهم القدرة على الكلام، هل في وسعنا فهمهم؟

سرت ابتسامة في تقاطيع بلثزار.

- يكفي أن نستعيد حال الطفولة. هل سبق لكم ملاحظة طفلين يلتقيان وهما لا يتحدثان اللغة نفسها؟ في طرفة عين، ها هما يتحدثان، ويتخاصمان، ويضحكان من مُزح لا ندرك مغزاها. وإنّ البالغين هم من يلفون أنفسهم، بغتة، وقد صاروا غرباء.

عَبَر ظلّ حدقتي ألفونسو.

- الأطفال... أشخاص قساة.
- قساة، جلالتك؟
- أقصد الكلام عن بضع منهم. عن ابني، في حقيقة الأمر.

دار العاهل على عقبه فجأة.

- هل يسعك تخيل مَلِكٍ مقبل يسكر مثل أحط متسول رفقة العوام؟

نحنح بلثزار جرعة من حلقه.

- هذا أمر يعاتب عليه بالفعل. لكن، الشباب ضعيف. إنه لا يعرف وحده الزمن...



- الزمن؟ بيدرو في العشرين من عمره! إنه رجل! في سنّه، العظيم ألفونسو هنريكي كان يخوض المعارك فعلاً. في سنّه، أسس مملكتنا وأعلن عن استقلال أرضنا بالانفصال عن قشتالة وليون! صهري وسميِي، ملك قشتالة، فقد تم تتويجه في سن التاسعة عشرا أو على الأصح توّج نفسه للتأكيد على أن سلطته كانت أعلى من سلطة المطارنة الستة الحاضرين. عشرون سنة! إنها حياة!

شدّ ألفونسو قبضتيه.

- ما العمل؟ أخبرني، بلتزار، كيف أقود بيدرو إلى ما هو أساسي؟ كيف أجعله يفهم أن كل شيء ما يزال هشّاً؟ المورو يحتلون دائماً جنوب شبه الجزيرة. ثم لقد أخبرني مبعوثون عن تحركات للجيوش شمال وِلْبَا، على بعد فراسخ معدودة من الحدود. كما أشك في أن جيراننا يحلمون في السرّ بالزمن الذي كان فيه البرتغال إقليماً لهم. بيدرو هو وريثي الوحيد. إذا لم يتعلم اليوم مقدار صعوبة الحكم، ماذا سيحل بهذه الأرض حينما أموت؟

خيّم صمت قصير كسره بلتزار.

- هل أستطيع إبداء رأيي، صاحب الجلالة؟
- بالطبع، بالطبع.
- لا تكسر الأبواب. لا تحاول جعل دون بيدرو على صورتك، حيث لم يُكتب أن على الابن أن يكون توأم أبيه. في الحقيقة، لا تستلزم منه ما لم يستلزمه والدك منك. إن والدك...
- يكفي!

إزاء حدة النبرة المفاجئة، بدرت عن بلتزار حركة إلى الخلف. نظر إلى الملك بذهول.

- أبداً! لا تكلمني أبداً عن والدي. لم أعرفه إلا ميتاً.



أحنى الساحر رأسه. ليس من قبيل الخضوع، وإنما بما يشبه الاحترام إزاء ما كان يعلمه. رغم الأعوام التي مضت، فإن الجرح المحفور في نفس العاهل ظلّ غائراً.

- سمعاً، صاحب الجلالة. ظل ألفونسو صامتاً للحظة، متأملاً البحر، ثم استفسره:
- أتساءل إن لم يكن من المفيد إخبار بيدرو بالموضوع.
- بقضية القس يوحنّا؟
- أجل. إذا أصابني مكروه قبل أن ينجح المشروع، من الواجب حقاً أن يتسلم المشعل.
- أنت على حق. وستكون تلك فرصة لجعله يهتم عملياً بشؤون المملكة.
- سوف أستدعيه فور عودتنا إلى مونتيمور.

وأضاف بشيء من المرارة:

- إن لم يكن سكراناً.




@3abeth

٨

قصر مونتيمور، البرتغال

كانت ليلة بدر تمام. صعد بيدرو، على أطراف أصابعه، الرواق المضاء ببريق لبني ولما وصل إلى طرفه الأقصى، هبط واحدة بعد أخرى الدرجات المؤدية إلى الطابق السفلي، ناحية الحجرات حيث ترقد الوصيفات. حينما وصل قبالة حجرة إيناس دو كاسترو، نقر الباب لمرتين نقراً جامداً ثم انتظر. لم يحدث شيء. أعاد الكرة. الصمت، دائمًا. إنها نائمة. لا تستطيع سماعه. وعليه، أمسك بيده المقبض المعدني وفتح الباب.

الآن، متوقفاً عند العتبة، يتردد للإقدام على خطوة إضافية. كان يخمن، أكثر مما كان يرى، جسد المرأة الشابة الممدد على الظهر. في وسعه سماع تنفسها، الخفيف الناعم، والوديع مثل جناح عصفور. ينصرف أو يجسر؟ كان عقل بيدرو يصرخ له بأن يتراجع. ونفسه تأمره بأن لا يضعف. لبّى نداء نفسه.

حين وصل بمحاذاة ناصية السرير، جثاً على ركبتيه. يكفيه تأملها، الإنصات إليها. لكم من الوقت ظل على حاله تلك ينهل من تلك الرؤية؟ كيف يقيم تلك اللحظات حيث السماء بذاتها تحبس أنفاسها؟

في لحظة معينة، تحركت، أرسلت تنهيدة واضطجعت على جنبها. ولم يعد يفصل وجهها عن وجه دون بيدرو سوى زفرة.



تلكما الوجنتين من زنبق ومن ورد. جيد من مرمر. وتحت الاستبرق، نهدان من عاج أو من ثلج؟

كرر بصوت خفيض ولعدة مرات، تقريباً عن غير قصد:

- إيناس... إيناس... إيناس.

فتحت عينيها ورأته.

كان ردّ فعلها غريباً. لعله كان ينبغي لها أن تفقد صوابها، أن تطلق صرخة، وبدل ذلك، ظلت ثابتة، تتفرس بهدوء دون بيدرو. مرتبكاً. أضحى بيدرو عاجزاً عن التعبير عن أي شيء. سوف يستحيل عليه ذلك في كل الأحوال ما دام الانفعال يغص حلقه. وكانت هي من تكلم:

- لقد أصابك المرض...

أومأ برأسه أن نعم.

سألت:

- وأنا السبب؟

ماذا يقول؟ وتلك الكلمات التي جمدت.

مقابل جهد يفوق قدرة البشر، تمتم:

- رسالتي... هل فهمت المقصود من رسالتي؟

انتصبت، والملاءة مرفوعة لصق صدرها.

- لو أفلحتُ في الكتابة، قالت بتؤدة، لو أنني أفلحت في ذلك فحسب.

- نعم؟

- لقلتُ لك الكلمات ذاتها.

غمرت سعادة رجّاءُ قلبَ دون بيدرو. هكذا، لقد كانت حقاً من جلدته. هكذا، كان لهما روحان توأمان. لقد انتابه خوف شديد.

- إذن، لماذا؟ لماذا لم تأتِ؟

أجابت بنبرة تكاد تكون متوسلة:

لا توجه لي هذا السؤال.

ثم، وقد استرسلت بسرعة فائقة:

أو نسيت الروابط التي توثقني بدونا كونستانزا؟ وتلك الأخريات الأشدّ حرمة، التي تجعل منك زوجاً لها؟

نهض دفعة واحدة.

لا شيء يبقى على حاله. أبداً.

ابتسمت لها مثلما يبسم المرء في وجه طفل.

إنك تتحدث بصفة الرجل الحرّ، دون بيدرو، بينما أنت وأنا، سجينان.

- أنت على حق، قال موافقاً. سجينان بعضنا.

يحيط بنا السجانون.

مشى صوب النافذة وحدق طويلاً في السماء الليلية. أين يعثر على الطريق؟ كان يعرف بأنها لا تجانب الصواب، وبأنّ الحاضر لم يكن سوى سور كبير يقف بينها وبينه. تمتم:

- العيش من دونك... العيش من دونك محال علي. إذا لم يكن هناك أمل، سوف أموت.

لانفعاله، رفع الكلفة بينهما عند مخاطبتها.

- هل لأميرٍ الحق في الموت حباً، دون بيدرو؟ ذات يوم، سوف تصير ملكاً، وسيكون شعبك في حاجة إليك.

- لا مملكة ولا أي شيء في الدنيا سيكون ذا قيمة في نظري إذا لم أعرف أنك بجانبي!

بشفتين يابستين، واصل وهو يعارك بشراسة إيقاع الألفاظ:

- ألم تُسرّي إلي الآن بأنه كان في وسعك كتابة تلك الرسالة؟ ولو أنك قمتِ بكتابتها، هل كان في وسعك الإفلات من جملة،



واحدة، بعد النظر إليها بصفتها غير لائقة؟ أخبريني. أستحلفك.
إذا كان الجواب قبولاً، أقسم لك بأن أعيش مع المي، دون السعي أبداً إلى العودة نحوك.

خيّم صمت لا نهاية له. كأنه دهر. إلى أن رسمت شفتا إيناس كلمة «لا» دون النطق بها.

وعليه، جلس على السرير، وبعد التخلص من كل رهبة، انحنى عليها. لم تدفعه. إحساسها بالدفء المنبعث من بيدرو، والتصاق خدها بخده، أسقطا دفاعاتها الأخيرة. همستْ: «فليغفر لي الرب». وفي الحين، التقى الفم بالفم والجسد بالجسد، ودقت نبضات قلب كل منهما بقوة قدر الطبول في ساحة إيفورا.

عبر النافذة، عكس القمر صورة غريقين. لكن ما كان في وسع بيدرو رؤيتها بما أن عينيه لم تعودا ملكاً لها، وكذلك شأن ذاكرته وعقله.

صاح:

- أحبك... أحبك.

لكن إيناس لم يكن في وسعها سماعه، بما أن حواسها لم تعد ملكاً لها، شأن ذاكرتها وعقلها.

شيئاً فشيئاً، هي التي لم تضاجع أحداً من قبل أبداً، انبهرت لكونها تئِنّ، وتتلوى لذة. استسلمت، هوت نحوه، ناهلة من منابع لم تشهدها من قبل. وبقدر ما طال عناقهما، تكشفت شيئاً فشيئاً أفراح غير متوقعة، حُمّى حارقة، عالم كامل مخفي إلى تلك اللحظة في أغوار جسديهما. وكان هو يقوم بالرحلة ذاتها. حينها، تمزق الحجاب. تقوس جسد إيناس بشدة. عضت شفتها السفلى كي تحتوي متعتها على نحو أفضل. لا عناء ولا ألم، السعادة فحسب. كان بيدرو بداخلها، ويطنها ذلك البحر العذري، يستقبله مثلما يستقبل عاشق عند عودته.



المحما مرة وأخرى حتى آخر الليل، حتى الساعة التي تسلل فيها لماع الشمس الأول داخل الغرفة، واجتاز الحجرة ليحط على برقع المدخنة، مضيئاً بذلك حلقة الخاتم الموجودة هناك.

على الفص المسطَّح حُفِر شعار آل كاسترو: ستة رسوم دائرية من العاج، ستة أعلام حريرية على خلفية مذهبة.

صوت العرافة العجوز وهي تصيح: «ستة أعلام حريرية تحكم مملكتك من الآن فصاعداً»، ولو أن صدى هذا الصوت تردد في الحجرة، ما كان ليسمعه دون بيدرو.

الهنيون، اليوم ذاته

الظلام يغمر الصومعة التي تقوم مقام غرفته. لكن من هذه العتمة تحديداً كان الأخ أوريليو كاميني يستمد راحته.

جاثياً عند مركعه، كان يسعى جهده للتركيز على صلاته، لكن دون جدوى. الحديث الذي تناهى إلى سمعه خلسة منذ أيام معدودة بين الكاردينال دو فونتناي والبابا أجّج ذكريات قديمة والشعور بالرعب المرافق لها. هكذا، أقدمت نفسٌ متوحشة على اختلاس ملف القس يوحنا. *هل سينبعث الخطر من جديد؟ هل سوف يُجبَر على الهرب؟ الهرب مرة أخرى؟* لقد سبق ونفى نفسه مدة تقارب عشر سنوات. عاش مثل متسوّل، هائماً على وجهه من مدينة إلى أخرى. منذ عودته إلى المدينة الأسقفية سنة من ذي قبل، لم يعد يستشعر القدرة على الرحيل من جديد. ومع يأسه، يبقى له رغم كل شيء ما يواسيه. الربّ، ببصيرته البالغة، وبفضل خادمه، المتواضع أوريليو كاميني، حال دون وقوع الأسوأ. الأساسي، ومحط كل الأطماع، يوجد في مكان آمن. لا أحد، أبداً، يستطيع إجبار أوريليو على البوح بالمكان الذي أخفاه فيه في انتظار أن يعهد به إلى نفس نقية: نفس مستحقة.



أما عن الوثيقة «الأخرى»... فلن يتأخر كامبيني في تسليط الضوء عليها وسيعلم الناس! وسوف يتعرف الناس على مدينة البابوات في حقيقتها: زانية بابل!

بإيماءة مستغرقة، داعب شفته السفلى بسبابته. وسرح عقله نحو الشخصيات الأربع (ما خلا كامبيني) التي كانت، خلال القرن، على علم بالسر الأعظم.

جيوفاني دي مونتيكورفينو، المتوفى بالصين، اثنتا عشر سنة من ذي قبل.

أودريك دي بوردينون، المتوفى شهر يناير عام ١٣٣١، في فيلانوفا. اليوم الخامس عشر تحديداً. تاريخ ظل محفوراً في ذاكرة كامبيني.

أما عن البابا يوحنا XXII، فقد فارق هذه الدنيا ستة أعوام من ذي قبل. عام ١٣٣٤.

كلهم ماتوا. كلهم ما عدا واحد.

لم يبق سوى ميلكيور، أخو بوردينون. وكم كانت دهشته عظيمة، حينما توصل كامبيني للتو برسالة منه. وحسب ما جاء في الرسالة، فإن الرجل ما يزال يقيم في مسقط رأسه، قرية بفيلانوفا، في إيطاليا، منطقة الفْرِيول. عجيب أمر ميلكيور ذاك. من السنوات التسع التي قضاها إلى جانبه، احتفظ كامبيني عنه بصورة مخلوق ساذج بعض الشيء، لا يهتم بشيء آخر غير قطيع خرفانه وأولاده: كان له ثلاثة أولاد، بنتان وولد. ليدوفيكو. لقد تساءل الفرانسيسكاني مراراً عما يعلمه ملكيور بالضبط. إلى أي حد باح له أخوه بأسراره حينما عاد إلى فيلانوفا؟ في كل الأحوال، لا أحد في الدنيا كان في مستطاعه العلم بوجوده. لا أحد سواه، كامبيني.

انتفض. طرق على الباب. وفي الحال، رجف قلبه. ماذا لو كانوا



هم؟ ماذا لو تم الاهتداء إليه؟ كلا. محال. ليس بكل تلك السرعة!
وجه بخطى مترددة نحو الباب. كان الكاردينال دو فونتناي يقف عند العتبة.

مونسنيور؟

آسف بمقدمي للتشويش على تأملك، أخاه. كنت أودّ التحدث معك.

- بالطبع. تفضل بالدخول.

دفع الفرانسيسكاني المصراع ساعياً إلى حجب الرّعدة التي استبدت بهدبه. هل تمت مباغتته وهو يتصنت خلف باب قاعة الخرائط البرتغالية؟

غضّن الكاردينال جبينه وهو يفحص الصومعة.

كيف يسعك العيش في ظلمة دائمة؟

أسرع كاميني إلى فتح الستائر التي كانت تحجب النافذة.

- تسمح لي العتمة بالتركيز. أو لم ينغمس سيدنا، يسوع ـ المسيح في الصلاة ليلاً، منصهراً مع أبيه، بينما كانوا يستعدون للقبض عليه؟

- أكيد، أكيد.

حدَّث فونتناي نفسه بأن الفرانسيسكاني كان حقاً شخصاً غريب الأطوار. قليل الكلام، منعزل، العين شاردة، ومظهر قلق لا يفارقه أبداً. منذ عام تقريباً على مقدمه إلى القصر الرسولي، لم يستطع أحد خرق الدرع الذي يحيط به كاميني نفسه. كل ما يُعرف عنه يتلخص في النزر القليل. لقد انخرط عندما شارف على الأربعين في رهبانية الإخوة الأصاغر ـ وهو سن متأخر جداً بالنسبة للنذر ـ وعاش شأن رفقائه في دير القديس فرانسوا داسيز، في أسْكُولي، على بعد خمسين فرسخاً من روما. وبينما كان يسند إلى الخمسين، أرسله رئيس



الرهبانية إلى الكرسي الرسولي، مكلفاً إياه بمهمة إعادة تنظيم سجلات لاطران التي ظلت عرضة للإهمال منذ نفي البابوية؛ وذلك جهد نظر إليه البعض باعتباره مثيراً للسأم، لكن اتضح أنه جذاب، حسب أقوال كامبيني. لأي سبب تم اخياره، هو، وليس غيره؟ من دون شك لاستقامته العالية التي لم يتوقف عن إظهارها ولمعرفته باللغات: كان يتكلم سبعة ألسن. لكن السنوات التي سبقت رهبانيته، لا يُعرَف عنها شيء. كيف قضاها؟ في أي بلاد؟

ذات صباح من شهر فبراير ١٣٣٠، شهد الناس وصوله إلى أفينيون. صرح بأنه كان مجبراً على الهروب من روما حيث صارت حياته مهددة. مِن طرف مَن؟ لماذا؟ أقل ما يقال عن أجوبة الفرانسيسكاني بأنها كانت مراوغة. حاول واحد من آل كولونا ولوج قاعة السجلات. وقد عارض الفرانسيسكاني ذلك بشدة، وقد ذهب إلى حد صرع الدخيل بواسطة شمعدان. هل صرعه فحسب؟ أم قتله حقا؟ ذلك لغز. المساء عينه، شد كامبيني الرحال صوب فرنسا وأفينيون. البابا يوحنا XXII الذي كان يحكم حينذاك، وافق على منحه اللجوء. والمثير للعجب أن كامبيني لم يلبث سوى بضعة أشهر. في مستهل عام ١٣٣١ رحل إلى وجهة غير معلومة. وعلى امتداد تسع سنوات تقريباً، لم يسمع به أحد. وها هو عاد إلى الظهور، سنة من ذي قبل.

إن حقق امرؤ، فإن تصرف البابا يوحنا XXII يبدو سخياً بصدق، حينما نعلم بالصراع المفتوح ذلك الحين بين جماعة من الفرانسيسكانيين والأب الأقدس. وبالفعل، بعد وفاة مؤسس الرهبانية، فقد برزت الصراعات في صورة سؤال جوهري: هل ينبغي العمل حرفياً بالقاعدة الأصلية المشهورة التي وضعها القديس فرانسوا الداعية إلى العيش مثل المسيح في حال الفقر المطلق؟ أم هل لنا الحق في تليين هذه القاعدة؟ البعض ـ التقليديون ـ اعتبر أن هذا الفقر



الإنجيلي هو من الشدة بحيث لا طاقة للإنسان به، بما أنه كان يحرم عليهم امتلاك أديرة أو حتى كتب ويجبرهم على العيش من التسول. والآخرون، الروحانيون أو zelanti المتحمسون، الذين يعتبرون أنه لا ينبغي بأي ثمن إعادة النظر في تعاليم القديس فرانسوا. عام ١٢٣٠، حسم البابا غريغوار التاسع الأمر بإعفاء الفرانسيسكانيين من اتباع وصية المؤسس. ومنذ ذلك الحين، اتسعت الهوة بين الفريقين؛ صار المتحمسون أكثر انتقاداً للكنيسة. عام ١٣٢٣، قام البابا يوحنا الثاني والعشرين ـ هو نفسه الذي منح الملاذ لكاميني ـ بتسوية المسألة نهائياً حينما أعلن بقراره Cum inter nonnullos بأن فقر السيد المسيح والحواريين لم يكن فقراً مطلقاً. وقد انفجرت الفتنة النائمة على الملأ. أظهرت كثرة كاثرة من «الروحانيين» معارضتها لما اعتبروه بمثابة سُبّة في ذكرى القديس فرانسوا. ولم يطل رد فعل البابا: بعد اتهام القادة بالهرطقة، تم الحكم عليهم بالسجن وأخذت المحارق تشتعل في كل مكان تقريباً، سواء في البروفنس أو كاتالونيا أو في اسبانيا. وحتى اليوم، لم يستسلم المتحمسون، إذ يواصلون الإعلان بأن الأسرار المقدسة التي تمنحها كنيسة أفينيون غير صالحة.

كل ذلك يشدد على الشهامة التي أبان عنها البابا يوحنا XXII باستضافة كاميني، إذ رغم أن الفرانسيسكاني لم يقر أبداً بذلك، فإن لونتناي كان مقتنعاً بأنه ينتمي إلى فريق المتحمسين. لقد فاتح البابا الحالي في ذلك الشأن، لكن هذا الأخير لم ير جدوى لأي رد فعل.

بحث الكاردينال عن موضع يجلس فيه، وبعدما لم يفلح، ظل واقفاً. كان من غير الوارد أن يجلس على تلك الكومة من القش التي يستعملها الفرانسيسكاني فراشاً له. ومع ذلك، كانت الأسرة متوفرة بكثرة في هذه الإقامة! كيف نرد إلى جادة الصواب رجلاً يؤمن بأن لا قيمة لوجود المرء إن لم يكن مبنياً على الفقر المطلق؟



- لن أطيل في الكلام، بادر فونتناي. عندي لك فحسب بعض الأسئلة.

شبك كامبيني يديه العظميتين على صدره.

- إن وسعني الرد عليها، مونسنيور.

- في الفترة التي كنت فيها مشغولاً بسجلات لاطران...

جعلت كلمة «سجلات» رعشة تسري في بدن الفرانسيسكاني. ومع ذلك أفلح في إخفاء أثر ذلك.

تابع الكاردينال:

- ... ألم تسنح لك الفرصة بملاقاة الأخ جيوسيبي كاردوتشي؟

- كاردوتشي؟

تظاهر كامبيني بالتفكير في الأمر.

- هذا الاسم مألوف لدي فعلاً. لعلي صادفته في دير القديس فرانسوا حينما كنت مقيماً فيه.

غضن فونتناي جبينه.

- مصادفة؟ حسب علمي، كنتم كثرة. أظن أنه كانت لديكم صلات شخصية متينة بإخوانكم. ربما علاقات صداقة.

- لم تكن تلك حالي. أنا شخص منعزل. لطالما وجدت صعوبة في الارتباط بالناس.

تلطف في الكلام، فكر فونتناي.

- ماذا يسعك إخباري به عن كاردوتشي؟

- ليس الشيء الكثير، مونسنيور. أعرف فحسب بأنه كان ذا نسب متواضع. سكوت بما فيه الكفاية. وبأنه انخرط في فتاء سنه في رهبانية الإخوة الأصاغر.

- هذا كل شيء؟

لوى كامبيني حنكه بأسف.



- هل كنتَ تعلم بأنه سبقك في السهر على السجلات؟

بدرت من الأخ حركة تنمّ عن التعجب.

- بتاتا! كيف كان يسعني العلم بذلك؟ هل أنت متأكد من ذلك؟

وافقك فونتناي.

- متأكد بقدر ما صار مذنباً بجرم السرقة.

تظاهر كاميني بوقع المفاجأة.

- سرقة؟
- تماماً.
- هذا مريع! ما كنتُ لأصدق يوماً بأنّ واحداً من بين اخوتنا قادر على ارتكاب مثل هذا الفعل.
- بالأسف! الشرّ ينتشر في كل منّا. فلنرجع للموضوع الذي يشغلنا. أعتقد أنه خلال أعمالك داخل السجلات، حدث أن وضعت يدك على بعض الملفات السرية؟
- بالتأكيد. أغلبها كان كذلك.
- أقصد بالكلام مِلَفاً على وجه التحقيق.

نحنح الكاردينال جرعة من حلقه.

- ملف القس يوحنا.

نطق كامبيني والحلق جاف:

- القس يوحنا؟
- تماماً.

وانغمس في تأمل مصطنع.

- هذا الإسم لا يعني لي شيئاً.
- هل أنت متأكد من ذلك، أخي؟

أمّن كامبيني على كلامه.

- هذا أمر عجيب؟



- عجيب؟
- لقد عملتَ أكثر من خمسة أعوام في لاطران.
- ستة أعوام واثنين وستون يوماً. مونسنيور.
- ولا لحظة، لم يقع هذا الملف بين يديك؟

لمعت قطرات معدودة من العرق على جبين الفرانسيسكاني مسحها بحركة سريعة بظاهر يده.

- لا يمكنك تخيل عدد الأوراق التي وجب عليَّ فرزها وترتيبها. ركام هائل من الكتابات. آلاف من المؤلفات ومثلها من المراسلات.
- بالضبط. ملف القس يوحنّا كان جزءاً من تلك المراسلات المتبادلة.
- لا يخامرني الشك في ذلك. لكني كنت أقوم بالفرز وفق التواريخ. وأعمل متبعاً الزمن صعداً. من المحتمل أن تلك الوثائق كانت تنتظر دورها.

وشّح وجهه مسحة من اللامبالاة:

- إلى أي فترة تعود تلك الرسائل؟
- رسالة، تدقيقاً قال فونتناي. إنها تحمل تاريخ ٢٣ يوليو ١١٧٧.
- أكثر من قرن ونصف القرن.. هذا ما ظننته. حينما غادرت لاطران، بالكاد شرعت في السنة ١٢٠٠.

لوى شدقه بابتسامة.

- ما يقرب من ثلاثة وعشرين سنة...

غشي حجاب حدقتي الكاردينال الذي لا يسع القول بأنه يعبّر عن حيرته أو عن تشاؤمه.

مرّر كفّه لمرات عديدة على طول ذقنه قبل أن يستأنف الكلام.

- ممتاز. أشكرك على هذه المعلومات.



- لا داعي للشكر، مونسنيور. صدقني أنه كان بودي أن أساعدك بفعالية أكبر.

وأضاف وعلا محياه تعب شديد:

- في كل الأحوال، حتى لو أنني رأيت الملف المذكور، فمن المحتمل أن لا يكتب لي تذكره قطعاً. إنه السنّ. ذاكرتي لم تعد بالحدّة التي كانت لها فيما مضى.

- إني أتفهم. لكن، في هذه الحال بالضبط، فإن ذاكرتك ليست هي السبب.

وحينما كان يجاوز العتبة، تلفظ الكاردينال بنبرة ملغّزة:

- ما يقرب من ثلاثة وعشرين سنة...

وما إن غادر مخاطبه حتى أغلق كامبيني الباب عليه بالمفتاح، وارتسم بشارة الصليب مرات عديدة.

- الرحمة... الرحمة... المغفرة، يا إلهي. أنا شقي. أنا لا شيء.

بحركات وئيدة، نزع لبوسه.

وبعد أن تعرى تماماً، جلس القرفصاء سوية الأرض وتناول السوط المخفي تحت فراش القش. وبلذة لا توصف، مرر كفه على طول الرباط، على طول السلاسل ذات الأسنان المعدنية، وجثا عند مركعه.

- ربي، أتوسل غفرانك. الكون بأكمله لك. لا تسمح لبني البشر أن يشيعوا فيه الخطيئة.

رفع يده ونزلت الضربة الأولى على صدره، ممزقة الجلد، ومسيلة جداول من دم.

عذاب، الأرض ليست سوى عذاب!

وشيئاً فشيئاً، تغطى الكتفان والصدر بخطوط ملتوية بنفسجية وكدوم شاحبة. وغير آبه بالألم، واصل كامبيني جلد نفسه، بينما ظلت يده صارمة رغم شدة الضربات.



الدم يسيل الآن على أسفل بطنه وفخذيه. عض شفتيه، وقد تشنجت تقاطيعه، وركز على مشهد فرانسوا الأسيزي، المنزوي في هضاب الألفيرن، على ذلك الجسد الذي تجلت فيه للعيان آثار محنة المسيح، الندوب.

- عذاب، عذاب! كان يئن. عذاب! الدنيا ليست سوى عذاب...

بينما كان يمشي على طول جناح المجمع، حاول المونسنيور دو فونتناي ترتيب افكاره المتناقضة التي كانت تتضارب في رأسه. لقد كذب كامبيني. ذلك أمر بَدَيهيّ. لماذا؟ ما الذي كان يريد إخفاءه؟ حكاية الفرز تلك لا تستقيم. كيف يصدق المرء أنه «صادف» كاردوتشي لا غير؟ لم يسبق لفونتناي أن شعر بأي تعاطف إزاء هؤلاء المتحمسون. لأنهم يصرون على القول بأنه لا ينبغي للكنيسة امتلاك أديرة أو أراضي أو أي ثروات كيفما كان نوعها. في أي مكان كتب بأن على الراهب أن يتسوّل طعامه؟ هذه المرة، على الأقل، لم تكن عدوانيته سبباً لحذره. هناك الكثير من مناطق الظل في حياة كامبيني.

ينبغي لها الإسراع لإخبار البابا بالأمر. سوف يقوم بذلك ما إن يرجع هذا الأخير من إقامته في سوزْغ.



٩

قصر مونتيمور، ٢٠ ديسمبر

نهض الملك ألفونسو بشدة من على فراشه، وملامحه غارقة بالعرق، منبهّاً بفعل ذلك الملكة بياتريس التي كانت نائمة إلى جانبه. كأنّ بدنه بكامله يرتعش وكأن تياراً صقيعياً قد دبَّ فيه. فتح فمه كي يصرخ، لكن لم يخرج منه سوى اسم: *إيزابيلا*...

ها هو ينادي أمه مرة أخرى.

نهضت بياتريس بدورها، وفي حركة مفعمة بالشفقة، حضنت زوجها بذراعيها.

- دائماً الكابوس نفسه؟ سألته بوداعة.

لم يُجب ألفونسو شيئاً. في ضوء الفجر الشاحب، يخيل أنه شبح. منذ أعوام وهو مسكون بهذه الأحلام المرعبة. على وجه الضبط، منذ وفاة والده، الملك دينيس. مشاهد مريعة، دائماً هي نفسها، حيث يرى نفسه حاملاً السيف في وجه والده، غارزاً النصل بين أضلع الأب، والبد، كي ينتزع أحشاءه واحداً تلو الآخر، مستلذاً غضبه، وكأنّ رياحاً عاتية تحمله، من تلك التي تهجم في بعض الليالي ويهيج معها البحر في المصبّ عند قدم لشبونة.

- صرخ:

- متى يكف هذا؟ متى؟



- كل شيء منذور للنسيان. سوف ترى، ألفونسو، كل شيء منذور للنسيان.

ومع ذلك، كانت تدرك جيداً أنّ المأساة التي واجه فيها الأب ابنه ليست من الأشياء التي تندثر في الذاكرة. سوف تظل البقعة بادية إلى الأبد ولن تمّحي إلا في القبر. ما وقع عشرين عاماً من ذي قبل لم يكن مجرد خلاف، وإنما تمزق من تلك التمزقات التي تقطع القلب وتفرغه من دمه.

هبَّ ألفونسو واقفاً. في الاتجاه المعاكس للضوء، مرّت صورةُ سنديانةٍ بخاطر بياتريس. هكذا اعتبرت زوجها على الدوام: سنديانة. سنديانة ضاربة بجذورها في جلمود الصخر نفسه، مستندة إلى سور كان قادراً اسمه البرتغال. لا شيء ولا أحد كان على زعزعتها. لا شيء، إلا تلك الرؤى التي كانت تهجم على لياليه.

- كيف حاله؟

هكذا حطَّ السؤال محتدماً وغير متوقع بالقدر نفسه.

هكذا، عنَّ لبياتريس، حتى وهو مُضطرب ويصارع عواصفه، فإن ذهن ألفونسو يحافظ على كامل حصافته.

- ابننا في حال أحسن.

جازفت وأضافت:

- ينبغي لك ربما السماح له برؤيتك. ها قد مرّت أكثر من عشرة أيام وأنت تغلق دونه بابك. عيد الميلاد اقترب. عيد ينبغي للقلوب فيه أن تتصالح حول ميلاد ربنا.

التفت الملك بحدّة.

- وما الفائدة من ذلك؟ أخبريني؟

- يمكنك أن تحدثه، أن...

- أحدثه؟



دبَّ تشنج في شفتيه.

- لقد علّمته كل ما يجب على عاهل تلقينه لمن هو مدعوٌّ، ذات يوم، للجلوس مكانه. إنه يسمعني، لكنه لا ينصت إلي. إنه ينظر إلي، لكنه لا يراني! وهذه المرّة...!

توقف كي يشد قبضته.

- لقد تجاوز حدود المطاق! يرقص ويسكر صحبة العوام! يسكر حد التدحرج تحت الموائد! هل تظنين أن هذا هو السلوك الذي يليق بأمير؟

- هدئ من روعك. ما الفائدة من غضبك؟

في البعيد تتصاعد أولى أصوات الرّيف الذي يصحو.

استأنفت بياتريس الكلام:

- إني أفكر في جملتك: «لقد علّمته كل ما يجب على عاهل تلقينه لمن هو مدعوّ، ذات يوم، للجلوس مكانه.

- تماما! هل أخطأت في ذلك؟

- كلا. أنت العاهل. هو وريثك.

- وماذا بعد؟

دنت الملكة من زوجها.

- إنك تكلمه بلسان ملك، يا مولاي. ربما عليك أيضاً أن تكلمه بلسان أب. لأنك لا تسود على مملكة فحسب، إنك تسود كذلك على قلب ابن. والاثنان لا يحكمان بالمثل.

نهض ألفونسو دفعة واحدة.

- سخافات! كلام امرأة!

- كلا ألفونسو. كلام أم.

- جُعلت الأم كي تهدهد. والرجل كي يربّيَ. أعرف أني على



صواب. والوقت قصير جداً لأهدره في تصرفات طائشة. لا يهم إن لم يكبر بيدرو بصفته ابن! المهم أن يكبر بصفته ملك.

خفّ ناحية الباب المفتوح على غرفة الانتظار وجاوز العتبة دون أن يلتفت.

ألفت بياتريس نفسها وحيدة.

ألفارو كونسالفيس، رئيس كتاب العدل، واحد من بين المستشارين الثلاثة الأقرب إلى الملك، لم يفلح في تصديق ما تسمع اذناه. أعاد سؤاله للخادم الذي كان يقف أمامه.

- هل أنت متيقن مما تقول؟
- أجل، مولاي. لقد رأيته. رأيت الإنفانتي مثلما أراك.
- كان يلج حجرة دونا إيناس؟ هل أنت متأكد من ذلك؟
- ولم تكن تلك المرة الأولى. الأمر على هذه الحال كل الليالي منذ أسبوع. في الساعة التي نتحدث فيها، رايتهما يسرعان نحو الاسطبلات. لا شك أنهما يستعدان للذهاب في نزهة.

تحولت دهشة كونسالفيس إلى رهبة.

- على مرأى ومسمع من الجميع؟
- اخشى ذلك.

أمر لا يصدق! أن يزني الإنفانتي خارج آصرة الزواج، لم يكن ذلك ليصدمه: لأن الفتى الشاب لا يستمد ذلك من بعيد. جده، الملك دينيس، لم يحرم نفسه أبداً من ذلك، بل على العكس! كلا، يكمن مصدر الإزعاج في موضع آخر. كان له علاقة، ليس بإيناس دو كاسترو التي، بالمناسبة، قد يضاجعها كونسالفيس عن طيبة خاطر، وإنما بأخوي إيناس، خوان وفرانسيسكو. وعلى الأخص فرانسيسكو، الأكبر، وإن وجد هناك شخص حقير فإنه هو. وقد كان كونسالفيس قاب قوسين أو أدنى من مقارعة الرجل. رغم أن عشرين سنة قد مضت



على ذلك، فإن الذكرى ما تزال حية. حدث ذلك يوم ١٢ يناير ١٣٢٠، باشبيلية.

بضعة أعوام من ذي قبل، باسم الأحلاف المقدسة، تم عقد قران دونا ماريا، أخت بيدرو، بملك قشتالة الشاب. هذا الزواج الذي كان مفروضاً فيه أن يقرّب بين المملكتين، أدى بهما، خلافاً لذلك، إلى المواجهة. بعد إساءة معاملتها من طرف زوجها، ولشعورها بالإهانة، استنجدت بوالدها. في البداية، كتب ألفونسو رسالة طويلة إلى العاهل القشتالي، مهدداً إياه بالتدخل، إن هو لم يغير سلوكه. لم تُصب الرسالة الهدف. تبعها تحذير ثان لم يكن له أثر مثل سابقه. حينها، لم يتردد ألفونسو في حمل السلاح. في نظره، لم تكن كريمته وحدها من يتعرض للإهانة، بل البرتغال أيضاً. وبعد أربعة أعوام من الحرب التي لم يعرف لها غالب ولامغلوب، بتحريض من دونا ماريا نفسها، تم القرار بالتفاوض. لم يكن الرجل الذي يقود الوفد القشتالي سوى فرانسيسكو جو كاسترو. أخو إيناس بشخصه. أما كونسالفيس فقد كان يمثل المصالح البرتغالية. لم يبق له أبداً، طوال حياته كلها أن واجه مثل ذلك الشخص. الغطرسة بعينها. ويا لها من وقاحة!

وبالحديث عن دونا ماريا، وجد من الجرأة للقول: «إنها بلهاء صغيرة، وقحة فوق ذلك، تجهل معنى احترام زوجها». وقد تمادى في إهانته مضيفاً: «إنها برتغالية خالصة». احتقن دم كونسالفيس في جوفه. وثب على قدميه، وقد أخرج سيفه من غمده، متأهباً لطعن الشقي. لولا أن حال من كان يحيط بهما دون ذلك، ما لبث فرانسيسكو من أحل هذه الدنيا.

ومنذ ذلك اليوم، أفلح ذلك الشخص الشرير في فرض نفسه من شدة خدعه، والآن، ولو أنه لا يملك رتبة رسمية، فإن تأثيره لدى ملك قشتالة كان يعادل تقريباً في قوته ما لمستشاري ألفونسو الرابع



عليه، ألفارو كونسالفيس، بيرو كويلهو، أو ديوغو لوبيز باشيكو. وفي حقيقة الأمر، فقد استفاد كثيراً من المعركة التي خاضها الملك الشاب ضد المناوئين للحكم الملكي المطلق، أي ضد طبقة النبلاء العليا، والرتب العسكرية والكهنوت. إستغلت شخصيات هامشية ـ التي كان ينتمي إليها فرانسيسكو ـ هذا الوضع للإرتقاء إجتماعياً، مع معرفة الفوز بتقدير وثقة الملك. ملك لم يكن يبلغ حينها سوى أربعة عشر عاماً.

كنس كونسالفيس الهواء بيده. هيّا! إنه يشغل باله من أجل لاشيء. دون بيدرو تزوج ولم يُر أخوا إيناس في حفل الزفاف؛ وهذا دليل، إن كانت هناك حاجة إلى دليل، على انعدام حس المجاملة لديهما. لو قُدّر للقضية أن تأخذ أبعاداً معينة، سوف يحين الوقت عندها لإسداء النصح.

ورغم ذلك، أمر رئيس كتاب العدل خادمه:

ـ واصل مراقبتهما. وأخبرني بكل صغيرة وكبيرة مما يفعلان.

أومأ الرجل:

ـ بالتأكيد، مولاي.

بعد أن ظل لوحده، استغرق كونسالفيس في التفكير بضع لحظات.

قد يكون من الحكمة إخبار مستشارَي الملك الآخرَين. فضلاً عن ذلك، عليهم الاجتماع عند منتصف النهار من أجل وضع آخر اللمسات على المشروع يوحنا. لا شك أن كويلهو وباشيكو سيعبران عن اهتمامهما بالخبر.

ذرعت دونا كونستانزا للحظات أخرى غرفة الجلوس المتاخمة لغرفة نومها قبل أن تدور على عقبها نحو مصالا.

ـ أجل، أعرف! أعرف أنّ طلبي سخيف. ومع ذلك، ليس لدي سواك للحديث معه. لا أجسر على البوح بسري للملكة، والملك



هو الملك. لقد حدثني بيدرو عن المشاعر التي تجمعكما. ولعلي فهمتُ أنك، أفضل من أي شخص غيرك، قادر على أن تكشف لي خفايا نفسه. إذن، مصالا؟

توشح العبد الهرم بمظهر شارد. بم يجيب هذه المرأة الشابة؟ لما دُعيَ دقائق معدودة من ذي قبل إلى حجرات الأميرة، شعر بأنه مشلول الحركة كلياً. بالطبع، سبق له تحذير دون بيدرو، مهوّلا الوضع عن قصد، لكن في قرارة نفسه، ما كان له أن يصدق بأن الأحداث سوف تتطور بهذا القدر من السرعة. ثبت نظره في عين المرأة الشابة.

- حياة الأمير مِلك له، دونا كونستانزا. لا أعلم شيئاً.

- الرحمة! ما الفائدة من إخفاء الحقيقة عني؟ لا أبغ من العمر سوى عشرين سنة، لكن صدقني، أنا قوية؛ أشد قوة مما يظهر.

لجم البربري نظرة مرهفة؛ من تلك النظرات التي نلقيها على الأطفال. قوية؟ لقد تعامل في حياته مع ما يكفي من النساء للتعرف بطرفة عين فحسب على اللّبؤ والظباء. لا منازع في أن الإنفانتا كانت من الصنف الثاني.

ارتفع الصوت من جديد.

- مصالا! ماذا هناك بين زوجي ودونا إيناس؟

- لا يمكنني أن أجيبك.

- خوفاً من أن تخونه؟

- كلا.

- إذن؟

- لقد أخبرتك في الحال: لأنه يملك الجواب.

- وهو؟ هو، أليس في ملكي؟ ألم يصِرْ لي، مثلما أني صرتُ له بعد أن ارتبطنا بآصرة الزواج المقدسة؟



تاهت حدقتا البربري ناحية الموقد حيث كان يخبو جمر الليل الأخير. كان يكره مثل هذا الوضع ويمقت الكذب.

- لا أحد ملك لأحد، دونا كونستانزا، رد عليها، إلا العبيد.

- ألسنا عبيداً للعهود التي نطلقها؟

أشارت بسبابة متوعدة.

- في الفجر، أسرجت لكل منهما حصاناً كُميتاً.

لزم الصمت.

- كانا مُعَدَّان لزوج.

ظل مقيماً في خرسه.

واصلت:

- الأول لدون بيدرو، والثاني لأجل دونا إيناس.

- لم أكن أعلم ذلك.

- إنك لا تجيد الكذب! ألا ترى بأن تصرفك عقيم؟ تسعى لحجب كل ما تعلمه مونتيمور مسبقاً.

وكادت تتوسل إليه.

- صدقني. لا أريد أي سوء بدون بيدرو. المثير للاستغراب، أني لستُ مستاءة من دونا إيناس. لقد أخطأت. لكنها ليست مذنبة لوحدها.

رفعت ذراعيها ثم تركتهما يهبطان بكلل.

- لا تظن أني سوف أتصرف مثل أخت بيدرو. أن أكون دونا ماريا، وأستنجد بأبي. زد على ذلك أن والدي، وإن كان هو دوق بينافيل، ويحترم بشدة الأمور المتعلقة بالشرف، فإنّ سنّه لم يعد يسمح له بحمل السلاح. أريد فحسب أن أعرف.

- إن كان دون بيدرو يخونك؟

بدرت منها ضحكة مكرهة.



- أنا مقتنعة بذلك، يا للحسرة. منذ غداة ليلة العرس، حاصر دونا فيليبا بالأسئلة، وهي إحدى وصيفاتي. كان يريد معرفة كل شيء عن إيناس. وها قد مرت أيام وهو يهجر فراشي ليعمر فراشها. وهذا الصباح، هذا الخروج إلى ما لا أدري اين، رفقتها. على مرآى من الجميع. ما أريد معرفته هو...

توقفت، وهي تسعى للعثور على الكلمة المناسبة. أكمل الجملة بدلاً منها:

- إن كان الأمر يتعلق بنزوة عابرة أم بإحساس دائم؟
- تماماً. لقد عاينته وهو يكبر. حسب ما قال لي، كنتَ أشدّ قرباً إليه من أبيه الذي لم يكن كذلك أبداً. يفترض أنك تعرف الجواب.

حرك مصالاً رأسه يمنة ويسرة بأسى.

- أنا آسف، دونا كونستانزا. أعرف الكثير من الأشياء. لكن ما تطلبينه مني يتجاوزني.

فتحت فمها لتعترض، لكنه أوقفها بحركة من يده.

- كلا! أنا صادق. أقسم لك بالقرآن الكريم. اسألي العلماء عن سير الأفلاك، سيفلحون في إجابتك، اسألي الأطباء عن أسرار الأجسام والأخلاط، سوف يزودونك بعلمهم. خذي بحّاراً مجرّباً، اسأليه أن يحدثك عن التيارات وحركات المد والجزر. إنه عارف بكل أسرار البحر. لكن لتفسير اندفاع القلب، ولادة المشاعر، والتنبؤ بمدتها أو شدتها، لن تلفين أحداً. إن قلب الرجل أشد تعقيداً من حركة الأفلاك. المرء لا يعرف أبداً لماذا يحبّ: وهو يعرف دائماً لماذا لم يعد يحب.

ولزم الصمت لحظة قبل أن يختتم:

- يستحيل علي إخبارك ما إذا كانت مشاعر دون بيدرو تجاه دونا إيناس سوف تطول. وبخلاف ذلك، في اليوم الذي ستندثر فيه



تلك المشاعر، حينها يسعك سؤالي عن السبب، وأؤكد لك بأني سوف أجيبك.

استسلمت الإنفانتا للتهالك فوق الأريكة.

- سوف أحارب، لفظت بصوت مكتوم.

- لماذا؟

نظرت إلى مصالا باندهاش وكررت بعده:

- لماذا؟ يا له من سؤال لا يليق! لماذا؟ لأنه زوجي؟

- ذاك كل ما في الأمر؟

- أليس هذا سبب كاف؟

- لا تبالي، دونا كونستانزا. لا أدري لم طرحت هذا السؤال.

- آه، كلا! فليكن لديك شجاعة تلميحاتك!

- يحدث أحياناً أن نفهم شعوراً على أنه شعور غيرة. أن يحارب المرء للحفاظ على مخلوق بجانبه لا أهمية له إلا إذا كان الباعث محموداً.

- اوضح أكثر!

- خوض حرب للحفاظ على زوج، ذاك حسن. الصراع للحفاظ على علاقة حب، ذلك أحسن.

وقبل أن يسنح الوقت للاعتراض، سأل قائلا:

- دونا كونستانزا، هل تحبين دون بيدرو؟

شعرت بنفسها ترتنح.

- بالتأكيد!

- إذن لقد أخطأتُ.

- أخطأتَ؟

- كما ترين، أنا قادم من بلاد الآباء فيها هم من يقرر سعادة أو شقوة أبنائهم. أسرة فلان تقرر قرن بنتها أو ولدها بأسرة علّان. لا



خيار لمن يهمهم الأمر. يفرض عليهما مصير لا مكان فيه للحب. المصلحة فحسب. هذا أيضاً يسمى العبودية. زواجك من بيدرو...

صاحت:

كيف تجرؤ على عقد مقارنة مهينة كهذه؟

حنى رأسه.

إن كنتُ قد أهنتك، دونا كرنستانزا، فأنا أطلب منك المعذرة بتواضع. لم تخامرني فكرة...

قاطعته، وقد احمرّت وجنتاه من الغيظ.

- يكفي! لقد أخطأتُ بالإسرار إليك! أخطأتُ الظن بأنك ستظهر شيئاً من الشفقة! أخطأت!

أشارت إلى الباب.

- يمكنك الانصراف!

في الوقت الذي اجتاز فيه الباب، سمعها تصيح:

- سوف أحارب!

لم يرِ أنها حينما نطقت تلك الكلمات كانت تمرّر كف يدها اليمنى على طول بطنها.

كان دون بيدرو يمتطي حصانه إلى جانب إيناس. أمامهم يمتد بحر من الخضرة، يبسط أمواجه الخضر الصاخبة حتى الأفق. من شدة ما كان شبابهما وجمالهما يشع تحت زرقة السماء فقد أثاراً غيرة الآلهة، لا محالة.

هكذا قد مرت أكثر من ساعتين على تجاوزهما قرية أرايلوس الصغيرة وها قد برزت للتو قرية إستريموز ببيوتها البيض ذات السقوف القرميدية الكستنائية اللون. في البعيد، فوق هضبة، يبرز قصر مهيب وبرجه. هو الذي يرقى إلى أكثر من قرن من الزمان، كان قد شيده ألفونسو الثالث، الجدّ الأكبر لدون بيدرو.



- سوف نصل عما قريب، أعلن الأمير.

- تذكر. لقد وعدتَني بالعودة إلى مونتيمور قبل دخول صلاة التبشير عند الظهيرة. لا أريد مواجهة أسئلة دونا كونستانزا. لن أقاوم ذلك.

- لا تخشي شيئاً. سوف تكونين في الموعد.

صعدا عدْواً الطريق الرملي المؤدي إلى قمة الهضبة، ولم يترجلا إلا بعد أن صارا قبالة أسوار القصر.

أمسك الإنفاتي يد إيناس وجذبها نحو المدخل.

- يبدو أنك تعرف هذا المكان عن ظهر قلب، لاحظت إيناس.

- صحيح، لقد قدمت إلى هنا مراراً.. أحبُّ هذا المكان.

- ومع ذلك، هو مجرد قصر إضافي.

- بالتأكيد. لكن هنا شبَّ جدي، الملك دينيس، ثم هناك أمرٌ آخر...

- لا تريد أن تخبرني به دوماً.

- صبراً. ستعرفين كل شيء بعد لحظات.

أخذها إلى ظل برج من الأبراج المطلّة على القصر.

- سرّي مخفيٌّ هناك، قال وهو يفتح بابا يبرز في الحائط.

عند رؤية السلّم الضيق اللولبي الذي يرقى نحو الأعلى، صاحت إيناس:

- كان يجب عليك إخباري مسبقاً بالأمر!

- إخبارك مسبقاً؟

صفقت يديها على طرفي لباسها الخاص بركوب الخيل.

- هل تخيلتني أتسلق إذن هذه الدرجات وأنا بهذا الزّي؟

دنا دون بيدرو من المرأة الشابة، وتظاهر بحملها.

- ماذا تصنع؟

- سوف أحملك؟

- حتى الأعلى؟



- وأعلى من ذلك أيضاً.

أرسلت نحوه ابتسامة مرحة.

- حتى السماء؟

- وأعلى من ذلك أيضاً؟

أفلتت ضحكة منشرحة.

- الرب شاهد عليّ! من شدة ما أنت مجنون، فإنك تستطيع فعل ذلك.

تخلصت منه، وبحركة نشطة، شرعت في رفع كسوتها إلى ما فوق ركبتيها. ثم أبدت انحناءة احترام.

- أنا أتبعك، مولاي بيدرو. ها أنذا، لأجلك فقط، صرتُ غاسلة ثياب.

المشهد الذي كان ينتظرها أفقدها القدرة على الكلام. حجرة مستديرة. شموع. مذبح، وعلى الجدران، لوحات تمثل وقائع من حياة امرأة. علاوة على ذلك، كانت صورتها موضوعة على مقرأ، قرب المدخل.

- مصلى؟

أمّن بيدرو على كلامها.

أشارت إلى الصورة.

- هذه المرأة؟ من هي؟

- زوجة الملك دينيس، الملك إيزابيلا، جدتي.

- لماذا هنا؟ في هذا المكان المقدس؟

استغرق بيدرو بضع ثوان قبل أن يفصح:

- لأنها كانت قديسة. ثم، هكذا يلقبها الشعب: «الملك القديسة».

بدت إيناس حائرة.

- هلا شرحت لي حقا؟



- لقد ولدت في بلاد الأراغون، منذ حوالي سبعين سنة. في سن الثانية عشر، أجبرت على الزواج من جدي، الملك دينيس. كان إذاك أميراً ولي العهد. ورزقت بولدها الأول سبع سنين بعد ذلك.

- هذا الولد، هو أبوك، ألفونسو؟

- اجل. ومع أنه كان شاعراً، فإنّ دينيس لم يكن ما نستطيع نعته بالرجل العطوف. كان خشنا مثل قرويي بلادي. لكنه، أفلح في إدراك موهبة نادرة لدى زوجته: سخاوة القلب. سخاوة مقرونة بتقوى لا يحصيها عدّ. أسلم لها الحرية الكاملة. وبسرعة، خصصت إيزابيلا وقتها لإشاعة الخير حولها. لم تكن تتردد في الاختلاط بالشعب، مانحة هنا وهنا الطعام والمال. ومنذ الفجر، كانت تيمم شطر كنيسة القصر - حيث نحن الآن - وبعد أداء صلاتها، كانت تذهب للطرقات، تعطي لمن به حاجة، سواءً كان برتغالياً أو اسبانياً أو عابر سبيل. كانت تعطي حد التعب. وكانت تردّ على من يحيط بها معاتباً إياها عن كرمها الزائد قائلة: «لا أستطيع سماع أنين كل تلك الأمهات الفقيرات وصوت الأطفال الصغار المتوسل دون أن تصيبني رجفة. لا يسعني رؤية دموع الشيوخ وبؤس كل هؤلاء الناس الفقراء دون أن أكدّ للتخفيف من مآسي هذه البلاد. إنّ الخيرات التي وهبها لي الرب، لست إلا مؤتمنة عليها، ومن واجبي نجدة كل مستصرخ»

- نفسٌ طيبة، لاحظت إيناس.

- أنت محقة أكثر مما تظنين. لقد نذرت حياتها لتشييد دور العجزة، والأيتام، ودير رهبنة الكلاريس، هو دير القديسة كلارا، قرب كويمبرا. قلبها كان متسعاً مثل السماء، لم يكن بقلبها سوى الحب والرحمة. لأكثر من مرة حالت دون أفراد من أسرتها كانوا يتعاركون فيما بينهم، وأفلحت في فرض السلم عليهم. من هنا، يأتي لقبها الثاني، la Pacificadora، صانعة السلام.



صمت بيدرو. تذكر هذه المرأة جرَّ عليه سيلاً من العواطف، وبلا ريب، مشاعر أخرى دفينة بشدة.

لامست إيناس خد عشيقها.

أشعر بأنك مضطرب جداً. يبدو عليك أنك أحببت كثيراً تلك المرأة.

بل أكثر. حتى وإن لم تكن جدتي، فإن مشاعري تجاهها كانت سوف تكون بالقدر نفسه من القوة.

اغترف نفساً قصيراً ثم استرسل:

- ذات يوم شتوي، بينما كانت تتصدق، صادفها الملك دينيس، وظن أنه رأى مئزرها قد ملأته قطع ذهبية. وكان تلك حقيقة. متذمراً، أمرها بفتح المئزر. لم يكن أمام إيزابيل خيار سوى الانصياع. وهنا، حدث أمر لا يصدق: بدل القطع الذهبية، اكتشف الملك وروداً رائعة الجمال، وروداً متفتحة، والأدهى من ذلك، لم يكن ذلك أوانها. كانت تلك «معجزة الورود». لا يوجد في المملكة اليوم من لم يسمع بهذه الواقعة.

- عجيب! صاحت إيناس، مثلما تُعبّر طفلة.

- وما يثير العجب أكثر، هو تخيل تلك المرأة، التي كانت تبلغ حينها سبعين عاماً، وهي تقوم بالحجّ إلى كومبستيل وفي طريقها تتسول الناس الصدقة.

- متى كان موتها؟

- منذ أربعة أعوام بالضبط. لما كان الملك دينيس قد سبقها باثنتي عشر سنة، قررت بادئ الأمر أن تعتزل الناس في دير القديسة كلارا، لكن بعد تفكير، ارتأت أنه من الأصلح ـ وقد لبست رداء رهبنة القديس فرانسوا من الدرجة الثالثة ـ أن تقيم في بيت صغير قريب من الدير حتى يسعها مواصلة أعمالها الخيرية.



- وهناك ماتت؟

أومأ بيدرو برأسه نافياً.

- لقد أفل نجمها هنا، في إستريموز، بينما كانت تزور والدي. هذا على الأقل ما حكوه لي.

نظرت إليه المرأة الشابة بشيء من التعجب.

- يبدو أنك شاكّ في ذلك.

مشى الأمير بضع خطوات نحو صورة إيزابيلا، ولم يجب إلا بعد حين.

- يشق علي تفسير ما أشعر به. أجل. أشك. لطالما راودني الإحساس بأنه يتم إخفاء شيء ما عني. سرّ. سرٌّ رهيب.

- ماذا يمكن إخفاؤه عنك؟ لأي سبب؟

- لا أدري عن ذلك شيء. ربما أنا مخطئ. لكن هناك من الخفايا الأشد بلاغة من الأمور المعلنة. إنّ الطفل يشعر بهذه الأشياء. لقد شعرت بها.

- هل صارحت أمك بذلك؟ هل سألتها؟

- طبعاً. لقد سألتُ أبي أيضاً. في كل مرة، كنتُ أواجه رد الفعل نفسه: وجه يطرق، نظرة تتهرب منك. جمل لها وقع درس حفظ عن ظهر قلب. هذا كل ما في الأمر.

باندفاع عفوي، أحاطت إيناس براعيها رقبة بيدرو.

- شكراً...

مط حاجبيه.

- أجل، استأنفت الكلام، شكراً لأنك اقتسمت معي هذا القسط من حياتك.

- أريد أن تعرفي كل شيء عني.



توقف ثم قال:

- غداً، أعرفك على مصالا.
- مصالا؟
- إنه خادم وفيّ. كما أنه أبي الثاني. إذا قُدِّر وحلَّ بي أمر ما ذات يوم، إعلمي أنه الوحيد من يحظى بثقتي الكاملة.

أخذت تضحك صراحة.

- إن من يسمعك، يظن أنك رجل هرم لم تفضل له سوى أيام على قيد الحياة!
- لأني أشعر بالخوف، إيناس. الخوف من أن تفرق بيننا الدنيا.

لم تجرؤ على قول أي شيء. لا ريب بأن الخوف الذي ذكره كان أيضاً خوفها. تبخرت نظرة نحو صورة إيزابيلا وتحولت إلى دعاء مكتوم.

ايتها القديسة إيزابيلا، رجاءً، أن لا تبدد قعقعة السلاح وحكم الناس هذا الحلم.

أسفل البرج، كان مساعد ألفارو كونسالفيس يترقب بفارغ الصبر عودة الزوج.




@3abeth

١٠

قاعة الخرائط البرتغالية، مونتيمور

- مضحك، أليس كذلك؟ هتف ألفارو كونسالفيس نحو بيرو كويلهو وديوغو باشيكو.

لاحظ هذا الأخير:

- مضحك، بالفعل. شرط أن لا يصير ذلك مقلقاً.

غضّن كويلهو حاجبيه.

- مقلق؟ لماذا[١]؟، لن تكون هي المرة الأولى التي يعمد فيها شخص من البلاط، ملك أو أمير، إلى اتخاذ عشيقة. وبيني وبينك، ليسوا قلة من يستطيعون مقاومة سحر دونا إيناس. إنها جوهرة خالصة، تلك الآنسة! عنقها! تلك البشرة!

تابع، حالِماً:

- أتساءل إن لم أجازف ذات مساء كي أجرّب حظّي. الجميلة لا تبدو شرسة. وأنت، ألفارو؟ ما قولك؟

- أعتقد أنه لحد الساعة، لا داعي للقلق. لكن أرى أيضاً أن الأمر يستحق المتابعة عن قرب. كلاكما يعرف رأيي في تينك المجرمَين، فرانسيسكو وخوان. إني أتحدث بالطبع عن أخوي

(١) بالاسبانية في الأصل: صديقي.



دونا إيناس. ليتني أصدق بأنهما لن يفكرا في استغلال الظرف ليصيرا حصاني طروادة. نعلم جيداً بأنهما لم يخفيا يوماً رغبتهما في إعادة البرتغال تحت السيادة القشتالية. حلم قديم يراود عقول البعض، منذ أكثر من ثلاثة قرون. لنتذكر كم كانت المعارك طاحنة، تلك التي تواجهت فيها المملكتان. وإن خانتنا الذاكرة، فلتتوجه أنظارنا شطر القلاع الخمسين التي شيدها الفقيد الملك دينيس، على طول الحدود.

اعترض الكاتب الخاص لألفونسو:

- غير معقول! منذ أن وقعت المملكتان على معاهدة ألكاسينس التي تضمن لكل طرف حدوده الترابية، فقد خفَّت حدة التوترات. حسب علمي، فإن دونا كونستانزا هي زوج دون بيدرو وليست تلك المرأة الشابة. حكماً عقلكما! إنها لا تملك ولن يكون لها أي نفوذ على الإنفانتي. من جهة أخرى، إذا كان قشتالة ما تزال تستهدفنا، لا شيء يمنعها من استخدام الزوجة الشرعية بدل العشيقة. أنا لا أفهم شيئاً من تخوفاتكما.

- عزيزي كويلهو، أجابه ديوغو باشيكو، مثلما شددت على الأمر في الحين، إن العقد بين دونا كونستانزا والإنفانتي هو عقد شرعي. لقد تم الاحتفال به لوقف كل الأطماع، من هذا الطرف أو من ذاك، وكف الشهوات. علاوة على ذلك، إن أبا كونستانزا لا تاثير له ولا سلطة داخل البلاط القشتالي. دون أن ننسى بأن رجل يضع الشرف فوق كل اعتبار. أبداً، لن يسمح باستخدام كريمته لتحقيق مكائد سياسية جهنمية. وبخلاف ذلك، فإن كتب التاريخ مسودة بقصص يحدث فيها للملوك أن يفضلوا ابنا لقيطا عل ابن شرعي. هل يجب علي تذكيرك بوقائع ليست بعيدة جداً عنا؟

- لقيط؟ كم إنك تشط! حسب آخر الأخبار، دونا إيناس ليست



حبلى!

- قد تصير كذلك.

- شأن دونا كونستانزا! عدا أنه يجب على كل منهما أن ترزق بمولود ذكر. وسوف يكون طويلاً حقاً ذلك الطريق الذي ينتهي باختيار الإنفانتي!

هز كويلهو رأسه مرات كثيرة.

- كلا. إن الحيرة تستبد بكما من أجل لا شيء.

مد باشيكو ساقيه وهو يسند رأسه إلى الجدار.

- نأمل أن يثبت المستقبل سداد رأيك.

تدخل كونسالفيس:

والملك؟ هل تريان أن من اللازم إخباره؟

هزت ضحكة خفيفة ديوغو باشيكو.

- لا تبالي. إذا واصل العاشقان الظهور بذلك النحو، لن يطول الوقت ليعرف بالأمر. وإذا سألتني رأيي، نظراً للمهانة العائلية التي أجبر جلالته على تجرعها في الماضي والتي نعلمها جميعاً، لا أجرؤ على تخيل رد فعله. ليست النار هي ما سوف يسلط على بيدرو، بل الصاعقة.

واقترح قائلا:

- في الوقت الحالي، أعرض عليكم الانتقال إلى موضوع اجتماعنا.

- القضية يوحنا، وافق كويلهو. ها هنا موضوع مهم مخالف لمغامرات أميرنا خارج فراش الزوجية. مساء البارحة، تحدثت إلى صاحب الجلالة. إنه يترك لنا كامل الحرية في التصرف. لكن، ألا ينبغي لنا انتظار صديقنا الساحر قبل مواصلة حديثنا؟ بعد كل شيء، أليس هو المحرض الأكبر على هذا المشروع؟

- لقد نسي نفسه، هو المنغمس كما العادة في كتب السحر التي له.



لنشرع من دونه. سوف نخبره لاحقاً بما قرّ عليه رأينا.

التفت صوب كونسالفيس.

- هل أفلحت في العثور على رجال جديرين بالثقة؟

- أجل. لقد جنّدت منهم ثلاثة. أحدهم، هنيبعل كفاكو، سبق له في الماضي أن أدّى لي خدمات بفعالية كبيرة. إنه شخص مثير. نادراً ما رأيت قاطع رؤوس بذلك القدر من الدقة والتربية مثله. إنه يتصرف بالسهولة نفسها وسط الأشراف أو الرعاع على السواء. كما تم الاتفاق عليه، سينطلقون من لشبونة نحو ماسيليا، ومنها إلى أفينيون. لقد جعلت في حوزتهم تصميماً للقصر الرسولي.

- نتمنى أن الرجل الذي نسعى خلفه ما يزال هناك.

- لماذا هذا التشاؤم؟ حسب رسائل عملائنا، كان ما يزال هناك منذ ثلاثة أسابيع، ما لم يكن قد مات في غضون ذلك...

قاطع كويلهو رئيس كتاب العدل.

- أو أنه علم بأمر ما...

- مستحيل! منذ عودته، وهو محبوس في المدينة البابوية، مقتصراً على الصلاة والتأمل. لقد مرّت عشرة أعوام. لا بد أنه يشعر بالأمان التام. لعله اقتنع بأننا غفلنا عنه. وهو محق في ذلك. علينا الإقرار بأن الحظ كان إلى جانبنا كثيراً.

- الحظ؟ هتف كونسالفيس. ما يقارب عشرة أعوام من التحقيق، وتجنيد جواسيس بسعر الذهب، في إيطاليا وفرنسا على السواء، والحصيلة نكسات وإحباطات!

همّ كويلهو بالرد عليه، لكن لم يسعفه الوقت. كان باب قاعة الخرائط البرتغالية قد انفتح، مفسحاً لبلتزار دو مونطالطو.

- عفوا عن التأخير. كان لابد لي من السهر على راحة ابن أخي طوال الليل، بأرايلوس. أصابته حمى خبيثة.



ألقى التحية بإيماءة سريعة وتهالك فوق مقعد بين كونسالفيس وباشيكو.

- لن يسعكم أبداً تخمين من صادفتُ في طريق العودة؟

بالنظر إلى ملامح المستشارين الثلاثة، فقد كانوا حتما يتوقعون الجواب.

- الإنفانتي بشحمه ولحمه! هتف بلثزار. هل تعلمون من كان يعدو إلى جانبه؟

في الحين، أضاءت الوجوه ابتسامة مستهزئة.

تعجب الساحر من أمرهم.

- أنتم على علم مسبق بالخبر؟

- فعلاً، رد عليه باشيكو.

- الأخبار تنتشر بسرعة. في هذه الحال، ربما تستطيعون إخباري من تكون المرأة. لم أفلح في تمييز ملامحها.

حرّك كونسالفيس رأس النسر الذي له قائلا:

- عنق البجعة. الجميلة إيناس دو كاسترو، إحدى وصيفات الإنفانتا.

رفع الساحر ذقنه، وقد شعر بالمهانة.

- أي نعم! أكد باشيكو. اللذة عمياء.

- إنه لأمر محزن، علّق بلثزار. لكني غير مستغرب لذلك. في أيامنا هذه ضاع معنى الشرف والفضيلة.

مطّ شفتيه بعبوس. ثم غمغم:

- أين وصلنا فيما يخص قضيتنا؟

- هذا ما كنا بصدده على وجه الضبط. غداً سوف ينطلق ثلاثة رجال قمنا بتجنيدهم إلى ماسيليا. وسيصلون إلى أفينيون في غضون عشرين يوماً على أقصى تقدير.

- وبعين المكان؟



- يلقون القبض على الفرانسيسكاني ويجبرونه على الكلام.
- وإن رفض؟ لقد حذرتكم، الرجل صعب المراس.

هزت قهقهة كرش كونسالفيس.

- إني أعرف رجالي. إنهم قادرون على جعل الحجر يئن.

غضن بلتزار جبينه.

- لا تفرط في يقينك، صديقي. أعرف رهطاً أجلد من الصخر. إذا كان هذا الفرانسيسكاني متشبثاً بسرّه، فقد يفضل الموت على أن يبوح به.
- لا مجال لقتله، تدارك كونسالفيس. العذاب سلاح أشد نجاعة من ذلك. من المؤكد، سوف يتكلم.
- وددت لو أصدقك. ينبغي علي تصديقك. من غير الوارد أن يفلت من بين أيدينا مرة أخرى. إني أنتظر هذا اليوم منذ زمن بعيد جداً. عشرة أعوام وليالِيّ مسكونة بذكرى هذا الرجل. هل فكرتم في الطريقة التي سوف يتسلل بها هؤلاء المحتالون إلى داخل المدينة البابوية؟
- متنكرين في زيّ الإخوة الأصاغر. أما البقية، فإنهم سوف يطبقون أوامري بالحرف.

استوى مونطالطو في جلسته على أريكته.

- فلْندع كي يتمّ كل شيء وفق المخطط له.

زمجر الساحر قائلا:

- يجب الإقرار مع أنفسكم، أنه إذا فشلنا هذه المرة، سوف يضيع كل شيء، يضيع إلى غير رجعة.

مونتيمور، ٢٥ ديسمبر

لم يسبق أن شهدت البلاد مثل هذا الحرّ إبّان أعياد الميلاد. شمس



حارقة أشد من أوقات الصيف تلهب هضاب الألنتيخو. أشجار السنديان الفليني وحقول الزيتون والكُروم كانت تختنق. والأمر أسوأ تحت قبة الكنيسة المجاورة للقصر. وكأنها حدائد حامية، اخترقت الأشعة نوافذ الزجاج الملونة وحولت جناح الكنيسة إلى موقد.

بلباسه الرسمي، كان ألفونسو الرابع يتصبب عرقاً. بين صلاتين، كانت الملكة وجُلُّ سيدات البلاط يجهدْنِ لتبريد وجوههن بضربات مروَحة، خفيفة ومستترة. وحدها دونا كونستانزا، الواقفة جنب دون بيدرو، بدت وكأنها تستحسن هذا الجحيم. كانت تحدث نفسها بأنها المرة الأول منذ مجيئها إلى البرتغال التي لم تشعر فيها بالبرد، وتساءلت في الحين تقريباً عما إذا كانت إيناس مصابة بالقرّ. منذ بداية القدّاس وهي تقاوم الرغبة في الالتفات. وصيفتها، هل كانت تسلط نظراتها على الإنفانتي؟ أم أن القدْرَ القليل من التقوى فرض عليها ترك كل خاطرة خاطئة عند فناء الكنيسة؟ هل كانت خاشعة في صلاتها أم أن ذهنها كان شارداً في أحلام يقظة لا يستحب ذكرها؟ كانت كونستانزا تتعذب. لكن ألم تخلق النساء إلا كي تتعذبن؟ أليس ذلك ما ربيت عليه منذ نعومة طفولتها؟ ألا يتمثل واجب كل مسيحية مخلصة في تحمل التضحية بنكران الذات؟

كما ترين، أنا قادم من بلاد الآباء فيها هم من يقرر سعادة أو شقوة أبنائهم. أسرة فلان تقرر قرن بنتها أو ولدها بأسرة علاّن. لا خيار لمن يهمهم الأمر. يفرض عليهما مصير لا مكان فيه للحب. المصلحة للحب. هذا أيضاً يسمى العبودية.

منذ حديثها مع البربري، تستحوذ هذه العبارات على ذهنها. بعد سكون الغضب، كيف يتسنى لها تجاهل كون هذه الكلمات لا تخلو من الصحة؟ في واقع الأمر، ماذا يمثل زواجهما غير لعبة تحالف؟ مثلما هي الحال دوماً. جدة دون بيدرو نفسها، القديسة إيزابيلا، ألم



تقترن بالملك دينيس وهي بالكاد تبلغ سن الاثنى عشر؟ ما الذي يعلمه المرء عن أمور الحب في تلك السن؟ ما الذي كانت تعلمه كونستانزا هي التي لم تخبر ولو ملامسة يد قبل ليلة العرس؟ ومع ذلك كانت تشعر أن إحساساً يهز قلبها، مثل البحر، أشبه بالمد والجزر. وخلال هذين الأسبوعين الأخيرين بالكاد لمحت زوجها، ورغم ذلك، تلك السويعات كانت كافية حتى يولد مزيج عجيب من المشاعر الخفية. ربما كان ذلك هو الحب؟ في كل الأحوال، لم يكن من الوارد أن تتخلى عن مكانتها. هي بنت دوق بينافييل! إنها قشتالية! ذات يوم سوف تصبح ملكة.

داعبت بطنها خلسة بينما كانت ابتسامة خفية تدبّ في شفتيها. عما قريب، سوف تجد خلاصها. الطفل الذي تحمله سوف يمحو عذاباتها. سيكون ولداً ذكراً، على الأقل إنها تأمل ذلك بكل ما أوتيت من قوة. في غضون أقل من تسعة أشهر، يصير بيدرو أباً، والنار التي تسعر هواه، ستنطفئ كي تحل مكانها في الحين نار شديدة على نحو مخالف. إلى أن يحين ذلك الأوان، صبراً، صبراً! الفرج قريب. إذ ولو ظهر أن هذه الولادة عاجزة عن كبح جماح زوجها، فهناك وسيلة أخرى. منذ عدة أيام اختمرت الفكرة في ذهن كونستانزا. الحيلة التي خطرت ببالها كانت لا تقبل الرد.

تسعة أشهر... تسعة أشهر ويؤول إليها بيدرو.

استنشقت نفَساً مديداً، وحاولت التركيز على القدّاس، بلا جدوى. تتزاحم الكثير من الأفكار في ذهنها. أي كسوة ستلبس هذا المساء في الحفل؟ كسوة الحرير الرقيق؟ وشعرها؟ أتعقصه؟ أم تجعله في ضفائر مثل صدف البحر؟ أي حلي؟ العقد الذهبي المزين بالأحجار الكريمة، هدية أبيها لها في عيد ميلادها العشرين؟ أم التاج، هدية دون بيدرو لها؟ قلادة اللؤلؤ التي تضم خصلة من شعر أمها المتوفاة؟ الأمر



المؤكد: سوف تتأنق في زينتها مثلما لم يسبق لها ذلك من قبل. إذا كان جمالها لا يستطيع مضاهاة جمال إيناس، فإن أناقتها، هي ما سيجلب لها النصر.

تسعة أشهر...

افينيون، في الساعة ذاتها.

كانت الحشود تتزاحم على امتداد شارع لاغراند فوستري، حيث كان رجال ونساء يتدافعون بالمناكب لمشاهدة الموكب البابوي. هكذا هي الحال كلما غادر الأب الأقدس المدينة أو عاد إليها. اليوم كان زعيم المسيحية عائداً من قلعته بمدينة سورغ.

تفتتح المسيرة بأربعة جياد بيض تمسك بها أيدي روّاض. يتبعها، على بعد خطوات، قسيس ملحق بالقصر وحملة السلاح يحملون الطيلسان والرماح التي وضعت على رؤوسها قبعات الأب الأقدس الثلاث الأرجوانية اللّون. وفي إثرهم يسير حلاّقاً البابا، في وقار، كل منهما يحمل حقيبة، حمراء اللون هي الأخرى. في إحداهما ملابس الحبر الأعظم، وفي أخراهما، التاج وعُلْبَتُه. كان شمّاس يرزح تحت ثقل صليب من الفضة بالكاد يرفعه نحو السماء الزرقاء. يسبق بغلا حمّل بوعاء خبز القربان المقدس. وفي الأخير، يلوح البابا. تحجبه مظلة يحملها ستة من الوجهاء، يلبس مسوحه السيسترسياني، كان بنيدكت الثاني عشر يثب على حصان أبيض. إلى جانبه سير حامل سلاح متأهب. المرجح أنه من بين الجميع هو من يضطلع بالمهمة الأكثر نفعاً. ألم يكن مكلفاً بالـmontatorium؟ المِرفع، من دون هذه المِرقاة، الراجح أن خليفة المسيح - وهو فارس رديء - لكان عاجزاً عن امتطاء فرس أو الترجل منه.

عند الطرف الأقصى من الموكب، في خاتمة المسيرة، نجد



حاجب البابا، رجال الكهنوت، أساقفة، قساوسة، مرشد البابا، الذي كان يَّعِدُ المارة برميهم قطعاً نقدية صغيرة بين الفينة والأخرى.

ارتسم بنيدكت الثاني عشر بشارة الصليب نحو الجموع، جاهداً إخفاء انزعاجه، دائماً الانزعاج نفسه، كلما عاد إلى مدينة أفينيون. نظر شزراً إلى الأرض التي انتشرت بها الحفر والبِرك النتنة. يكفي أن يسرع موكبه كي تلطخ المارة بالقاذورات. بكل تأكيد، تسرب المياه يظل هنا المشكل الرئيسي في هذه المدينة. ذات يوم سوف ينبغي حلّه. أفينيون، أقذر المدن، سيئة البنيان، غير مريحة، جحيم الأحياء، بالوعة الأرض. من بين كل المدن التي أعرفها، إنها الأشد نتانة! لو لم يكن ذلك المارق بِلُوتَارْخ هو صاحب هذا الوصف لكان بنيدكت قد أخذه على عاتقه. في واقع الأمر، من المرجح أن هذا الحكم الموجِع للشاعر التوسكاني إلا نتيجة إحباط أستبد به منذ عشرين عام خلت. حينما وقع ضحية ورطته مع آل غُوِيلْفا، أجبر على الهروب من فلورنسا قاصداً أفينيون. وما إن حلَّ هناك، لم يجد لنفسه مقاماً. ولا مسكن واحد. ولا حتى حجرة، بينما كانت المدينة تعج بالفنادق. والسبب وجيه، لقد كانت المساكن ضيقة إلى أقصى حد، فيها تزدحم أسر بأكملها، وعلى الأخص، منذ إقامة البابوية، فقد تضاعف عدد السكان تقريباً. من شدة غضبه، أكْرِه الشاعر على شد الرحال إلى كاربونتراس.. وعنَّ لبنيدكت أنه رغم ذلك كان عليه العودة عن عتابه. أو لم يتعرف في أفينيون على من شغفت قلبه طوال حياته، المسماة لورا دو نوفيس؟ لكن من المشهود به عن الشعراء أنهم ناكرون للمعروف.

كان الموكب قد وصل إلى مدخل القصر البابوي. انتزع صوت حامل السلاح البابا من خواطره، وبكثير من الحيطة، وضع رجله على المرقاة وترجل من فرسه.



يتبعه راعي الكنيسة والشماس والحلاقان، جاز باب المراعي، وعلى الفور دنا منه المونسنيور دو فونتناي. جثا الكاردينال بركبته على الأرض وبعدما لثم الخاتم البابوي قال مستفسراً:

- مرحباً، قداستكم، هل كانت رحلتكم موفقة؟

متعِبة، مثل كل الرحلات، حتى وإن لم تتعدد المسافة فرسخين. ماذا هناك؟

- ماذا تقصدون أيها الأب الأقدس؟

- ليس من عادتك أن تستقبلني، أستخلص من هذا أن لديك سبباً وجيهاً.

- أجل، أقصد أن الأمر ليس غاية في السوء.

استأنف البابا مسيره.

مُرَّ علي بعد حين، في حجرة الاستقبال. هناك شخص في انتظاري.

بعد ذلك بلحظات، عبر غرفة الطعام الكبيرة ثم دخل غرفة نومه. ما كاد يجتاز العتبة، حتى أضاء بريق الرضى عينيه. لقد كانت الرسومات التي تزين السقف وجدران غرفة فائقة الجمال. زخارف أشجار العنب والسنديان تلك، في خلفية زرقاء، تتخللها طيور وسناجب، كانت تستجيب بالضبط للأمنية التي أبداها. شبك يديه، مسروراً، وخاطب الرسام الذي باغته الأمر فاستعجل النزول من على منصَّته.

- لك كل تهنئتي، يا يوحنا، لقد أفلحت إذ تجاوزت توقعاتي.

انحنى يوحنا دالبون. وقد توردت وجنتاه من المتعة.

- أنا مسرور بأن ذلك نال إعجابك، أيها الأب الأقدس. للأسف، في وسعكم ملاحظة أنني لم أكمل عملي بعدُ. تفريج النافذتين ومقام الجدارين العالي.

- أرى ذلك حقاً. خذ وقتك. مع أنه ما أحوجنا للوقت. أحيانًا يخيل إلي أن الأشغال لن تنتهي وقد صرتُ هرِماً.



- لا تخشوا شيئاً. سوف يعينكم الرب. لقد حققتم الكثير من المنجزات. انظروا إذن! برج الكنز، توسعة مصلى القديسة إتيان، جناح المجمع، والحجرات الخاصة، وبرج الدراسة، والمصليات، والمجلس الكنسي، والمطابخ، وال...

رفع البابا يده.

- كفى! هذا الجرد يصيبني بالدوار.

ذرَّى نفَسه، ثم واصل طريقه نحو الباب.

- في كل الأحوال، إذا لم تكمل أشغالك قبل مماتي، فإن خلفي هو من سوف يسعد بذلك.

حينما ولج حجرة الاستقبال، تنفس الصعداء. حيَّا فونتناي بإيماءة من رأسه وتهالك فوق الكرسي الرسولي.

- إني متعَب، هتف وهو يخرج منديله من مسوحه البيترسياني.

- إني أتفهم قداستكم، هذه الأشغال...

- ليت الأمر يتعلق بها فحسب! معاقبة شطط المستخدَمين، وشطط الكهنوت الدنيوي، الحد من الخلافات بين ملك فرنسا وملك انجلترا. إصلاح علاقاتنا بإمبراطور بافاريا، مع تحمل وجود ألف عامل لا يتوقفون عن طرق جدران القصر من الفجر حتى غروب الشمس. لا شك أني نظرتُ إلى مهمتي باستخفاف.

قبل أن تتاح فرصة التعقيب للكاردينال، أسترسل:

- إذن، ماذا هناك؟

- الأمر يخص تلك السرقة.

- نعم؟

- لم نعثر بعد على الجاني، لكن أعتقد أنها مسألة أيام فحسب، لقد سمحت لنفسي بالاتصال بمسؤولي المؤسسة القضائية و...

- محكمة التفتيش؟



أجل، قداستكم تعلم جيداً أن هذه المؤسسة تمتلك شبكة هائلة من الجواسيس في فرنسا وإيطاليا واسبانيا على السواء. شبكة عنكبوت مثيرة نسجت خيوطها على امتداد ما يقارب مائتي عام والتي أثبتت جدارتها على نطاق واسع. لقد عمل رئيس الدير الفرانسيسكاني، الذي كان ينتمي إليه المدعو جيوسيبي كاردوتشي، على مدّنا بأوصاف مفصّلة للشخص، وفي ساعتنا هذه، الأوصاف بين أيدي جل جواسيس محكمة التفتيش. وأنا لا أشك في نجاعتهم.

أمّن البابا على كلامه بحركة من رأسه.

- عمل ممتاز، مونسينيور، لكني لا أشعر بأنك راض كل الرضا، أم تراني على خطأ؟

فعلاً، هناك أمر يزعجني. منذ سنوات معدودات، وقبل وفاته بقليل، تفضل سلفكم، قداسة يوحنا الثاني والعشرين باستضافة أخ راهب فرانسيسكاني. أوريليو كامبيني. وهو متحمس مثلما هو بديهي. لقد صرح الرجل بأنه فرَّ من روما بدعوى أن حياته كانت مهدَّدة من طرف آل كولونا.

- هل ما يزال يقيم بين ظهرانينا؟

- أجل، أيها الأب الأقدس. إنه يعيش في عزلة تقريباً. لا يبرح حجرته إلا للذهاب إلى قاعة الطعام أو لحضور القداس. ويرفض النوم فوق سرير مفضلاً عليه خشونة كومة من القش.

- إنه حقاً متزمت. لكن ما علاقة ذلك بقضيتنا؟

- قبل الوصول إلى أفينيون، كان كامبيني مسؤولاً عن أرشيفات لا تران.

علت ملامح الاهتمام على محياً البابا، شجع الكاردينال على بسط كلامه.



- منذ بضعة أيام، سألتُ الرجل سعياً مني للحصول على معلومات تخص جيوسيبي كاردوتشي الذي أذكرك بأنه كان هو الآخر فرانسيسكانيا ويقيم في الدير نفسه. بيد أنه من خلال طريقته في الرد عليّ، أو بالأحرى في التهرب، تولد عندي انطباع تام بأن كاميني كان يسعى إلى إخفاء أمر ما.

- أمر غريب. حسب علمي، ليس هو من سرق ملف الراهب يوحنا بما أننا نعرف الجاني. إضافة إلى ذلك، إذا لم يكن الأمر على هذه الحال، لا أدري كيف استطاع الفرانسيسكاني أن يكون يوم السرقة هنا وفي لاتران معاً. وها قد مضى عام وهو لم يغادر المدينة الأسقفية.

- بالطبع، ومع ذلك أنا مقتنع بأن كاميني لديه من المعلومات أكثر مما يصرح به.

- لنفترض أنك على حق. ما العمل؟

- الشروع، بعد إذنك في تفتيش حجرته. التأكد من أنه لا يحتفظ بأي وثيقة أو دليل قد يعيننا.

- وإذا لم نعثر على شيء؟

لوى الكاردينال شدقه خجلاً.

- لا أدري، أيها الأب الأقدس، ينبغي لي تدبر الأمر.

أغمض البابا عينيه وقد بدا عليه الإعياء فجأة.

- تدبر الأمر إذن، مونسينيور، واخبرني بما استجد.

ثم صرف الكاردينال بحركة واهنة من يده.

قصر مونتيمور، البرتغال.

كانت المشاعل تضيء قاعة الرقص بأنوارها الوهاجة. ومن الموقد تنبعث رائحة اللحم المشوي الشديدة والبقدونس العربي.



وهي تتوسط في جلستها إحدى المائدتين الكبيرتين التي لها شكل حرف تا اللاتيني، كانت الملكة بياتريس تراقب زوجها خلسة وقد انشرح صدرها لما لاحظت أنه رخيّ البال للمرة الأولى منذ أمد بعيد.. بل إنه تبادل بضع كلمات مع نجله من خلف كتف دونا كونستانزا. وشأن العاهل، بدت الإنفانتا رابطة الجأش هي الأخرى. مراراً خلال السَمر باغتتها بياتريس وهي تقهقه. أحدّت بصرها في الأمير. كان يبدو في مكان آخر. الظاهر أن شيئاً لم يتغير. ذلك المكان الآخر ألم يكن هنا، بين الوصيفات اللاتي تسجعن، وهن جالسات إلى المائدة الثانية في الطرف الأقصى من القاعة؟ ألا يتمثل في تلك المرأة الشابة الصامتة التي لها عنق البجعة والخدين من زنبق وورد؟ ذلك الاسم المهموس مرات عديدة، منذ بضعة أيام، على شفتي الأمير المحمومتان؟ *إيناس... إيناس...* بيدرو وهي؟ هل ذلك ممكن؟ ابنها طائش بكل ذلك القدر لخيانة عقيلته غداة زواجه؟ ما لم تكن نزوة عابرة، لحظة جنون. صوبت بياتريس نظراتها نحو الوصيفة وأحدَّت بصرها فيها طويلاً. كلا، للأسف، هذه الملامح، هذا النقاء ليست لمخلوق يعيش لحظات جنون. ينبعث منها قدر عظيم من المهابة. كتمت بياتريس تخوفاتها جاهدة الاقتناع بأن ليس في الأمر ما يسوء كثيراً.

عن يمين الملكة، يغشى النعاس كارلوس فالدفيز، سفير قشتالة، وقد شبع خمراً. أكرش، وجه مدوّر وأنف أفطس، وقد عنّ لبياتريس أنه كان أقرب الشبه بالخنزير - الثالث في ذلك السمر - الذي كان يعمل طاهي شاب على شيّه في الموقد. ولو أن مستشاري الملك لم يتكبدوا عناء التناوب في مخاطبة الرسول القشتالي بين فينة وأخرى، لكان الرجل قد انهار فوق المائدة، ورأسه في صحن حسوة القنبيط الأخضر، الساخن ما يزال والذي رشف منه بالكاد.

- أنا مسرورة، همست كونستانزا وهي تتكئ برأسها على كتف بيدرو.

وبمثابة جواب، أشار الأميرإلى جوقة الموسيقيين وسط القاعة.

- موسيقاهم تصدع الرأس، ألا تتفقين مع ذلك؟
- ليس تماماً.
- أنا أرى بأنها لا تطاق.
- أليست الموسيقى المناسبة ليوم عيد الميلاد؟
- لا ريب في ذلك.

كان أحد الموسيقيين، عازف القيثارة، قد دنا من مائدتهما. خلال لحظات معدودة تظاهر بيدرو بأنه معني بالمقطوعة التي كان يعزفها، ثم نادى عليه:

- ما اسمك؟

تمتم الرجل وقد بغته الأمر قليلاً:

- مانويل.
- أخبرني، مانويل، هل تستطيع عزف مقطوعة لرقصة فوليا folia؟

برّق الموسيقي بعينيه:

- عذراً، مولاي، هل قلت حقا: فوليا؟
- تماماً.
- هنا؟ الآن؟

أومأ بيدرو موافقاً.

- إنك لا تعني ذلك؟ صاحت كونستانزا، مذعورة. ذلك النوع من الرقص لا يليق بمثل هذا المكان! إنه يناسب العوام فحسب، إنه...

تعمد الإنفاتي تجاهلها.

- إذن؟ قال ملحّاً على عازف القيثارة.



ألقى الرجل نظرة زائغة حوله، لم يسبق له بتاتاً تخيل نظير هذا الطلب. ومثلما أكدت الإنفانتا على ذلك، فإن عزف رقصة الفوليا أمام مثل هذا الجمع، أمر لم يخطر ببال أحد. ذلك الإيقاع المجنون، وتلك الزوبعة من النغمات قد تعتَبَر مستفزة.

- اعزف! قال بيدرو آمراً.

ظهرت حبات من العرق على جبين عازف القيثارة. شهد لحظة تردد أخيرة قبل أن ينحني احتراماً.

- سمعاً وطاعة.

دار على عقبيه وخفَّ ناحية بقية الموسيقيين وشوهد وهو يوشوش. علت الوجوه ملامح عدم التصديق نفسها. وشوش مجدداً.، بعد هزة كتفين، أعطى قارع الطبل إشارة البدء.

مع النغمات الأوائل، خرست كل الأصوات.

ربما ما خلا سفير قشتالة، الذي انتُزع من نعاسه، فإن الجميع تعرف على الرقصة الجهنمية. شهوانية، مسعورة، متصاعدة، غمرت الموسيقى القاعة. عندها، نهض بيدرو بتؤدة، وصاحَب الإيقاع مصفقاً بيديه. كان وحيداً. أما الآخرون، ثابتون في أماكنهم، وقد كسى الحرج ملامحهم، فقد ظلوا لزق مقاعدهم. سارَقت بياتريس النظر إلى الملك. بدا من رخام.

- بيدرو، توقف! توسلت الإنفانتا.

بدل الامتثال، استدار نحو المرأة الشابة ومدّ لها يده.

- أقبلي... لا تخافي. هيًا نرقص. فلنشجعهم.

حركت رأسها يمنة ويسرة.

- كلا، هذا عمل غير محمود. اجلس، أرجوك.

غير مبال بها، تنحى عنها وطفق يصاحب الموسيقى من جديد، وهو يراوح بين رجليه راقصاً بين الفينة والأخرى. وبالتمعن في ملامحه، يخيل للمرء أن روحه كانت تغني.



نحنح السفير جرعة من حلقه. أحٌ بعض الضيوف. ولم يتزحزح الملك.

إذّاك سُمع تصفيق يدين يرد على يدي دون بيدرو. كان يصعد مِن أحد أركان حجرة الأكل.

وفي الحين توجهت الأنظار نحو مائدة الوصيفات. نهضت امرأة شابة لها جيد بجعة. والساعدان مرفوعان قليلاً بمحاذاة وجهها، كانت تصاحب الأمير بشكل جذاب بالضرب على كفّيها.

- من تكون؟ قال سفير قشتالة وقد اختنقت أنفاسه، مخاطباً ديوغو باشيكو.

- اسمها إيناس، فخامتكم. إيناس دو كاسترو.

- ابنة دون فرنانديث؟

أمّن باشيكو على كلامه.

- لكن ماذا تصنع هنا؟

- إنها مِن حاشية الإنفانتا. هي واحدة من وصيفاتها.

وكيفما كان شعور القشتالي، فإنه لم يُظهِر على ملامحه شيئاً، لكن باشيكو حدث نفسه بأن الرجل كان صَعِقاً بعض الشيء.

هناك، واصلت إيناس صفق يديها. ولم يعد بيدرو يصاحب إيقاع الموسيقى، وإنما إيقاع إيناس.

كونسالفيس الذي كان يلتهم المشهد بعينيه تساءل عما إذا كان ما يراه حقيقياً بالفعل. هذان الاثنان، هل هما مجنونان. كانت تحرقه بعينيها. كان يستنشقها. ألقى رئيس كتاب العدل نظرة خفية نحو دونا كونستانزا. وكأنه رأى طيفًا، لشدة ما كان الشحوب الذي غمر وجهها عظيماً.

أخذ الموسيقيون يعزفون بمزيد من الحماسة، بعد أن شجعهم تدخل الثاني. تسارع الإيقاع. كأنه انفجار موحَّد للغبطة والبهجة. وفي



اللحظة التي همَّ فيها بالتقدم نحو وسط القاعة تجلجل صوت العاهل:

- كفى!

متصباً، والعين تتميز من الغيظ، كرر ألفونسو:

- كفى!

وعمَّ الصمت. صمت ثقيل كأنه وعيد.

دار بيدرو على عقبيه صوب العاهل.

- هذ... هذه ليست سوى... سوى رقصة، يا أبي. ليست، ليست سوى رقصة.

نهقه أحد ما وقد أضحكته التأتأة.

صعق الملك الشخص المعني بنظرة منه.

- هذه الرقصة لا تعجب الملك!

مرَّت لحظة. واصل الرجلان ترصد بعضهما، ثم همس بيدرو:

- تفضلوا... بقبول... اعتذاري، يا أبي.

تلك هي اللحظة التي اختارتها كونستانزا للوثب خارج مقعدها. عبرت القاعة جرياً واختفت.




@3abeth

١١

- الحُمْق! الحُمْق! صاح ألفونسو وهو يذرع الحجرة طولاً وعرضاً وكأنه وحش.

تسمّر مكانه دفعة واحدة ثم غرز نظره في عين ابنه.

- كيف كانت لك الجرأة لتلحق بنا هذا العار؟
- أنا... أبي... أنا...
- أجبني!

جفّ حلق بيدرو تَوغّلت الكلمات في تلك الصحراء.

- أبي... لم أتخيل... لم أتخيل أن رقصة...
- كلا! إنها إهانة، وليست رقصة! إن أميراً لا ينهض كي يصفّق بيديه مثل أحط القرويين camponeses[١].
- قروي؟ وهل هذا مسيء للشرف، إلى ذلك الحد، و...

مرة أخرى تلك الكلمات التي ترفض الانبثاق.

- لم أتخيل...

دَعَك الملك لحيته بحركة سريعة.

- حينما تم العثور عليك، منذ أيام، ميتاً من السّكر، بعد أن أمضيتَ الليالي في مخالطة رعاع الناس، هنا أيضاً، لم تكن

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: قرويون، ريفيون.



تتخيل؟

رفع الإنفانتي جبينه.

- رعاع الناس... إنه شعبك... المملكة...

- كلا! المملكة هي الملِك! والشعب ليس إلا خادمه! إننا لا نخالط الخدم، بل نحكمهم!

عادة ألفونسو إلى ذرع الحجرة طولاً وعرضاً.

- أي صنف من الرجال أنت يا ترى؟ أنت، مستقبَلي.

تنهد.

- وعزلتي.

توقف من جديد وانطلق السؤال:

- من هي تلك المرأة؟

أطرق بيدرو.

- هل سمعتني؟ من هي؟

- إحدى وصيفات دونا كونستانزا.

- اسمها؟ لأنك تعرفه، أعتقد.

- إيناس دو كاسترو.

- خفّتها مثيرة للعجب، نسبة إلى واحدة من آل كاسترو!

- كلا!

صاح بيدرو، دون أن يفطن لذلك.

- كلا! كرر. لا ينبغي لك إساءة الحكم عليها! إنها... إنها...

وضع الملك قبضتا يديه المشدودتان على خاصرتيه.

- أكمل؟

من أي ثقب يستمد العبارات الصحيحة ويعثر على القوة لرصفها؟ وصار عقله في غمة من أمره، كم ودَّ الهروب من هذه الحجرة، من هذا الصوت الذي يطحنه.



- لا شيء، تمتم. لا شيء...

كانت ساقاه ترتجفان.

أشار إلى مقعد.

- هل تسمح لي...؟

وافق ألفونسو. نظر إلى ابنه بصرامة، وانصرف للجلوس بدوره. وقد زال عن ملامحه بعض من حدتها.

- كيف أفَهّمك، بيدرو؟

يخال المرء أنه يستجمع كل ما فيه من طاقة قبل أن يندفع:

- أنصت إلي. أتوسل إليك. أنت دون بيدرو. حفيد الملك دينيس والملك سانشو القشتالي. في دمك يجري التاجة والدورو. في نفسك نقشت شعارات نبالة وعظمة البرتغال. ألا ترى بأن مصيرك ليس في مِلكك، بل هو في خدمة الميراث؟ للأمير واجبات. اللعنة لماذا ترفض الخضوع لها؟

غضن الإنفانتي عينيه شيئاً ما.

- واجباتي؟ أي واجبات؟ تلك الموكولة للأمير أم للانسان؟ فيما يخص الانسان، هل تخلفت يوماً عن العمل بها قدر ما استطعت؟ أم تراني كنتُ ولداً خبيثا؟ هل امتنعت في أية لحظة عن تعلم ما كُلف به معلموك تلقيني إياه؟ إني أعرف عن ظهر قلب علم الخرائط، والحساب، واللغة اللاتينية، ومبادئ ماركوس أوريليوس. وعن ظهر قلب كذلك، المجسطي لبطليموس ومتاهته الفلكية. هل تلقيت يوماً شكوى، أو سمعت عتاباً من معلميّ عني؟ إني أحفظ أشعار والدك، وكذلك الأغاني التي تصفها بـ «الترانيم الهزيلة». لقد قرأت أكثر مما سبق لك قراءته. بلوتارخ وإبكتيت وأفلاطون هدهدوا لياليّ.

هزّ كتفيه:



- طبعاً. أمتطي الفرس، وحتى وإن كنتُ أتقن فن الأسلحة، فلا أقوم بالقنص. ما عـاي فعله؟ أن أنشب سهما في قلب غزال لا يشعرني سوى بالاشمئزاز.

اغترق نَفَساً مديداً.

- قد أكون أسأتُ فهمك. ربما قصد الحديث عن واجباتي كأمير، ولم تقصد واجباتي كإنسان.

- في نظري، هما سيّان، دون بيدرو.

- في هذه الحال، سامحني، أبي. لقد أخفقتُ.

انتفض الملك.

- أجل، استرسل بيدرو. لم أفِ بواجباتي كأمير. هل تلك غلطتي؟ لقد تلفظتَ منذ حين بكلمة «عزلة». أنت على صواب. إذ على هذا النحو تحكم الناس: في عزلة. أذكر إلى أبعد ما تسعفني الذاكرة، لم يسبق لك مطلقاً أن كلمتني في شؤون المملكة. لم أشارك قط بجانبك في اجتماعاتك بالمجلس. باشيكو، كونسالفيس، كويلهو، مونطالطو، هؤلاء هم الذين أنرتَهم، وليس ابنك! أما أنا فقد كنتَ تخبرني بأسفارك ومعاركك، لكن فحسب لتحذيري وإشعاري بموتك المحتمل.

شهق.

بئس الواجب الذي يتمثل في خوف المرء من موت أبيه...

كانت النافذة مفتوحة. في إطارها المظلم، شيئاً فشيئاً تدخل سماء المغيب.

- إنك غير منصف. لاحظَ العاهل. أو إنك...

سكتَ وتأمل قبل أن يتابع:

- الحياة متهكمة حقاً. منذ أيام قليلة، بينما كنتُ أتفقد مصنع السفن في موستيرو دو بليم، سألت بلثزار عن جدوى أو لا جدوى



إخبارك ببعض الأمور التي تخص بالتحديد شؤون المملكة.

حرك بيدرو رأسه يمنة ويسرة.

ألم يفت الأوان كثيراً يا ترى؟

يتعلق الأمر بمسألة بالغة الأهمية.

وما غايتي سوى إظهار أني جدير بثقتك.

- أظن أنه لا داعي لإخبارك بأن ما سوف أفضي به عليك يفرض السرية التامة. لا شيء، لا يجب أن تتسرب كلمة واحدة. هل تفهم قصدي؟

- بلا ريب.

رنَّ ناقوس صلاة التبشير.

قرَّب ألفونسو مقعده.

- من ضمن العلوم التي تعلمتَها ذكرتَ علم الخرائط...

ما إن جازت عتبة رواق الدير، حتى أمرت دونا كونستانزا وصيفاتها قائلة:

- انتظرنني في المصلّى، سوف ألحق بكن هناك بعد حين. ثم دعت إيناس بأن تتبعها.

- أقبلي!

كان المكان خالياً. نسمة عطرة تخترق أشجار الزيتون ولها همسة غدير.

تبعت الوصيفة سيدتها دون أن تنبس ببنت شفة إلى أقصى الروضة الصغيرة. كان قلبها يخفق بقوة. وكانت تستشعر سبب هذا الحديث الانفرادي. بيدرو. وإذا لم يكن هو، لماذا؟ لما رأت كونستانزا مقعداً من حجر جلست وأشارت إلى إيناس بالجلوس جنبها.

حول المرأتين الشابتين، بحر من العشب، وخليط من أوراق الشجر التي ترجف في الغروب.



فتحت الإنفانتا بضربة حادة مروحتها ذات الأجنحة المنقطة بصدف اللؤلؤ. وبدل استخدامها، تأملتها وهي مُطرِقة. ظلت على ذلك النحو، جامدة. واستبدت الحيرة أكثر بقلب إيناس.

وقررت كونستانزا في آخر المطاف الخروج عن صمتها.

- كنتِ صديقتي... تلك أولى كلماتها.

وافقت إيناس، وقد لوى وجع بطنها. بم ترد؟

- هل ما تزالين؟

- إني..

- كلا لا تقولي شيئاً. سؤالي سخيف. الرجال خبثاء، إيناس. والنساء مخادعات.

من المقصود بهذه العبارة؟ إيناس؟ بيدرو؟ الاثنان؟

- منذ مدة، تسري إشاعات بمونتيمور. لا بد أنها وصلتك.

- إشاعات، دونا كونستانزا؟

- أجل. سوداء وخسيسة مثل الليالي الخالية من الحب.

- إني... إني لا أفهم القصد.

- لأنك نقية، لأن الشر والنميمة هما أمران غريبان عنك. ومع ذلك... مع ذلك، هذا ما يحدث حقاً.

أغلقت كونستانزا مروحتها برصانة ثم وضعتها فوق فخديها.

- يقال - ألسنة السوء - يقال أن علاقة آثمة تجمع بينكما، بيدرو وأنت. وهذا غير صحيح طبعا!

وقد حبست بشدة يدي إيناس، تابعت بنبرة ملؤها التكلف:

- أوه! سامحيني! أرى أني جرحت مشاعرك. أولئك الذين ينقلون هذه التهم لا يعرفونك. يجهلون كل شيء عن نبلك، عن ولائك، عن عدم قدرتك على التصرف بمثل هذه الخسة. أنا على حق، أليس كذلك؟



يا إلهي! حدثت إيناس نفسها، وقد استبدت بها الحيرة تماماً، لكن أي حيلة تدبرها؟ لماذا؟ هل من الممكن أنها مغفلة؟ حدقت في مهدتها لعلها تميز الحق من الباطل، لكن استعصى عليها سبر أغوار مقاطيع المرأة الشابة.

أجل، أنا على حق، استأنفت الأميرة. إن مَن هي مِن آل كاسترو، قريبة السَّيد، لا تقدر على الخيانة. ولذلك، فإني أترك الكلاب تنبح والخبثاء ينفثون سُمَّهم. وأنا أنصحك بالعمل مثلي. لن نسمح لهذه الأشياء بأن تطالنا.

راقبت إيناس للتحقق من تأثير كلامها.

بالنظر إلى ملامحك، أرى مدى اضطرابك من هذا. اعذريني.

تعثر لسان إيناس:

أعذرك؟

كان شريان ينبض في صدغها.

- أنا! أنا من...

- أرجوك! علينا نسيان هذه الضغائن. أنصتي إلي بالأحرى. ولنتكلم عن السعادة. عندي لك خبر عظيم.

استقامت الإنفانتا في جلستها بينما شع بريق الفرح من حدقتيها.

- إني أنتظر مولودا!

شعرت إيناس بالأرض وهي تميد تحت قدميها.

- إنه... إنه خبر رائع.

- أليس كذلك؟ هذه الولادة سوف تكون أجمل يوم في حياتي. ولد، إن شاء الرب.

- دون بيدرو...

- ماذا إذن؟

- دون بيدرو على علم بالخبر؟



- ليس بعد. أنتِ أو من أخبرته بالأمر.

وأضافت في السياق نفسه:

- ليس هذا كل ما في الأمر. لدي خبر آخر، يخصك هذه المرة.

كانت إيناس على أهبة الاستعداد.

- إني أسمعك، دونا كونستانزا.

- سوف تكونين كافِلة طفلي.

- أنا؟

وكأن إعصاراً عصف للتو بنفسها.

- هذا غير ممكن، دونا كونستانزا!

- لماذا؟ ألستِ صديقتي؟

- أنا غير جديرة بهذا الشرف! اختاري شخصاً غيري. هناك دونا فليبا، دونا سيسيليا...

- سخافة! أنت الأقرب إلى قلبي وبكثير. لا ترفضي، أتوسل إليك.

الآن يهبّ الإعصار بقوة أشد.

قد ينظر إلى عرض الإنفانتا بأنه نعمة. في حقيقة الأمر، لم يكن كذلك بتاتاً. بتعيينها كافلة، فإن كونستانزا خلقت آصرة قرابة لا تندثر بينها ووصيفتها. صحيح أنها قرابة روحية، لكن سيتم تكريسها من لدن الكنيسة، وبها ستوثق مسؤولية أخلاقية تجاه الطفل المرتقبة ولادته.

شعرت إيناس وكأن الظلام قد اشتبك عليها.

- لا أستطيع، قالت متوسلة. أكرر ذلك، أنا غير جديرة بالشرف الذي تضفينه علي.

- كلا! صاحت الإنفانتا. يجب أن تقبلي بالأمر!

أمسكت وصيفتها من كتفيها.

- ألا تفهمين إذن؟ يجب قبول ذلك!

رغماً عنها، بلا شك، أخذت دموع تتلالأ في مقلتيها.



ماذا يجب علي فعله؟ أخبريني، إيناس؟ هل أركع؟ إذن فليكن!

أردفت كونستانزا القول بالفعل، واستسلمت للجثو عند قدمي وصيفتها. مذعورة، أسرعت هذه الأخيرة وأنهضتها.

دونا كونستانزا، الرحمة!

طيب، دون أي حركة. في هذه الحال، اهمسي لي بالكلمات.

بأي منها علي النطق بغية إقناعك؟

أضحت مجبرة على التصرف.

حسنا، قالت وقد جهشت نفسها للبكاء، أنا موافقة.

وفي الحين، أمسكت الإنفانتا وصيفتها وجذبتها نحوها.

سوف ترين، وشوشت، سيكون كل شيء على ما يرام.

لم تحر إيناس جواباً، ومع ذلك، ودّت أن تعوّل مثلما تعوّل رياح الشمال في بعض ليالي الشتاء فوق سهول قشتالة.

دونا كونستانزا!

رن صوت على بعد خطوات من المرأتين الشابتين. ولأن الانفانتا أخذت على حين غرة، أرخت ضمتها وتفحصت الخادم الذي نادى عليها منذ حين.

- ماذا هناك؟

أرسلني كبير الخدم. لقد حلَّ مسافران بالقصر. إنهما يطلبان لقاء دونا إيناس دي كاسترو.

- مسافران؟ من يكونان؟ سألته إيناس.

يتعلقَ الأمر بأخويك. السيدان فرانسيسكو وخوان.




@3abeth

١٢

لامست إيناس بإصبعها الجرح الذي يعلو حاجب عين أخيها.

- حادث قنص؟

- أجل. كاد أن يؤدي بعيني.

أشار إلى من اقتعد أريكة للتوّ.

- فرانسيسكو هو الذي أنقذني.

قال هذا الأخير مبتسماً:

- أليس هذا دور الأخ الأكبر؟

مدّ يده نحو إيناس.

- اقبلي، أُخيّة، اقتربي حتى أتملى طلعتك البهية. لقد افتقدناك.

امتثلت المرأة الشابة تلقائياً.

- إنك مشرقة على جاري العادة. الظاهر أن هواء البرتغال يناسب بشرتك. هل أنت سعيدة هنا؟

أومأت أن نعم برأسها.

هل كان ردها يعوزه الإقناع؟ أم أن فرانسيسكو كشف أثر دموع في عينيها؟ قبض حاجبيه.

- هل هناك شيء على غير ما يرام؟

- كل شيء تمام.

- هل أنت متأكدة؟ إذ لو أن أحداً سعى إلى مشاجرتك، لن ترددين



في إخبارنا، أليس كذلك؟

غيرت دفة الحديث.

- لم أتوقع أبداً رؤيتكما هنا. ما الذي جاء بكما إلى مونتيمور؟

بادر خوان إلى الرد عليها:

- الأعمال. مثلما هو الحال دوما. الحرب...

فزعت.

- الحرب؟ مرة أخرى؟

- هوّني عليك، ليس بيننا والبرتغال. كلا. لقد أخبرَنا مرتصدون بتحركات جنود موريسكيين في الجنوب. إننا لا نعلم نواياهم.

- أما آن لهذا الوضع أن ينتهي أبدا؟ قتلى، دم...

تدخل فرانسيسكو.

- هيًا! الحرب ليست موضوعاً يليق بالنساء. ولنتحدث بالأحرى عن عيشتك في البلاط. عن ذلك الزواج. هل أميرتنا راضية على زوجها.

أجابت إيناس متظاهرة بالتجرد:

- دون بيدرو زوج طيب. ولا أعتقد أن دونا كونستانزا ستعرف مصير دونا ماريا المحتوم.

ثم استفسرت بابتسامة ساخرة:

- أما يزال ملكنا يلهو دائماً مع ليونور غوزمان العزيزة تلك؟

اطلق فرانسيسكو ضحكة مدوية.

- أكثر من أي وقت مضى.

ثم أضاف بفتور:

- أليس الأهم هو حكم المملكة؟ إني...

قاطعه وصول خادم. إندسّ الرجل داخل الحجرة ثم وضع على المائدة صينية صفت عليها قارورة خمر وثلاثة أكواب.



هل يأمر سادتي بشيء آخر؟

بمثابة جواب، صرفه خوان بحركة من يده.

قال وقد أمسك بالغرافة:

لنشرب نخب لمّ شملنا. لنشرب نخب قشتالة.

- المعذرة، قال الخادم الذي توقف قبالة الموقد. توشك النار أن تنطفئ. إذا أمر سادتي، أستطيع وضع بعض الحطب.

افعل إذن! وافق خوان بلا مُبالاة. وبالمناسبة، أشعل الأضواء، إننا نكاد لا نبصر شيئاً هنا.

بينما كان الرجل منهمكاً في عمله، صبَّ خوان كأسا لإيناس وأخرى لأخيه.

احتجت المرأة الشابة.

- الخمر يصيب رأسي بالدَّوار.

- هيّا! ابذلي جهداً.

- جرعة واحدة لا غير.

بالكاد بلّلت شفتيها.

- كم من الوقت تقصدون البقاء في مونتيمور؟

- الوقت الكافي لمحادثة الملك، أجاب فرانسيسكو، وتسوية بعض الأعمال.

ألقى نظرة متواطئة نحو أخيه.

- أعمال بالغة الأهمية.

- يبدو أن الأسرار تكتنفكما...

بحركة من رأسه، ذكر بحضور الخادم.

- سوف نبين لك الأمور فيما بعد. اعلمي فحسب أنكِ...

انحنى صوب أخته وقال بصوت خفيض:

- ... معنية بالأمر مباشرة.



ألقت نحوه نظرة منبهرة.

- أنا؟

- فيما بعد، قال فرانسيسكو وهو يضع اصبعه على شفتيها.

مونتيمور، المساء نفسه

وهم جلوسٌ تحت قبّة قاعة الطعام، تضيئهم جمهرة من الشموع، كان الرهبان الستون المقيمون داخل أسوار القصر البابوي قد أوشكوا على الفراغ من طعام العشاء، مع غياب الكرادلة والأساقفة الملحوظ. ولهم العذر في ذلك. حيث كانوا يقيمون داخل المدينة نفسها، في ما يسمى «الهِبات»، وهي كلمة ملائمة تماماً بما أنها تدل على البيت الموهوب لرجال الكنيسة. كما أن هذا التفصيل كان جزءاً من قائمة أعمال السخرة الطويلة التي عمل أوريليو كامبيني على جردها بأناة. وهذا أول شيء أغضبه حين وصوله إلى أفينيون. إنها لفضيحة حقيقية، تلك الهبات، إذ لم تكن عبارة عن منزل واحد، بل منازل كثيرة تحت تصرف وجهاء الكنيسة. كيف يعقل أن كاردينالا واحداً يستحوذ على ثلاثين، بل خمسين منزلاً لوحده! كيف يقبل هذا الظلم الذي يحطّ على السكان الذين يؤمرون بإخلاء منازلهم في بضع ساعات، مقابل تعويض بئيس! إن الأمر أبعد بكثير من تعاليم فرانسوا الأسيزي، أبعد بكثير من «نذور الفقر». الكنيسة تتخم نفسها وتتقلب في النعيم والوحل! وغدا هذا القصر رمزاً للانحطاط. في العمق، كان دانتي محقاً حينما وصف هذا المكان بـ «مجمع الشياطين»!

- هل أفسد عليك خلوتك، أخ كاميني؟

ظل الفرانسيسكاني صعِقاً هو الذي كان يهمّ بحمل الملعقة إلى فمه، وظلت يده معلقة في الهواء.

- مونسنيور دو فنتناي؟ أنتم هنا؟



- أتفهم استغرابك، لكن حدث أني هذا المساء لم يعد لي من القوة للعودة إلى بيتي. إنك لا تستطيع تخيل التعب الذي نشعر به بعد يوم من الكدّ.

وبكل بساطة، طلب الكاردينال من جار كامبيني أن يفسح له في المكان قليلاً.

- ماذا قُدِّم لكم؟ استخبر بالبساطة ذاتها، إني أموت من شدة الجوع.

ازدرد الفرانسيسكاني ريقه قبل أن يتمتم:

- حسوة... ودجاج.

- عظيم! هذه وليمة حقيقية. كما ترى، إننا نأكل بإفراط.

ربّت الكاردينال على بطنه المدوَّر.

- تقدم السنّ لا يعين في شيء، بالأسف.

أشار بسبابته إلى الصحن المقعر الموضوع قبالة الفرانسيسكاني.

- لم تتناول الدجاج؟ أنت مخطئ. بين الزهد والمتعة هناك عالم بأكمله. ألا تظن ذلك؟

- إني... إني لم أفكر في الأمر. لا شك.

كان دماغ كامبيني يغلي. إن حضور الكاردينال المباغت له مغزاه. ساله بتهكم.

- أين يقع بيتكم الموهوب، أيها المبجل؟

- خلف ساحة الشامبو. لماذا؟

عض الفرانسيسكاني شفته السفلى. الساحة المومأ إليها كانت محاذية تقريباً للناحية السفلى من القصر. إذن لا أساس للمبرر الذي ساقه الكاردينال. ماذا يقع إذن؟ ماذا يريد منه بعد؟

قال: من باب الفضول فحسب، كنت أظن أنك تقيم خارج الاسوار، أو على الضفة الأخرى، ماوراء جسر القديس بِنيزي. هناك تم تشييد الكثير من البنايات.



- أنت على حق. لا تكف المديد عن الاتساع. لكن كلا، كنتُ محظوظاً بالحصول على هبة داخل الأسوار. ثم...

توقف الكاردينال عن الكلام للمناداة على الخادم الذي كان يهمّ بجمع صحن كاميني.

- إن لم يكن قد فات الأوان كثيراً، سوف أكون ممتناً لك إن أحضرت لي جناح لحم الدجاج.

ثم بالعودة إلى كامبيني سأله:

- ماذا قلت؟

غضّن الفرانسيسكاني جبينه.

- يبدو لي أنك أنت من تحدث عن حظوظه...

- صحيح! أين تاه عقلي!

هذه المرة لا مجال للشك. شيء ما يحاك ضده. لكن ماذا يكون؟ هل وصل خبر من روما؟ هل تم العثور على جيوسيبي كاردوتشي؟ مَا لَمْ...

وهو مستغرق في همومه، لم يكن في وسع كاميني تصور أن جاره كان يعاني بدوره من أهوال الذعر، لكن لأسباب مغايرة. في تلك اللحظة بالذات، وبأمر من الكاردينال، كان قسّ شاب في الخدمة يقوم بتفتيش حجرة الفرانسيسكاني. لو شاء الرب لقادنا هذا التصرف إلى طريق ما! كان فونتناي يشقي نفسه.

- مونسنيور، اسمح لي بالانصراف.

نهض كامبيني بغتة.

- أو تتركني؟ قال الثاني مذعوراً.

- أحس بالتعب قليلاً، تجاوز لي.

- تمهل بعض الشيء!

وبقي الطلب بلا صدى.



كان لابد للكاردينال من جهد يفوق ما يطيقه البشر حتى لا يمشي لي عقبه. وبعد أن فقد كل رجاء، ارتسم بشارة الصليب خفية وردد دعاء.

نظراً لتسرعه، كاد كاميني أن يكسر قفل بابه. كانت يده ترتعش. بل جسمه بكامله يرتعش. ما إن دخل الحجرة، أغلق المصك بقوة أوشكت أن تخلعه من مكانه. وقف وسط الغرفة، حبس أنفاسه وجال ببصره من حوله. بدأ كل شيء في مكانه. ورغم ذلك...

سار خطوة إلى الأمام، لامس طرف الشمعة الموضوعة جنب المركع. أسفل الفتيلة كان الشمع دافئاً ورخواً. حينها زاغ بصره، خفّ ناحية فرشته، رفعها ثم رماها على الجدار المقابل. جاثياً على البلاط، غرز أظافيره في فرجة بين سيكتين مصبوغتين رسمت عليهما أسماك. كان لا بد له من الضغط مرات كثيرة قبل أن يفلح في رفع إحداهما.

- حمداً للرب! صاح، وكاد يغشى عليه.

أمام ناظريه يبدو غلاف مهلهل من جلد الماعز.

ردد:

- حمداً للرب...

استلقى على الأرض عن طيبة خاطر، وخده سوية البلاط.

قصر مونتيمور، البرتغال

صار جسم بيدرو بركاناً، وغدا جسم إيناس جمماً مُذابة. في انجرافهما الناري، كل ذرة في جسدهما أضحت بؤرة للذة مشعة. لم تكن تلك مطارحة للغرام، بل رقصة، إن لم تكن معركة من تلك المعارك التي يخوضها الأطفال حينما يواجهون أهوال الليل الزاحف.

- كم أحبك، صاحت إيناس وهي تحبس بيدرو بين ملزم فخذيها



المرمري. كانت تمسكه، لكنه كان هو سجّانها.

الغريب أن أنّات اللذة التي تبثها المرأة الشابة كانت موقعة بجمل غير تامة تعبر عن الخوف والخطايا والمحرمات، بينما حيطان مونتيمور كانت تسمع كل تنهدات الليل تلك.

ماذا سيحل بنا، يا بيدرو؟ لا يحق لي. لا ينبغي لنا أبداً. احببني متى تفارقني؟ هل ستفارقني؟ أبداً. قل لي، أبداً.

تلك كانت عبارة عن سربندة من الكلمات التي تستعجل الزمن حتى يفسح المجال لسعادة تلهث.

حينما انهار جسد بيدرو فوقها، ظننت أنه الموت من شدة لذة الامتزاج تماماً بكِفَافِ جسدها.

بعد صمت مديد، أعادت السؤال، هذه المرة وقد تحكمت كلياً في ما عنَّ لها:

- ماذا سيحل بنا؟
- لم أكن أعلم بخصوص الطفل. أنت تصديقني، أليس كذلك؟ (ثم استدرك:) أجل، إني أعلم بذلك. أخبرتك كونستانزا بالأمر. يجب أن أكون سعيداً؟ المفروض أن أكون كذلك؟ أليس هذا هو الشعور الذي يناسب رجلاً يخبر بأنه سوف يصير أباً؟ إذن، لماذا لا أستطيع الاحساس سوى بالحيرة، وبانقباض في القلب؟

أمسكت بيده ورفعتها حتى خدها.

- هذا أمر غير محمود. من الآن فصاعدا، يجب أن تكون كونستانزا هي محور حياتك. إني أترك لها المجال. سوف أرجع إلى قشتالة.
- كلا! إن رحلْتِ، تبعتُك. سوف أتبعك أنى ذهبتِ. وحيث مقامك، مقامي.

ابتعدت عنه. تغيرت سحنتها دفعة واحدة، يخال المرء أنها رأت شبحاً بمكان ما، في الغبس الذي غمر الحجرة.



ألا تفهم إذن؟ صاحت به. هذا مستحيل!

نفرّسها، مشدوها، لم يسبق له أبداً أن رآها بتلك الملامح.

شهقت:

- انتهى الأمر. انتهى، بيدرو. لا استطيع الخوض أكثر في الخطيئة.
- جيد، قال بصوت أجش. إذن، سوف أطرح عليك بدوري السؤال: ماذا سيحل بنا؟
- فيما يخصني، سأموت يومياً شيئاً فشيئاً.

شد قبضته حتى ازرقت سلامياته.

- وأنا؟ هل تحسبين أني سأظل على قيد الحياة؟ أحبك. لا تطلبي مني إغلاق كتاب بالكاد فتحناه. أتوسل إليك، إيناس. هل نسيتِ الكلمات التي كتبتها إليك؟ أوَنسيتنها؟

تلت بصوت مكسور:

إني أحببتك حتى قبل أن أعلم بوجودك. أحبك مثلما يحب المرء السعادة والأمل والنهار الطالع.

- إنها ليست عبارات فحسب. هذا دمي. لا أستطيع نفي ذاتي بذاتي.
- في هذه الحال، هل تفضل أن أواصل الغوص في العار؟ ألم أخطئ مقدماً، وخرقت كل القواعد التي نشأت عليها منذ طفولتي؟ أنت وأنا، لا غيرنا يعلم نقاء ما يجمعنا. لكن الآخرين؟ كن رحيماً بي، بيدرو، خلصني من نفسي، أتوسل إليك.

جلس على حافة الفراش، شدّ على رأسه بيديه.

داخل الحجرة يتسرب ضياء النجوم الأمغر. توقف الزمن عن الجري. شأن إيناس، هو الآخر بدا وكأنه ينتظر.

بعد لحظة لا نهاية لها، ألقى بصره نحوها.

- العار. لن أطيق أبداً حمل رؤيتك مهانة. هل تكون أنانيتي أقوى من حبي؟ أم أن الخوف من فقدك هو ما يقودني؟ لم أعد أدري شيئاً.



بدا وكأنه ينهار.

- إني أنحني لطلبك، لكن لحمايتك فحسب، سوف أرحل. سوف أهجر مونتيمور.

قال ذلك دفعة واحدة وكأنه خشي من أن يتوقف قلبه عن النبض قبل إتمام جملته.

- لماذا ترحل؟ وإلى أين؟

- إيناس، حبيبتي. هل يمكن لك تصور أني قادر على البقاء هنا وأنا أعلم بأنك على بعد نفَس مني ولا تصلك يداي؟ هل يسعك تخيل أن في مقدوري اللقاء بك يوماً بعد يوم وأشيح بناظري عنك كل مرة حتى لا أصير رمادا؟ لا خيار لدي. يجب أن أرحل.

- كي تنساني؟

طرحت السؤال وقد استبد بها الذعر مقدِّما بأن يرد قائلاً «نعم».

- أنساك؟

ثم ارتمى في حضنها.

- أنساك؟ قال مكرراً. إذن يستوي نسيانك عندي مع نسيان أني نجل ألفونسو وبياتريس. وإنكار أن التاجة يجري نحو البحر، وأن هناك أربعة فصول. لقد أخبرتك بذلك. إن قبلتُ هجرك فذلك لحمايتك، حتى لا تتم الإساءة في الحكم عليك. لا تطلبي مني أكثر من ذلك.

كانت ترتعد.

- لا أدري من أين حلَّ عليَّ ما شعرتُ به منذ اليوم الأول، حينما صادفت عينيَّ عيناك، لا أدري السبيل لتفسير مثل هذه الأمور، كل هذا القدر من العنف، وذلك اليقين بأني لم أكن يوماً مِلْكاً لغيرك. أعرف فقط أنك لو نسيتني، سوف أموت ببطء. هل سبق لك أن رأيت شجرة ميتة يا بيدرو؟ سوف أشبه تلك الشجرة.

وهو يهم بالرد، قالت أيضا :



- أجل، كل شيء يتخبط في ذهني. إني أغرق. يجب أن تكون قوياً من أجل اثنين.

- سوف أحاول.

حينما أوصد الباب خلفه، انكمشت على نفسها، ركبتاها تسندان ذقنها. ها قد أصبحت تبلغ ألف سنة.

إلى أين أنت ذاهب، دون بيدرو؟

لا مرفأ للذين يتعذبون، لا ملجأ يحمي من الموت.

إلى أين أنت ذاهب، دون بيدرو؟

هل تظن أن الدنيا واسعة بما يكفي لتضلّ فيها؟ والنهر جائر بما يكفي ليحضنك في مهده؟ أين تجد السكينة؟ ها أنت تمتطي فرسك، والغبار المتطاير من عدوها يخلف نثاراً من الذهب على ضوء النجوم. لكن هذا الذهب يشبه العبرات. إلى أين أنت ذاهب؟ هنا مملكتك في هذه الحجرة التي هجرتها تواً. وليست في أي مكان آخر. من لشبونة إلى بورتيماو، ومن كويمبرة إلى إشبيلية، أنّىٰ ذهبتَ، لن تبصر غيرها. في كل امرأة، سوف تظن أنك تتعرف عليها، في كل ضحكة تسمع ضحكها. وإن صادفتَ في طريقك رجالاً يبكون، سوف تحدث نفسك بأنهم يبكون لأنهم لم يعرفوا إيناس.

تذكر كلمات العجوز الحمقاء، تلك الليلة حينما سكرت في إيفورا بينما كانت تُقرع الطبول.

«!Até ao fim do mundo»

حتى نهاية العالم.

قل لي، دون بيدرو، إلى أين أنت ذاهب؟

أطلّ مصالاً من شرفة حجرته. رأى فارساً يعدو في الليل سريعاً. ومضى قدماً.




@3abeth

١٣

مر أسبوع، فأسبوعين، ثم ثلاثة أسابيع. لا أحد كان يعلم ما حلَّ بدون بيدرو. يوم رحيله بالضبط، تم إرسال خادم للبحث عن مصالا طمعاً في أن يكون البربري على علم بأمر ما. لكن كلا، مصالا اختفى هو أيضاً.

للوهلة الأولى، حين علم بالخبر، ظل الملك جامداً كالصخر. لكن كانت تلوح عليه أمارات إحباط عظيم. وإذ صمَّ أذنيه دون توسلات الملكة، فقد رفض جازماً إرسال زمرة من الكشافين لاقتفاء أثر ابنه.

وها قد دخل الأسبوع الرابع الآن. وبعد الذعر الذي خلفه اختفاء الانفانتي، جاءت أخبار محيِّرة تخص أمن شبه الجزيرة، وبالتالي البرتغال. لقد أكد طليعة برتغاليون الأخبار المنقولة عن أخوي إيناس في مونتيمور. جيوش موريسكيون يزحفون فعلاً على وَلْبة، وهم بذلك على بعد ثلاثين فرسخاً من الحدود. جنون محض! صاح ضباط ألفونسو الرابع. منذ هزيمتهم في معركة صالادو لم تعد الجيوش المسلمة في حال يسمح لها بخوض مثل هذه المغامرة. ثم ألم يتم توقيع معاهدة الجزية بين أمير غرناطة وقشتالة؟ وبالنظر إلى الضعف الذي صار إليه، لن يخاطر يوسف الأول بخرقها. إذن؟ من أين تأتي هذه الجيوش؟ ما هو هدفها؟ للإجابة عن هذه الأسئلة أخذ عاتقه على



نفسه إرسال أخوي إيناس إلى قشتالة وكلفهما بمهمة استطلاع الأمر أكثر. وبالفعل، من غير القشتاليين في موقع أفضل لاكتشاف ما يحاك في الأندلس؟ بفضل الحصون التي شيدوها حول اشبيلية، على خط يمتد من قرطبة إلى جيّان، لا شيء مما يحدث في مملكة غرناطة يمر دون علمهم.

دعا الخادم الأخوين إلى دخول قاعة المجلس. باشيكو، كونسالفيس وكويلهو كانوا هناك مقدماً. الجميع في انتظار الملك.

أشار باشيكو إلى القشتاليَّيْن بالجلوس. قاما بتحية المستشارين الذين ردوا التحية ببرود، باستثناء كونسالفيس الذي تجاهلهما بكل بساطة. لم يكن رئيس كتاب العدل ينظر بعين الرضا لحضور هذين الرجلين اللذان لزما الحاشية منذ ما يقارب عشرين يوماً. إنه ما يزال يحفظ ذكرى العراك مع فرانسيسكو، والحذر منه ظل ثابتاً. بل إنه اشتد منذ أن اخبره الرجل المكلف بمراقبة الأنفانتي وعشيقته بحديث أقل ما يمكن أن يقال عنه إنه غامض. لقد جرى الحديث في اليوم نفسه الذي صادف وصول القشتاليَيْن. «كم من الوقت تقصدون البقاء في مونتيمور؟ سألتهما أختهما، ـ الوقت الكافي لتسوية بعض الأمور»، أجاب أحد الأخوين. الذي أكد: «أعمال بالغة الأهمية. اعلمي فحسب أنك معنية بالأمر مباشرة».

نظراً إلى العالقات التي كان تجمع دون بيدرو وتلك المرأة، هناك بالتأكيد ما يدعو للقلق. لكن ومع ذلك، بعض الكلمات المتبادلة، وشيء من الحدس لا تبرر إنذار الملك بالأمر. من الأفضل التريث؛ لاسيما أنه لحد الساعة توجد الحسناء إيناس في وضع لا ترجي معه نفعاً. منذ هروب عشيقها ـ الذي لم يفهم أحد بخصوصه شيئاً ـ بدت وكأنها ميتة. لم تعد تبرح حجرتها، ما عدا لحضور صلاة التبشير. وبعض الأيام كانت تختفي عن الأنظار. والمفارقة أن هذا الوضع غيَّر



حال الإنفانتا. لم يسبق أبداً أن بدت بذلك القدر من الإشراق، والتفتح. كلما ذبلت وصيفتها، كلما تفتحت دونا كونستانزا على الحياة. وهذا ما يذكر كونسالفيس بعبارة قالتها ذات يوم سيدة من الحاشية، سيدة عجوز حادة الطباع، هي دونا ديوليندا: «اعلم أيها السيد، أن المرأة تفضل العيش بصفتها أرملة على أن تكون مهجورة». لا شك أن دونا كونستانزا تدخل في طائفة تلك النسوة. لكن من المرجح أيضاً أن سبب هذا التحول يجد تبريره في المولود الذي نترقبه. إن كان ولداً فإن انتصار الإنفانتا سيكون انتصاراً تاماً. ما الذي أصاب دون بيدرو إذن؟ ولماذا اختفى عبده كذلك؟

وضع قدوم الملك حدّاً لهواجس كونسالفيس.

جلس ألفونسو إلى أقصى الطاولة، وسأل في الحين القشتالي الأكبر بين الأخوين.

- إذن؟ هل استطعت الحصول على توضيحات عما يُدبَّر في الأندلس؟
- أجل، مولاي، حسب الأخبار، يتعلق الأمر بكتيبة تتكون من منشقين ناصريين يعارضون معاهدة الجزية الموقعة بيننا والسلطان يوسف. حسب آخر الأنباء، لقد أقاموا معسكراً بضواحي الكتيم.
- الكتيم؟ لكنها على مرمى حجر من حدودنا الجنوبية؟
- حدودكم، صوَّب فرانسيسكو.
- لكن العدو يتحرك فوق أرض هي تحت مراقبتكم، صحح ألفونسو. ماهي نوايا صهري؟

لقد أوكل إلينا جلالته مهمة إخباركم بأنه لا يرى نفعاً للتدخل.

ثم ضحك ضحكة مقتضبة.

- إنكم تعرفون بالتأكيد المثل البرتغالي، يا مولاي: «Em briga de branco negro nao se mete». في نظر عاهلنا، يتعلق الأمر بشأن داخلي يخص مملكة غرناطة. لا حاجة للتدخل فيه.



- شأن داخلي؟ بين هؤلاء الرجال ربما يستعدون لاختراق حدود البرتغال؟

رد فرانسيسكو، والتأثر غير بادٍ عليه:

- بالضبط، هذا ما نبهت جلالتكم إليه. الأمر يخص البرتغال وليس قشتالة.

- وأنا أكرر لك بأن هذه الجيوش سواء كانت منشقة أم لم، فإنه ينبغي دحرها من طرف رجالكم! مثلما ذكرتَ ذلك منذ قليل، لقد تم التوقيع على معاهدة بينكم وسلطان غرناطة. وهذه المعاهدة تم نكثها. إنك لا تقصد رغم كل شيء بأننا نحن من عليه الحرص على أن تحترم معاهدة لا علاقة لنا بها؟

أومأ القشتالي برأسه مُظهراً أمارة تَفَهُّم زائف.

- إني أدرك جيداً وجهة نظركم. إلا أن...

- كفى تملّقاً! أمر ألفونسو دون كياسة. سوف أسوي هنا القضية كما يبدو لي. لكن ينبغي أن تنبه صهري العزيز إلى أنه حينما التمس مني العون في طريف، حينما كان فيه جيش «السلطان الأكحل» يهدد مباشرة مصالح قشتالة وليون، لا أتذكر بأن جوابي كان هو القول: «إن الأمر يتعلق بشأن داخلي».

عمَّ صمت مطبق بعد حديث العاهل البرتغالي.

أشار إلى الخادم بأن يأتيه بالشراب. ثم سأل: متى تنويان العودة إلى برغش؟

- في الأيام المقبلة، مولاي، أجاب خوان مداعباً ندبته.

- حسب علمي، قال كونسالفيس، لم يعد هناك شيء يستلزم بقاءكما هنا.

- عداك فيه الصواب، قال خوان معترضاً. هناك أختنا إيناس.



تعلمون بأن حالتها الصحية حرجة، إنها في حاجة ماسة إلى وجودنا بالقرب منها، وبهذا الخصوص...

خاطب خوان الملك بنبرة فيها لطف متكلف.

- يخبركم جلالته ألفونسو بأنه منشغل جداً ـ يبحث عن الكلمة المناسبة ـ بسعادة دونا كونستانزا. إنه قلق كثيراً عنها منذ أن علم بأن المولى دون بيدرو...
- قل له أن يطمئن! الإنفانتا في أبهى أحوالها. لم يسبق أبداً أن كانت بهذا القدر من السرور.
- ذلك أفضل. لكن هل لديكم أخبار عن زوجها؟
- ما زوجها إلا ابني! وما يصنعه ابني...

عن قصد، ترك جملته معلقة حتى يختم بالقول:

- شأن داخلي...

وبنبرة قاطعة، ختم آمراً:

- سوف أملي رسالة إلى صهري، تتكفل بحملها إليه. يمكنك الانصراف.

ما كاد الرجلان يغادران القاعة حتى هتف كونسالفيس:

- عقربان!
- هدوء! زمجر العاهل. لا أريد الدخول في صراع جديد مع جيراننا. ثلاث سنوات عجاف من الحرب كانت كافية ويزيد.

تناول قدح الشراب الذي وضع أمامه توّاً، وأخذ منه جرعة. اكتسحت وجهه علامات القلق. يخال المرء أنه شعر بغتة بالحرج من الكلام. وعيناه تحدقان في القدح، سأل بصوت عال:

- هل من جديد؟

تبادل المستشارون نظرة حذرة.

- جديد، جلالتكم؟ استخبره باشيكو، هل تقصدون الحديث عن أفنيون؟



- كلا. أعرف أن رجالكم وصلوا إلى وجهتهم. سنرى ما سيتمخض عن ذلك.

شرب جرعة أخرى.

- كتيتان من الفرسان شدت الرحال أمس صباحاً، أليس كذلك؟
- مؤكد هتف باشيكو الذي أدرك الغاية. مثلما أمرتم...
- لم آمر بشيء! لم أفعل سوى الاستسلام لتوسلات الملكة.
- هه...، أجل، جلالتكم.
- وعليه؟
- ما يزال المولى بيدرو مختفياً. ولا أثر لخادمه أيضاً. لا داعي للخوف. سوف نعثر عليهما.

رد الملك بازدراء.

- الخوف؟ احتفظ بهذه النصيحة للملكة... إنه ابنها!

خبط المائدة بقدحه.

- آه! يالإحساس الأمومة اللايحتمل الذي يغفر كل شيء! اتركوني اللحظة. أنا في حاجة لأظل وحدي.

بحركة واحدة، نهض المستشارون الثلاثة وقصدوا الباب.

- أخبروني إن جدَّ جديد! صاح ألفونسو.

وبعد أن أُغلِق الباب فقط، همس:

- إنه ابني كذلك...

رأس القديس فانسان، أقصى جنوب الغرب.

هنا تنتهي الأرض. هنا أنف الجبل المقدس. هنا يبتدئ أقصى العالم.

متكئة على الأطلسي، كانت الأجراف تنتصب نحو السماء غير آبهة بهجوم الأمواج المتتابع. أحياناً تهب الريح وتدور في الأرض. جراء تلك اليد الخفية، تسارع زوال الغيوم القليلة مفسحاً المجال لفضاءات زرق.



جالس على صخرة، وقد اسودت وجنتاه بشعر اللحية، وبحته السقيمة، قال بيدرو بغتة مخاطباً مصالا:

- هل تعلم أن بهذا المكان، منذ أكثر من ألف سنة، قام بعض النصارى بدفن القديس فانسان، حامي المملكة؟
- كنتُ أجهل ذلك.
- لقد مات شهيد، اغتاله الرومان.
- كنتُ أجهل ذلك أيضاً.
- إنها قصة عجيبة حقاً. ومع أنها طويلة شيئاً ما، فإنها مفيدة.
- لا يهم ذلك كثيراً، قال مصالا. لن تبدو لي أطول من هذه الأيام الخمسة عشر التي قضيتها في الاستماع إلى صوت الريح.
- حدث ذلك في عهد الاحتلال الروماني. كان القديس فانسان حينها هو شماس فَاليرْ، أسقف سرقسطة. ولما كان يتكلم بيُسر أكثر من رئيسه، هذا الذي كان في نظري تَمْتاما فقد أوكل إليه الأسقف مهمة الوعظ، وتفرغ للعبادة والتأمل. ذات صباح، تم اعتقال الرجلين بأمر من الحاكم الروماني، المدعو داشيان، وألقي بهما في أقصى زنزانة. حرمت عليهما كل أشكال الطعام. ولما ظن الحاكم أنهما ماتا من الجوع، أو أوشكا عليه، قام باستدعائهما. وكم كانت دهشته عظيمة حينما رأى مخلوقين في أتم الصحة والعافية، وفرحين فوق ذلك. من غيظه، صاح داسيان في وجه الأسقف: ما قولك، يا فالير، أنت الذي يتذرع بالدين للعمل ضد قوانين امبراطور روما؟». وبما أن فالير كان يجيب بكثير من اللطافة، والأرجح بخرق، أخذ فانسان على عاتقه المبادرة: «أبتي المبجل، قال مقترحاً على الأسقف، لو تفضلتَ بالعدول عن الكلام بمثل هذا التحفظ، تكلم بحرية كاملة. لو أذنتَ لي، أنا من سوف يرد على الحاكم. حينئذ استدار فانسان



ناحية داسيان قائلا: «إلى غاية الآن، لم تسهب في خطابك إلا بغية نفي الإيمان بيسوع المسيح، ربنا. أعلم أن ذلك في عرف النصارى تجديف واقتراف جرم لا يغتفر برفض تعظيم الرب التعظيم الذي يليق به. كان رد فعل داسيان في الحال. تم نفي الأسقف، أما الشماس، الذي نظر إليه على أنه مجرد متبجح، وشاب مدَّعي، فقد حكم عليه بأن تقطع أطرافه. لما تم كسر عظامه كلها، نادى عليه الحاكم: «أجبني، يا فانسان! الآن، بأي عين تنظر إلى جسدك الشقي؟». وها هو فانسان يجيب برباطة جاش: «إني أراه مثلما أردتُ دوما أن أراه». عندها، غرز الجلادون أمشاطاً من الحديد في بدنه، بحيث كان الدم يسيل من جسده كله، وكان في وسع المرء أن يرى أحشائه تقريباً.

- ممتع، قال مصالا ساخراً. يخطر ببالي أنكم تقولون عنا نحن المسلمين، بأننا قساة، ولا نحترم الحياة الانسانية!
- إني ألفت انتباهك بأن داسيان كان وثنياً، كافراً.

ابتسم البربري.

- كافر بالنسبة لمن؟ ألا يُعَدُّ المرء كافراً بالنسبة لشخص ما؟ لكن، واصل يا مولاي، أرجوك.
- حتى الرمق الأخير، ظل فانسان رابط الجاش، عيناه متجهتان نحو السماء، وهو يدعو ربه. من غيظه، أمر داسيان أن تربط الجثة بحجر رحى، ورميها في البحر من أعلى الجرف. وكان له ذلك. لكن ما إن انصرف الجلادون حتى طفت الجثة فوق السطح، وقذفتها الأمواج إلى الشط. بعد أن عثر عليها صيادون، قاموا بدفنها على عجل في مكان ما بين الحجارة. يحكى أن سرباً من الغربان قامت بحراسة ذلك القبر المجهول لحمايته من الحيوانات الضارية والطيور الكاسرة. قرابة ألف سنة بعد ذلك، تم ارجاع



بقايا عظام الشهيد إلى لشبونة، عقب استرداد المدينة من الموريسكيين. حفت به الغربان ولم تنسحب إلا بعدما تيقنت من أن القديس قد حظي بطقوس دفن مسيحية. حكاية مدهشة، ألا ترى ذلك؟

أرى فقط أن الغربان أكثر إنسانية من بني البشر. لماذا تقص عليه هذه الأشياء؟

- لأنه في نظري، هذه الحكاية تضم عبرتين. أولاهما، تنذر بأن الحماس الزائد المقرون بالفصاحة قد تكون له عواقب وخيمة. لو أن القديس لم يبد الكثير من العجلة، ولو أن الأسقف أفلح في الكلام، من المرجح أنه هو من كان سيتعرض للتعذيب حتى الاستشهاد وليس شماسه. العبرة الثانية، تتصل بقدرة الانسان الذي لديه قناعات على تحمل أشد أصناف التعذيب.

غضن مصالا جبينه.

- هل ينبغي لي أن أستخلص من ذلك أنك تريد التكفير عن إفراطك في الحماس الزائد.

تحاشى بيدرو السؤال.

- ألاحظ فحسب أني رغم افتقاد إيناس الذي يسحق قلبي، فأنا أزال على قيد الحياة.

وانكفأ الأمير على صمته، قبل أن يسأل:

- هل تعتقد أن سوف نستطيع ذات يوم تجاوز البحر المحيط؟
- بالتأكيد. ألم يحقق القدماء انجازات ما تزال تبهرنا؟ الذين سيجيئون بعدنا سوف يتعجبون بدورهم من مآثرنا.
- أبي مقتنع أيضاً بذلك. إنه يداعب حلماً، إذا صار حقيقة، سيجعل من البرتغال أعلى الممالك مجداً وثراء. آمل أن ينجح.
- وإذا لم يفعل، سوف ترث الحلم، وسيكون عليك تحقيقه.



- اشك في ذلك. أنا عاجز حتى عن تحقيق أحلامي.

صرخ مصالا من شدة غيظه.

- لقد تعبتُ! تعبت من كوني شاهد على شكوكك. منذ أيام وأنا ألتزم الصمت، وأتبعك مثل كلب وفيّ مطيع. الآن، أنا أختنق! يشهد الله علي أنك نصراني قح. أنتم اسوأ بكثير من اليهود. تلومون أنفسكم على الدوام، تدعون على أنفسكم بالعقاب، وتلطمون صدوركم! هل تأذن لي بأن أخبرك برأيي في موقفك؟ لكن قبل ذلك، يجب أن أطرح عليك سؤالا: هل لديك النية، نعم أم لا، بوضع حد لهذا التيه والعودة إلى القصر؟

- لا أدري بعد.

- التاج؟ المملكة؟

- وما فائدة التاج إن حرمت من المرأة التي أحب؟ أما المملكة... فلا يصح حكمها من طرف عاهل شقي، خاصة حينما يتعلق الأمر بالبرتغال حيث تسود الكآبة. إذا لزم الأمر أن أكون ملكاً ذات يوم، فأنا أريد أن أكون ملكاً يرقص!

- لا يعتبر موقفك عقيماً فحسب، بل إنه أناني كذلك، وهو خطر أيضاً. عقيم، لأن هذا الهرب لن ينجيك من شيء، وعلى كل حال من الألم الذي ينخرك. هذا أمر معروف جداً، أينما ذهبنا، نحمل معنا ما نحن عليه. ها قد مضى قرابة شهر وأنت تائه عبر البلاد. هل تشعر بأن حالك أحسن رغم ذلك؟ حينما عزمت القرار على الرحيل، تصرفت مثل طفل متقلب الأهواء مُنِع من حُلْو. لقد كان رد فعلك تماماً على النقيض من دونا إيناس التي تصرفت كشخص مسؤول.

- إنك تجور علي، مصالا! لقد رحلتُ حتى لا أفرض عليها معاناتي.



- ألا ترى كم أن ذلك سخيف؟ بتصرفك على ذلك النحو، فقد جعلت تلك المعاناة أشد قسوة، لا غير، بما أنك أضفت إلى أهوال الفراق، الفزع الناجم عن الحيرة. كيف تظن أنها تعيش في هذه اللحظة؟ ألا يخطر ببالك انها تسأل نفسها ألف مرة ومرة عن مآلك؟ متسائلة هل أنت ميت أم حي؟ جريح أم مريض؟ وليس هناك إيناس فقط. في ساعتنا هذه، لعل أمك تحتضر. أما أبوك...
- إنه يحكم...
- حماقات! إنه قلق أيضاً بشأنك. لا أعرف أباً له قلب بما يكفي من القسوة حيث لا يبالي باختفاء ابنه.
- لقد ذكرت الخطر أثناء معاتباتك. لماذا؟
- بسم الله الرحمان الرحيم! هل ذاكرتك ضعيفة إلى هذا الحد؟ أنت ابن الملك ألفونسو، ووريث تاج مملكة البرتغال. إذا أصاب أباك مكروه، من يحل مكانه غيرك؟
- كفى! إنك تكرر نفسك، تلوك بلا توقف الجمل نفسها!

تهاوى البربري على الأرض، وجلس القرفصاء والقهر مرتسم على ملامحه.

- كل هذه التمزقات من أجل امرأة! الدنيا تضج بالنساء، دون بيدرو. لا يحصيها عد مثل النجوم. وشأن النجوم، بعضها يحرق أكثر من البعض الآخر. دونا إيناس هي النار.

رفع سبابته علامة على التحذير.

- لن تنتهي هذه القصة بخير.

لحق الإنفانتي خادمه. واضعاً يده على كتفه، قال بصوت هادئ:

- انصت إلي. ما يربطني بإيناس ليس هو الحب فقط. حينما أقول لها أحبك، فإني أعض على شفتي في الحين، حيث أدرك الفارق الشاسع بين ما أحسه وفقر ما أعبر عنه. أعرف أن الشأن كذلك



بالنسبة لها. إيناس فريدة نوعها. ليست من النساء التي قد يتم استبدالها بغيرها. لم تسبقها واحدة، ولن تعقبها أخرى. ألا حق لي إذن في أن أحب من أهوى؟ هل علي الاكتفاء بقضاء عمري جنب مخلوق فرض علي؟ لماذا؟

- هناك وفرة من الأسباب، مولاي. اطمئن، لن أعددها، إذ سوف تنعتني مرة أخرى بالشيخ المتعَب. أذكرك فحسب أنك فُرِضْت أيضاً على دونا كونستانزا وبأنها لم تعد أبداً وحدها. إنها تحمل ولدك من الآن فصاعداً.

طوال الوقت بكامله الذي تحدثا فيه، لم ينتبه لا هذا ولا ذاك لأن الشمس قد أفلت خلف الأجراف وأن الليل يكتنف رأس الجبل.

وهو يشهق، تلفع مصالا بلحاف وتمدد على الأرض.

قام بيدرو من مكانه ومشى حتى حافة الجرف.

جعلت الحياة إذن من خيارات: السير من جهة الواجب أم اتباع الوجهة التي تهمس لك بها نفسك؟ العيش بين القطيع أو البقاء على قيد الحياة وحيدا؟ حبس اندفاعنا وجرأتنا تحت درع مسرود، أم السير قدماً بقلب مكشوف؟

إيناس... عنق البجعة. أين أنت، هذا المساء؟ ماذا تفعلين؟

• وهي تجلس قرب الموقد، تبسط إيناس يديها. لم يسبق أبداً أن أحست بكل هذا القدر من البرد.



١٤

شمس حمراء تلطخ ببريقها الدموي اللباس الموحد للفرسان الذين توقفوا للتو على بعد خطوات من المخيم المؤقت الذي نصبه مصالا وبيدرو. كان الرجلان يرقدان، متلفعان بغطائهما الصوف. لم يسمعها شيئاً.

ترجل قائد المفرزة من على فرسه ومشى نحو الانفانتي.

- مولاي...

نهض الأمير، والذهول بادي عليه.

- ماذا تريد مني؟

- أنا رسول صاحب الجلالة.

صحى مصالا بدوره وتعرف في الحال على واحد من ملازمي الملك ألفونسو الرابع:

- bom dia[١]، سانشو.

رد الرجل على التحية بحركة خفية من رأسه وتابع مخاطبة الانفانتي.

- كلفني صاحب الجلالة بإعادتكم إلى مونتيمور.

- ذلك مستحيل!

(١) بالبرتغالية في الأصل: نهارك سعيد.



- لكن، مولاي...
- لقد سمعتني. لن أتبعكم.

ألقى الجندي نظرة حرجة نحو مصالا وكأنه يلتمس منه العون. رد عليه البربري مصعّراً خده من عجزه.

كان بيدرو واقفاً. رتب ثيابه وخاطب الملازم:

- سانشو، ذاك هو اسمك؟

أومأ الرجل موافقاً.

- إذن يا سانشو، سوف تدور على عقبيك وتخبر الملك بأن لا نية لي الساعة للعودة.
- ذلك أن...
- ماذا إذن؟
- صاحب الجلالة لم يعد في القصر. لقد سلك طريق الجنوب. في هذه الأونة، لا بد أنه غير بعيد عن الكُتيم.

برّق بيدرو عينيه.

- الكُتيم؟ إنه على بعد خمسين فرسخاً من مكاننا هذا! وما الداعي لذلك؟
- وصلتنا أخبار بأن منشقين ناصريين تسللوا إلى الغرب. وقد ذهب والدكم لملاقاتهم.

اكتسح بعض الاضطراب وجه الانفانتي. ظل صامتاً للحظة قبل أن ينطق:

- ذلك لا يغير في الأمر شيئاً. سوف تخبره عند عودته.

حرّك الجندي فمه بالكلام كي يحتج. كان بيدرو أسرع منه.

- هناك مشكلة، tenente أيها الملازم؟
- ذلك أن لدي أوامر، يا مولاي. صاحب الجلالة...
- إني أدرك ذلك جيداً. لا فائدة في الإلحاح.

مولاي! أرجوكم، ينبغي أن تتبعوني.
تطلع بيدرو الجندي.
وإذا لم؟
عم صمت يشوبه الحرج.
هبت ريح باردة. كانت ترفع معها طبقات من الزبد لتقذفها بشدة على حضن الأجراف.
صاح الانفانتي بالجنود الذين يعاينون المشهد.
irmãos! إخوتي! هل تجدون في أنفسكم من الوقاحة ما يكفي للقبض على انفانتي البرتغال وكأن الأمر يتعلق بقاتل نذل؟
وبمثابة جواب، أرخى الرجال عيونهم ينظرون إلى الأرض. شبّت فرس، وألجمها صاحبها في الحين.
استدار بيدرو نحو الملازم.
كل هذا سخف. عد من حيث أتيت. إني آخذ على عاتقي الدفاع عنك لدى الملك. أتعهد لك ذلك.
ظل الجندي مقيماً على تردده.
حينها، تراجع الانفانتي دفعة واحدة إلى الخلف وتناول سيفه.
والآن؟ ماذا نقرر؟ هل تظن أن من الحكمة أن نتعارك؟
خفّ مصالا للاصطفاف جنب سيده. كان يحمل بيده خنجراً.
لوى الملازم شدقه معترضاً أكثر مما هو مذعور.
- هيا، مولاي. كن متعقلاً. اغمد سيفك. وأنت أيضاً مصالا.
ثم أضاف:
- لقد شهدتُ ولادتك، دون بيدرو. أن تَتخشَّب يدي أمام ناظري خير عندي من إخراج سلاحي من جفنه. المهم أني أستطيع إخبار صاحب الجلالة بأنك سليم معافى. أما عن البقية، فليحفظني الرب.



دار على عقبه وأمر رجاله:

- إلى الخلف، دُر!

وفي الوقت الذي كان يعتلي فيه مطيته، أضاف مخاطباً بيدرو:

- أرجُ ربك فقط أن لا يكون يوم عودتك هو اليوم الذي تكون فيه مكرهاً على الجثوّ عند مرقد والدك... وداعا![1].

افينيون، في الوقت ذاته

وهو يجلس على البلاط البارد، كان كامبيني مستغرقاً في التفكير. الكاردينال يشك فيه، ذلك بديهي. لكن بأي خصوص؟ هل من الممكن أنه قام بالربط بين سرق الملف، الوثائق المفقودة و... كامبيني؟ محال. للوصول إلى ذلك، كان لابد لفونتناي من معرفة بعض الوقائع التي ترقى إلى أكثر من قرن والتي لم يكن يعلم بها سوى أربعة أشخاص، وهم ماتوا جميعاً. كلا، صوَّب كامبيني. ليس جميعاً لقد غفل عن مِلكيور، أخ بورزِنُون. لكن خلافاً لذلك، لا أحد يستطيع معرفة وجوده وحتى لو أن شخصاً ما ـ وهذا افتراض غير راجح بقوة ـ وصله خبر عن وجوده في الفريول، فليس من المؤكد أن يكون ذلك المغفل على علم بتفاصيل القضية، الشديدة التعقيد! وعليه؟ ما الذي كان في وسع فونتناي معرفته للتجاسر على إعطاء الأمر بتفتيش حجرته؟ ألم يكن كامبيني موجوداً هنا، في أفينيون، حينما تمت السرقة؟ هل يمكن تخيل حجة غياب أشد من هذه؟ وماذا لو كان موقف الكاردينال ببساطة مرده إلى ماضي الفرانسيسكاني؟ لأنه شغل وظيفة قائم على الأرشيف بين جدران لاطران. ذلك ليس مستحيلاً. في كل الأحوال، لا داعي للذعر. بالتأكيد في إمكان كامبيني جمع

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: Adeus.



مناعه، للذهاب بحثاً عن ملجأ في مكان آخر. لكن، إذا لم يكن لدى فونتناي أية حجة ملموسة ضده، فإن هذا الهروب سوف يبدو على أنه الفرار منه. كلا، من الحكمة الانتظار. إذا اتضحت الأمور، سوف يكون دائماً هناك وقت للتصرف.

حجرة الاستقبال، قصر البابوات

أعاد البابا قراءة الرسالة التي ناولها إياه المونسنيور فونتناي توّاً.

فيلانوفا، نوفمبر ١٣٤٠

تحياتي، صديقي أوريليو

يصلك كتابي هذا بمشيئة الرب وأنت في أتم الصحة والعافية. منذ أمد طويل لم أسأل عن أخبارك. والشأن كذلك من ناحيتك. لم تبعث لي بمكتوب منذ رحيلك عن فيلانوفا. ها قد مرّ عام تقريباً على ذلك. إني أشتاق إليك. لودوفيكو، إبني البكر، يسأل عنك على الدوام. لقد تعلق كثيراً بحضورك. إنه يعتبرك شيئاً ما مثل أب ثان. أظن أنك تقيم دائماً في مدينة أفينيو تلك، تتأمل وتتعبد في هدوء لخلاص أرواحنا النجسة. أنا أعيش على جاري العادة في قريتي الصغيرة فيلانوفا. الأولاد بخير. ما عدا الأصغر، لي فِينْغ، أحبهم إلي، الذي مات بغتة العام الماضي. كانت تلك أوقات عماها يأس عظيم لم تبرأ منها أمه أبداً. وعلاوة على هذا، وتقريباً عقب ذلك في العام ذاته، أهلكت جانحةٌ قطيعي من الماعز. لم يفضل لي من خمسين معزة سوى عشرين. آه كم إنّ حزني لعظيم! لكن العذراء الطاهرة تحفظني، رغم ذلك، ولم أتأخر عن حضور قداس واحد طوال حياتي. ثم كيف يسعني ذلك وأنا بمعية أخ فرانسيسكاني مثلك، صديقي أوريليو؟ إنك لم تنس أخي أدُورِيك، أليس كذلك؟ أعرف أنك أحببته كثيراً. كان



رجلاً طاهراً. لقد لبّى نداء ربنا منذ تسعة أعوام وإني أشتاق إليه على الدوام. وبفضله قمتُ بتعميد ولدي الفقيد لي فينغ. وأخذته مني يد المنون هو الآخر. يا له من مصير محزن. لكني أكفّ هنا دموعي. الموسم يبشر بخير. لقد بعثت نصف محصولي من المونتاسيو. إنك تعرف هذا الجبن اللذيذ ذا العجين الصلب الذي كنتَ تستطيبه كثيراً أيام عيشك هنا؟ إن أحببتَ، أستطيع أن أبعث لك بشيء منه. سوف يتحمل الرحلة. ولن يصير إلا أحسن. أخبرني بالأمر.

أقول لك وداعا الآن. يجب أن أنصرف لأشغالي. أنجيلا تبعث لك بسلامها الذي تقرنه بسلامي، الحار جداً.

توقيع ملكيور دو بوردينون.

أعاد الأب الأقدس الرسالة إلى كاتبه. لم توضح لها قراءته الثانية ما استغلق من الأولى.

- ما هذا اللغو، مونسنيور؟
- إنها الرسالة التي عثرنا عليها داخل حجرة الأخ كاميني.
- وماذا نستفيد منها؟ اللهم أن كاتبها يحتاج لإعادة النظر في إملائه... نادراً ما قرأت كل هذا القدر الوافر من الأخطاء في هذه القلة من السطور! ويا له من أسلوب![1]

ابتسم المونسنيور دو فونتناي.

- صحيح، قداستكم. لكن، ليس الإملاء هو الجدير بالاهتمام في هذه الرسالة، لكن الأولى بذلك مُوقّعها.
- إني لم أعد حتى أتذكره!
- ملكيور دو بوردنون.

---

(١) لقد جاءت الرسالة في النص الفرنسي مليئة فعلا بالأخطاء الإملائية والركاكة الأسلوبية.



وما الذي يجعل اسم هذا الجاهل مهما بكل ذلك القدر؟

- ليس هو، وإنما أخوه.

نطق الكاردينال بصوت واضح:

أدوريك. أدوريك دو بوردنون. ألا يذكرك هذا بشيء؟

عمَّت هنيهة خفية من التردد قبل أن يجيب البابا:

أليس هو ذلك المسافر الذي قام، إبّان عهد يوحنا الثاني والعشرون...

- تماماً، قال فونتناي مستعجلاً.

- يبدو لي أنه مات.

- منذ حوالي عشرة أعوام. شهوراً معدودة عقب عبوره هنا.

غضَّن البابا جبينه.

سوف تجدني بطيئاً الفهم شيئاً ما، لكني ما زلت لا أرى الرابط بين أدوريك، وكامبيني وتلك الرسالة وسرقة الملف، أي رسالة القدس يوحنا.

وافق الأسقف على كلامه.

- ليس رابطاً مباشراً، أوافقك الرأي. لكنه رابط على الرغم من ذلك. لقد استخبرت عن الأمر: لقد تعارف كامبيني وأدوريك، هنا، منذ عشرة أعوام. كان أدوريك عائداً حينها من رحلة طويلة جاب فيها آسيا.

أومأ البابا بنفاد صبر.

- وبعد؟ أكرر سؤالي: ما الصلة بين السرقة التي شهدها لاتران وهذين الرجلين؟

إعترف الكاردينال على مضض:

- لم أدرس الموضوع بعد.

- في هذه الحال...



أشار إلى الرسالة.

- اسم غريب، ألا تتفق مع ذلك؟ أقصد الحديث عن الاسم الذي أطلقه ملكيور ذاك على ولده: لي فينغ. أظن أنه لا يوجد شخص واحد يحمل هذا الاسم في الفريول بأكملها!

- بالتأكيد. لكن لو تذكرنا بأن أودريك جاب طويلاً بلاد الصين، فإن الاسم يجد تفسيره.

لوى الباب شدقه مرتاباً.

- ربما. لكن يجب أن تقر بأن حمل اسم لي فينغ في قرية نائية بالشمال الشرقي من إيطاليا لم يكن بالأمر المريح! يا للولد المسكين. لكن لا يهم! قل لي بالأحرى ما تريده. تقديم الدليل على أن كامبيني كانت له يد بطريقة أو أخرى في سرقة لا تران؟

- أجل، أيها الأب الأقدس.

- في نظري، إنك تهدر وقتك. لن تعثر على شيء. وكيفما كان ما تنوي فعله، أنصحك بأقصى قدر من الحيطة. لو كنتَ على حق، وهذا من باب الاستثناء، لا ينبغي في كل الأحوال أن تصيب رَجلك بالذعر. إذا شعر بأنه عرضة للتهديد بطريقة أو بأخرى، كن على يقين أنه سيختفي وسيشق علينا العثور على أثره.

وافق الكاردينال بحركة من رأسه.

- لن أقدم على شيء قد يحذره.

أشار البابا من جديد بإصبعه نحو الرسالة.

- أو قد لا يلاحظ اختفاءها؟

- من غير المرجح كثيراً أن يحدث ذلك. لقد عثرنا عليها وهي منثنية مُعوجَّة، داخل أحد الأدراج في رُكن يُزيِّن حجرته. وهذا دليل على أنه لم يعرها اهتماماً كبيراً.

ربما. لكن، الحيطة، مونسنيور، الحيطة.



مونتيمور، البرتغال.

ترددت الملكة بياتريس لحظة قبل أن تختار أحد المقعدين اللذين وضعاً قبالة النافذة.

في وسعك الجلوس، إيناس، قالت وهي تجلس. لا أستحسن بتاتاً أن يظل من أخاطبهم وقوفاً.

وبينما كانت المرأة الشابة تمتثل للطلب، انتهزت بياتريس الفرصة لتطلعها خلسة. وفي الحال، أثارها تحولها الشديد. لم تعد تلك الصبية الجميلة التي حلت بمونتيمور مدة قصيرة من ذي قبل، بل صارت سيدة مضطربة التقاطيع، وهزيلة بشكل لا يصدق. ورغم ذلك، بقي شيء من المهابة في طريقة مشيتها.

ولما رأت البساط المطرَّز ذا الغرز الدقيقة التي وضعته إيناس توّاً على طرف السرير، قالت الملكة:

- يبدو أنك شرعت في صنعه للتو.
- أجل، صاحبة الجلالة.
- الظاهر أنه عمل جميل. علام يدل؟
- قطع رأس القديس يوحنا المعمدان.

ألقت الملكة نحوها نظرة اندهاش.

- قطع رأس؟ حتى ولو تعلق الأمر هنا برأس قديس، فمع ذلك الموضوع لايقل غرابة بالنسبة لفتاة شابة من سنك. لاشك أنك محبة للتقوى كثيراً.

سؤال أم توكيد؟ من ريبتها، لزمت المرأة الشابة الصمت.

- إن سحنتك ليست على ما يرام حقاً. ألا يناسبك هواء البرتغال؟
- بلى، صاحبة الجلالة، لقد عانيت من الحمى قليلاً فحسب.
- لقد استغربت أيضاً غيابك. إنك لا ترين من وقت معدود. هل الحال أحسن؟



- أجل، صاحبة الجلالة.

بغتة، غيرت الملكة بسرعة من لهجتها حيث يخال المرء أنها إلى تلك اللحظة كان مسعاها فقط هو كبح صرختها.

- فلنضع حدّاً لهذه التفاهات، إيناس! إنك لا تغفلين عن السبب
- الذي جئت من أجله عندك. ليس من عادة ملكة أن تتنقل. لقد فعلت ذلك حيث قيل أنك متعبة جداً وطريحة الفراش على الدوام.

وضعت إيناس يدها على قلبها، مذعورة.

- أوه! صاحبة الجلالة. ليتني علمت... حتى لو أني أحتضر، لأقبلتُ ملبية نداءك. إنك تصدقيني، أليس كذلك؟
- أنا أصدقك. لكننا نشطّ والوقت قصير. أنا هنا لتحدث عن بيدرو.
- أجل...
- إذن، حدثيني عنه.

فزعت المرأة الشابة.

- من أنا لأجيك؟ بم أخبرك وأنت على علم مسبق به؟ أليس ابنك؟

ابني، اجل. لكن الأمر يتعلق أيضاً بعشيقك.

سرح بصر الملكة في البعيد، بينما كانت تردف قائلة:

- لستُ هنا للحكم عليك، وإنما للعثور على أجوبة لأسئلة معينة ويتمثل واحد منها في فهم أي امرأة تلك التي عشقها ابني على ذلك النحو الجنوني. هل هي امرأة خبيرة أم ساذجة؟ فاجرة متبجحة أم تقية ضالة.

ختمت بلامبالاة مصطنعة:

- ما لم تكن بكل بساطة فتاة وقحة؟

عضّت إيناس شفتها السفلى.

- إذن؟ ألحّت بياتريس. ماذا تقولين؟



ردت المرأة الشابة كمن يلقي بنفسه في هاوية:

إن قلتُ لك إني أحب دون بيدرو؟ سوف تردين علي بأن دون بيدرو رجل متزوج وبأن من مبادئ الوصيفة أن لا تخون سيدتها. إن قلت لك أني أموت من دونه؟ سوف تجيبيني أن المرء لا يموت جراء الحب في سني أو ربما يموت بكثرة مفرطة من ذلك مراراً. أستطيع أن أقسم لك أمام الرب أني بريئة من هذا الطوفان الجارف بداخلي، سوف تقولين إني أعيش في الأحلام وأنّ مأساة الأحلام هي ساعة الصحو منها. إن قلتُ لك إن ابنك هو أجمل وأسمى ما صادفت طوال حياتي؟ سوف تنبهيني إلى أني لم أعش طويلاً.

شبكت إيناس أصابعها وقبضت عليها إلى أن ازرقّت مفاصلها.

ايام، وليالي بكاملها، قالت مستأنفة الكلام، وقرون لن تكفي للتعبير عن مشاعري. لهذا، فالكلمة الوحيدة التي تخطر ببالي، وهي كلمة صبيانية ولا شك أنها بلا جدوى، هي كلمة المعذرة. أتوسل معذرتك، يا صاحبة الجلالة.

نظرت الملكة إلى مخاطبتها. هل كانت تتلاعب؟ تتظاهر؟ لم تعمّر هذه الخاطرة سوى بضع ثوان وتبخرت تحت وطأة البداهة: مستحيل. لا يسعها تجاهل أن المرأة الشابة، بهذا الإقرار تعترف للعلن بالعار الذي ألحقته بنفسها.

سألت:

- أين بيدرو؟
- لا أعرف، صاحبة الجلالة. هذا السؤال يستبد بي منذ أن رحل.
- وما سبب هذا الرحيل؟

لم تحر إيناس جوابا.

- أنا أصِرّ. ليست الملكة، بل الأم هي من تلتمس منك ذلك.



- بسببي أنا. لقد عبرت عن الرغبة في أن يكف كل شيء.

سددت بياتريس نحوها نظرة حائرة.

- كنتُ أظنك عاشقة، حد الوله.

- إنها الحقيقة. لكن دونا كونستانزا نزعت منّا كل رجاء.

- اشرحي لي. كيف؟

عبرت بارقة عينا إيناس. ظنت الملكة أنها رأت فيهما ما يشبه الامتنان.

- سوف أخبرك بكل شيء، يا صاحبة الجلالة.

الكتيم، حدود البرتغال، ثلاثة ايام عقب ذلك.

اصطف الرماة على صوت المزامير. وثبّت الفرسان أيديهم على الأزمّة، وهو يربتون بين الفينة والأخرى على عُرّف مطاياهم للتخفيف من الحمّى التي تستبد بهم قبل كل معركة. في الصف الثاني، مشاة يحملون مَطاعن ومَطارد، ينتظرون دورهم للهجوم. كانت أعين الجميع مثبتة على الملك. هذا الذي قدّت ملامحه من رخام، كان يتأمل راية شعار نبالة البرتغال: تسعة قلاع مذهبة مصطفة على طول شريط أحمر، وفي الوسط، أربعة وُسوم زرق على خلفية بيضاء. لو أنه شعر بأدنى خشية من نتيجة المعركة، فهذا الرؤية تكفي لدحرها في الحين.

هناك، على بعد فرسخ أو يكاد، برز الجيش العربي. كان أكبر حجماً مما ظُنَّ. ما يقارب ألف رجل. سلاح الفرسان فقط.

ارتسم ألفونسو الرابع بشارة الصليب، وأخرج سيفه من غمده، ومثلما فعل في طَرِيف، قرأ بصوت عال البيت الأول من المزمور السابع.

معركة أخرى. قتال آخر، لا سرّ فيه ولا غرابة، اللحاق بالموت، والدم، والصراخ، وصفير الرماح وصدى السيف والدرع، ذلك الصدى الممزق.



كان يعدو في المقدمة. الفرسان يتبعون أثره. الموريسكيون يندفعون لملاقاتهم، ومثل كفَّيْن يصطفقان، التحم الجيشان عند مدخل حقل للزيتون. صخب، صرخات متوحشة، وهنالك، فوق هذا الخليط، يُطل سخط السماء.

في أية لحظة يجد ألفونسو نفسه على الأرض، وقد دهسته كتلة فرسه؟ كان الضوء يبهر العيون، وتلاحم الأجساد يشق على الوصف. حاول الملك أن يُفلت. بلا جدوى. إنه يرزح تحت الثقل الهائل لمطيته المدمّاة. كان في وسعه تخمين نَفَس الدّابّةِ المحتضرةِ المنقطعُ، بمنخريها اللذان ملأهما اللعاب والزبد، ونبضات الجلد المفعم بالعَرَق. ليلةٌ هاوية.

أدرك ألفونسو في الحين أنه هالك. وكأنما في حُلم، رأى سنوات حياته تجري القهقرى، مواكب السهول والوديان، وفي منعرجات الغواديانا، وجه أبيه الصارم يبرز من ثنايا صدر الحصان. الحقد؟ هل ذاك هو الإحساس الأخير الذي يشعر به الإنسان المشرف على الموت؟ دفعة واحدة، حلَّقت في الهواء شظايا كل أشكال توهمه، مفسحة المكان لنظرة ظافرة من أحد المشاة العرب. كان الجندي يلوح بخنجر معقوف. «يا إلهي، همس ألفونسو، جاءت الساعة!» تقبضت أطرافه. زمَّ أصابعه بشدة، لكنه لم يغمض عينيه.

هوى الخنجر.

لم يصل غايته.

كانت يد قد أمسكت قبضة العربي.

هل يمكن للموت أن يكون خلاقاً للتخيلات؟ بالتأكيد. وإلا، كيف نفسر أن وجه العربي ذاب في الفضل لتحل مكانه صورة دون بيدرو البهية؟

خرَّ الجندي صريعاً. كان هناك خنجر مغروز بين كتفيه.



الآن، هناك أيضاً صوت دون بيدرو. وهذا الصوت يصرخ بالأوامر.

- إلى هنا! ساعدوني! بسرعة!

هرع الجنود. شعر ألفونسو بيدَي ابنه تندسان تحت إبطيه.

- اثْبُت يا أبي!

كلا، لم يكن ملك البرتغال فريسة للأوهام. ابنه كان حقاً إلى جانبه.

بعد مضي بضعة لحظات، صارت الكتلة المستلقية على العاهل أقل وزناً وأفلح بيدرو في تخليص جسد والده.

- كلا، قال ألفونسو. المعركة... يجب المواصلة... لا ينبغي التراجع...

- لا تخشى شيئاً، طمأنه الانفانتي. سأمنحك النصر...

الذكرى الأخيرة التي كان على الملك حفظها قبل أن يغشى عليه هي طيف ابنه يجري يعدو راكضاً في الاتجاه المعاكس للضوء نحو ميدان المعركة.



١٥

مرت الآن أكثر من نصف ساعة على مواجهة إيناس لإصرار أخويها، وسط سكون الدير. وقد تطلب منها الأمر بعض الوقت المقدرة على فهم تعقيد تلك الحكاية الغريبة التي تخص الخريطة البحرية، وقضية الراهب يوحنا الغامضة، والرهان على بلاد الهند. وعلى الأخص، شقَّ عليها إدراك صلتها بهذه الورطة. وفقط، حينما ،طق فرانسيسكو بكلمتي «حذر» ثم «تجسس» انكشف لها مسعى الرجلين بكل نذالته.

أمسك فرانسيسكو بيد أخته.

- يجب عليكِ مساعدتنا، إيناس. لا يمكنك التهرب. إن ذلك يرهن مصير قشتالة.

تخلصت منه بشدة.

- أبداً. ابداً لن ألعب هذا الدور! ما تطلبانه مني يصمني بالعارا

حدقت في أخويها واحداً تلو الآخر وكررت بحزم:

- أبدا!

تكلم خوان:

- لا أفهم تحفظاتك! هل خدمة المرء لبلاده يصمه بالعار؟

- خيانة من يثق بك عارا

- كلمة «ثقة» لم تدخل يوماً في عداد المعجم البرتغالي، قال



فرانسيسكو متهكما. هؤلاء الناس لا يستحقون الشرف الذي تحبينه لهم. ثم، سحقا! كل ما نطلبه منك هو أن تكوني متأهبة، وأن تمدينا بالأخبار. لا أكثر. إذا وُجِدَتْ هذه الخريطة، إذا كانت فعلاً بين أيديهم، من اللازم أن نكون على علم. هذا كل ما في الأمر.

- لنتصور أن الحال كما قلت، لاحظت إيناس. بعدها، ماذا ستفعلان؟

تبادل الأخوان نظرة شاردة.

- لا شيء، رد عليها خوان. لكننا سنعرف ما يتوجب علينا فعله.

لم تنخدع.

- إنك تكذب!

اندفعت بخطى ثابتة نحو مخرج الدير، لكن خوان أغلق عليها الطريق.

- إيناس! تعقلي. فكري فينا. في ابينا. كل ما قد ننجزه في خدمة الملك سوف يعود علينا بالخير وسيكون هو أول من يجني ثماره.

افلتت المرأة الشابة ضحكة خفيفة.

- لأنك تظن حقاً بأن رجلاً من طينته سيقبل شرفاً يعرف أنه يكافئ خيانة؟ إن أبانا...

- خيانة! خيانة! قاطعها فرانسيسكو. ألا تمكين غير هذه الكلمة على طرف لسانك؟ إن المرء لا يخون سوى أهله! وليس غرباء لا يربطهم به شيء!

مهما بدا لكم ذلك مثيراً للعجب، فأنا لا أعتبر دون بيدرو شخصاً غريباً.

حدق فيها الأخوان باندهاش.

- ماذا تقصدين بقولك؟



لقد فهمتما قصدي جيداً.

عبر بريق من الشك عين فرانسيسكو.

هل من باب الصدفة...؟

ندت عنه ضحكة مفتعلة وغير من لهجته.

كلا. هذا محال. ليس أنت!

انقبضت ملامح إيناس.

لابد أن أذهب.

خطتْ نحو البوابة.

مهلاً! لقد قلت الشيء الكثير أو أنك لم تقولي ما فيه الكفاية.

فجأة صدح جرس بوقٍ من خلف الأسوار. صاح صوتٌ: «الملِك! عاد الملِك!»

سُمِع صدى الجرس الثاني عقِب الأول.

- الجيش راجع من الكتيم، لاحظ فرانسيسكو.

- الجيش... أجل، وافق خوان. ومن يدري، ربما أيضاً...؟

وختم جملته بنبرةِ إلْغاز:

- السيد دون بيدرو؟

لم تسمعه إيناس. كانت تركض نحو القصر.

دون بيدرو يتقدم الفرسان، ثيابه مغبرة، والوجه مشوب بالدم والوحل الجاف. وفي أثره يمشي أربعة جنود يحملون النقالة التي مدَّ عليها الملك ألفونسو. بدا العاهل جامداً وساكناً، ورغم ذلك كان يعاني بشدة. هم الذين جاؤوا من يبورة، بل وأبعد منها بكثير، إصطف الأهالي على طول الطريق من أجل الهتاف للمنتصرين بالكتيم. هذه المرة، لم يكن لقب الشجاع هو ما يجري على الألسن، بل اسم الأمير وارث العرش. لكن، وبالتدريج، كلما دنا الموكب من القصر، ورأى الناس جسد الفونسو الجامد، ووجهه الشاحب المتجه نحو



السماء، تحولت الفرحة إلى ريبة.

الملك جريح، الملك مشرف على الموت.

غير آبه بالضجة التي تعمّه، جاز بيدرو الجسر المتحرك، ثم ولج ساحة الشرف.

- أحْضِر بلثزار في الحال، هتف بالخادم الذي هرع نحوه. بسرعة!

ثم أمر الجنود بحمل العاهل إلى حجراته. كانت الملك هناك مسبقاً. مضطربة، خطت نحو زوجها، وتوقفت كأنما خشيت ملامسة الموت بعينها وارتمت بين أحضان ابنها.

- بيدرو، لقد عدت...
- تعالي...

ذعرت لما رأت وجهه المدمّى.

- إنّ بك جروحاً!
- ذلك لا شيء.

ثم أمسكها برفق من ذراعها وأخذها نحو السرير الذي مدد عليه الملك للتوّ. نطق هذا الأخير بِوَهَن:

- مسرور برؤيتك، رفيقتي.
- لا تتكلم. لا تهدر قواك.
- قواي... قوتي... لا أستطيع هدرها... إنها واقفة هنا...

رفع سبابة قليلاً ناحية بيدرو.

- إلى جانبك... قوتي المستعادة.

بغتة، أخذه الفواق. وأفلتَ خيطُ دم من فمه.

- أستحلِفك، توسلتْ بياتريس. لا تقُل شيئاً.

صاح بيدرو:

- أين هو بلثزار إذن؟
- أنا هنا، يا مولاي!



وهو يلهث، وضع الساحر عتيدته التي كان يحملها عند قدم السرير.

- لا تكمل عمل المورو، همس له ألفونسو.
- لاحظ لي في ذلك. ليس لديَّ مهارتهم.

بعد إنهاء الفحص، أجبر بلثزار نفسه على إخفاء حيرته بتكتم ظاهر.

- ضلعان وساق مكسورة. لم يسبق لذلك أن تسبب في موت رجل، وبدرجة أقل، في موت ملك. اطمئنا. سوف يظل صاحب الجلالة على قيد الحياة.
- فليبارك الربُّ القديسَ فانسان! هتفت بياتريس.
- الآن، سوف يكون من الأحسن أن تتركاني رفقة صاحب الجلالة حتى يمكن لي رعايته.
- سأبقى، قال بيدرو.

استدار نحو أمه، وبنظرة أفهمها أن من الأفضل أن تنسحب.

في الخارج، أخذت الشمس تلقي حمرتها على الرُّبى. لن تتأخر نجمة أولى في البزوغ في السماء.

أخذ بيدرو الساحر جانباً.

- الحقيقة، قال بلا مقدمة.
- إن حاله سيئة جداً. لقد سحق الفرس صدره. لقد رأيت أن صاحب الجلالة يبصق دماً وأخلاطاً. من الممكن أن الرئتان تعرضتا للخرق. كل شيء رهن صلابته.
- أبي صخرة.
- أظن ذلك أيضاً.

قطع أنين حديثهما.

- يجب أن أخفف من آلامه. إنه يتعذب.

ودون مزيد من الانتظار، رجع بلثزار نحو عتيدته وأخرج منها



مجموعة من القوارير والأواني المملوءة بالمراهم والبلاسم. طلب جرة ماء ساخن من قبل وكوباً. نقل بيدرو الطلب إلى القائم على الخدمة أمام الباب وأوقد المصابيح بنفسه.

شعر بأنه استنفد قوته، وهرِم. قصد مقعداً واستسلم متهالكاً فوقه. ما عايشه في الآونة الأخيرة كان وقعه عليه مثل وقع أرض مدمرة التمزقات، أهوال الغياب، وهذا الاتصال بالموت الذي علمه للمرة الأولىٰ معنى قتل رجل بدم بارد. انقضى اسبوع على المعركة ورغم ذلك لم يبرح فمه طعم الدم اللاذع.

إلى جانبك... قوتي المستعادة.

عجيب أن ينطق ألفونسو بهذه الكلمات. إذن هناك شرخ في مكان ما؟ رفع يده إلى غاية جبينه، وقد استبد به الدُّوار. تاج غير مرئي يصر عليه بشدة حيث أحس بما يشبه السقوط. أي ملك سوف يكون إن اختفى أبوه؟ هل كان مسلحاً لهذه المعركة؟ إلى ذلك الوقت، كان يسعى فقط إلى حماية قلعة من الأحلام. هل في استطاعته القيام بالمثل اليوم الذي يتوجب عليه فيه أن يحكم عالماً حقيقياً؟

ذات يوم، سوف تصير ملكاً، وسيكون شعبك في حاجة.

عادت إلى ذهنه الكلمات التي نطقتها بها إيناس.

إيناس... إيناس...

ظن أن هذا الهروب سوف يسمح له بالتخفيف من حدة فقدها أو، في تلاطم الأمواج، أسفل أجراف ساغرس، سيغرق شيء من هذا الحب الجنوني. لكن، كلا، لاشيء. رجع قلبه وكأن شيئاً لم يمسسه. وتلك المشاعر التي أججها الهجر تتقد بنار أشد حرقاً من البارحة.

- مولاي...

خلّصه صوت بلثزار من هواجسه.

- كيف حاله؟



إنه نائم. لقد قمتُ بكل ما في وسعي. البقية لم تعد رهن يدَيَّ. أعلم أنه يتعذب بدرجة أقل. يبقى أن القنب دواء فعال. أقبل، يا مولاي، لندعه يستريح.

للمرة الثانية أجاب بيدرو بالنفي.

كلا. اذهب. سوف أسهر إلى جانبه.

- سحنتك أشد شحوباً من سحنة أبيك. لما أراك وقد غارت عيناك، استخلص أنك لم تنم في الأيام الأخيرة. كن عقولاً.

- عقول... منذ أمد بعيد لم أعد أدرك معنى هذه الكلمة.

وضع يداً عطوفاً على كتف بلتزار.

- هيا، اذهب. سوف أطلبك إن دعت الضرورة.

- إن اشتكى من ألم، أعطه هذا الشراب...

ناول الساحر الانفانتي كوباً مُلئت عن آخرها بمزيج له لون الحليب، ثم أضاف قائلا:

- لا تنسَ...

- كيف يسعني ذلك؟

- كلا، أقصد لا تنسَ...

أشار بسبابته نحو الملك النائم.

- ذاك أبوك. وهو أيضاً صديقي.

صحى بيدرو بغتة، وجبينه يتصبب عرقاً. كان الليل ما يزال مخيِّماً. نيم، إن لم يكنْ حضرة غريب، هو ما انتشله من نومه. العجيب أن المصابيح لم تعد موقدة، لا شك بسبب نقص في الزيت. أصاخ السمع.

نفَسُه! في الحجرة، لم يعد يتردد نفَس أبيه. ذلك النَّفَس القصير الذي غمر الحجرة طول الساعة الأولى، هذا النفس انطفأ مثل المصابيح. أراد النهوض، عجز عن فعل ذلك. أثناء نومه، أحد ما



صفد كاحليه. مدَّ يديه وكأنه يريد الإمساك بسند في الظلام. الظلام بدوره كان أسيراً، شأن صدرِه. بدا جسمه بالكامل وكأنه محبوس في درع غير مرئي، مسمَّر إلى الحائط.

طلب النجدة، بسرعة! طلب العون، بسرعة!

لم يكن أي صوت يخرج من حلقه. كان يختنق. في هذه اللحظة رآه. قائم، والعين مخيفة، متلفع في كفن ناصع البياض، كان أبوه يسير نحوه والسيف في يده.

كلا!

الشبح، لكن هل كان شبحاً حقاً؟ صوب النصل نحو صدره.

كلا!

أيقظته صرخته.

غمر وهج شفاف الحجرة. كان الفجر هناك. نهض، مرتعداً. كان ألفونسو ممدداً على ظهره دائماً. لا يتحرك. بدت ملامحه أقل انقباضاً. لابد أنه شعر بولده، لأنه طرف بجفنيه.

- أنا عطشان. النار في فمي.

- هل تتعذب مثلما ذي قبل؟

- ليس أكثر مما لا يستطيع جسدي تحمله.

أمسك بيدرو كوب مزيج القنب الذي أعدَّه الساحر ورفع برفق رقبة والده.

- هذا سيعود عليك بالخير، اشرب.

ابتلع الملك جرعة كبيرة ثم زمَّ شفتيه وقد عافه.

- إني أخبر جيداً ها هنا الطعم الفظيع المميز لمستخلصات صديقي بلتزار. حتى الحمار لن يرغب فيها.

- إني... إني أعرف ذلك. لقد سنحت لي فرصة اختبار أعشابه الطيبة

مطَّ ألفونسو شفتيه مبتسماً.



- بعد سُكْرِك، أظن؟
- بعد سكري، أجل... يا أبي.
- ساعدني على الجلوس.
- سوف... يكون ذلك تهوراً. في ذلك مخاطرة أكثر... بأن تشتد عليك أوجاعك.
- أنا لا أبالي بذلك. ساعدني، أحتاج إلى رؤية النهار الطالع، والإحساس بِلَفْحِ الشمس على وجهي.

بعد أن استقر بين الوسائد، ورأسه بمحاذاة الأشعة الأولى التي كانت تشق طريقها بين فتحات النافذة. أغمض الفونسو عينيه.

- نصر جميل، قال بعد هنيهة.
- فعلاً... أظن أنه... لن يجرؤ عربي واحد على المخاطرة عند حدودنا.

خيم الصمت.

- لكنك مع ذلك تأخرت في الالتحاق بي.

تجمد بيدرو في مكانه.

- إنك تعلم بالتأكيد... أن بين ساغرس والكتيم...

كف عن الكلام، استرجع أنفاسه. لفظ الكلمات. لفظها دفعة واحدة.

-... ينبغي حساب خمسة أيام. ولم يتطلب مني الأمر سوى أربعة.

- في سنك، كانت ثلاثة أيام كافية لي.
- مِن ميزة الملوك... أن... أن...
- لماذا؟ لماذا توجعني بهذه التأتأة؟ أنا وحدي؟ حسب علمي، لم تجبر أمك على ذلك أبداً. لماذا أنا؟

تردد بيدرو قبل أن يجيب:

- لقد قرأت في موضع ما... أن... التأتأة هي النَّفَسُ وقد سحتْ



للكلام عبر شفتي الطفولة. في نظر أمي، أظل طفلاً بلا شك. في حضرتها، تَهِشُّ بها نفسي أكثر، على الأرجح.

- بالضبط! تكمن المأساة كلها هناك! لم تعد طفلاً.

فتح الفونسو عينيه ثم نظر نحوه بعطف.

- هل سبق أن كنت كذلك فعلا؟

كبح في الحين صرخة ألم.

- إليّ بذلك الشراب البذيء!

- شرط أن... لا تستبد بك الحمى كما تصنع.

- منذ متى يتم وضع شروط على العاهل؟

تجاهل بيدرو السؤال ودس من جديد كفه تحت رقبة أبيه.

- يجب أن أسأل بلتزار... عما إذا لم يكن من الخطر الإفراط في شرب هذا المستخلص.

رد الفونسو بين جرعتين:

- في أسوا الأحوال، ستصير ملكاً على البرتغال...

أشار إلى المقعد بحركة من رأسه.

- هل أمضيتَ اليلة هنا؟

- أجل.

- لا بد أنك لك تنم كثيراً. لكن بما أنك تكره النوم... وعليه، أتركي الآن. أنا في حاجة لأن ابقى وحدي.

- إذا... إذا... كان ذلك ما تشتهيه. هناك حارس في الخدمة. لا تتردد في طلبه.

- لحظة!

- أجل، أبي؟

- لقد كذبتُ عليك.

حدق فيه بيدرو.



- أجل، استأنف ألفونسو الكلام. حتى في سنك، ما كانت تسعني ثلاثة أيام لقطع المسافة بين ساغرس والكتيم. انصرف الآن.

افينيون.

دخلوا توّاً درب الأسماك. ديك الفضة، الثعلب الذي يمزق. رأس المغربي، الخنزيرة الهاربة[1]؛ معلقة إلى الجدران، تتقاذفها الريح، كادت لافتات الحوانيت تسقط على رؤوسهم. أصحاب الخمّارات، دبّاغو الجلود، نسّاجون، جزّازون، باعة الأثواب، سالخو الجلود، أساكفة، قليلة هي المدن التي تضج بهذا القدر من الصناع المجتمعين في مثل تلك المساحة الصغيرة. مزدحمون، مدفوعون، كان المارة يعانون من أجل شق طريقهم.

أنييال كفاكو، تابعُ كونسالفيس، لعنَ خفية وهتف مخاطباً رفيقيه:

- هذه ليست مدينة، إنها بيت للنمل!
- ها إنك تقول ذلك من دوني! وافق من يحمل كنية «الأفريقي»، بسبب من جلده النحاسي على نحو عجيب. لمرتين، كادت دابة أن تدهسني. وزاد على ذلك الرجل الثالث الذي يسمى كابرال:
- علاوة على ذلك، إننا مسرجون هكذا بعصا المكنسة هذه التي نحن مجبرون على حملها! أنا من يلفظ كل من يرتدي مسوحا! لو رأتني أمي في لباس الفرانسيسكان الرّث، أعتقد أنها ستضرط في قبرها!

صوب نحوه أنييال كفاكو نظرة صارمة.

- قبل كل شيء، لا يتعلق الأمر بعصا مكنسة، بل هي عصا. عصا موسى، وهذه ميزة رئيسة للحجاج! من جهة أخرى، احرص

---

(١) تشير كل عبارة إلى اسم عَلم، قصدنا ترجمتها في معناها وليس في مبناها.



لسانك، صديقي[1]. إنه غير جدير برجل من رجال الكنيسة.

- حسناً، حسناً. لقد سددت آذاننا بما فيه الكفاية أثناء هذه الرحلة لأتذكره.

وقرأ بنبرة رتيبة:

- كومبوستيلا هي المركز النوراني للرجاء. إنا نحج إليه لتكريم ذكرى القديس جاك، رمز المقاومة ضد العرب.

وبالزخم نفسه، ارتسم بشارة الصليب وختم، متهكما:

- بالاسم الأب، والابن، والروح القدس[2]. لقد سبق أن كنت صبي مذبح.

- يكفي، زمجر كفاكو. سوف تثير الانتباه إلينا.

- إنه على حق، وافق الأفريقي. تصرفك سخيف.

- حسناً، رويدكما! سوف تمسك أمي نفسها. هل هذا يرضينا[3]؟

وراء السلوك غير المبالي لهذا الشخص هناك شيء محيِّر على نحو رهيب. بنية جسمية قوية، رقبة ثور، شعَر بلون السواد المشرب حمرة، تشع من خلقته كلها طاقة شريرة، صقيعية، والتي يشتبه في أنها تستطيع لو تحررت أن تخلق أسوأ أنواع الدمار.

- أنظروا معي هذا! تعجب كابرال بغتة.

كانوا يسيرون على طول مقبرة في منتصفها بالضبط نصبت مساطب الصيارفة وباعة الأثواب. وسط اللامبالاة، كان هناك خنزير يستمتع بأكل جثمان، من الجلي أنه نبش منذ وقت قريب ولا ريب أنه لم يدفن في العمق بما فيه الكفاية، وأنه تجاوز مدفنه. في الجوار، تجار

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: amigo

(٢) باللاتينية في الأصل: In nomine Patris,et Filii,et Spiritus Sancti

(٣) بالبرتغالية في الأصل: Estaos satisfeitos?



من شتى الأصناف، باعة المزاد يخالطون موثقين يجلسون بين شواهد القبور.

- هؤلاء الناس ليس لديهم أدنى احترام للموتى؟
- إذا مات المرء، فقد مات، عقب الأفريقي بتحذلق.

لم ينبسوا ببنت شفة بعدها إلى أن حان وقت وصولهم قبالة مدخل القصر البابوي. رؤية البناية المهيبة والجنود المسلحين الذين يحرسون المدخل انتزعن من كابرال صفيرَ إعجاب.

- قلعة حقيقية.

ذكَّر أنيبال كفاكو الرجلين:

- هل حفظتما كل شيء حقا؟ بما أني الوحيد القادر على الكلام بالفرنسية، فأنا من سيضطلع بالمحادثات. هل هذا مفهوم؟
- تمام الفهم، أكد كابرال. الرب يرعانا[1]، غمغم الأفريقي.

بمزيج من الدهشة والإعجاب أنصت المونسنيور دو فونتناي إلى عرض أنيبال كفاكو حتى النهاية.

- ها هو ذا. ختم الأخير كلمة منذ حين. صرتم على علم بكل شيء.

أومأ الكاردينال برأسه يمنة ويسرة.

- بادئ ذي بدئ، إخوتي، دعوني أقول لكم إنكم نفوس شجاعة حقاً. تعلمون بأن مساركم لا يلائم كثيراً المسار الذي يتبعه عادة الحجاج الذين يقصدون كومبوستيلا؟ إذ لو أني فهمت الغاية جيداً، فقد انطلقتم من روما؟
- فعلاً، مونسنيور.
- ألم يكن من السهل بدل الصعود نحو أفينيون، مواصلة طريقكم نحو فريخوس، آرل، بو، ثم حتى بوينتي لارينا؟

---

(١) باللاتينية في الأصل: Dominus vobiscum



- بالتأكيد، لكن في هذه الحال كنا سوف نفلت الفرصة الوحيدة للقاء بقداسته.
- فهمتُ.
- علاوة على ذلك، ليس في نيتنا دخول اسبانيا عبر بويتي لارينا.

رفع الكاردينال حاجبيه.

- أجل، قال كفاكو مفسّراً، لقد اخترنا فج رونسالفيس.
- فج رونسوفو؟ بالتأكيد إخوتي، أقل ما يمكن قوله هو إنكم لا تخشون الصعاب! الفج معبر شاق، خاصة في هذا الموسم.
- أنت على حق مونسنيور، لكن ما قيمة وجود المرء إن لم يشرّف تلك الفضيلة السامية ألا وهي التضحية؟

قال ذلك بصوت خفيض، وكأنه مشوب بتواضع شديد.

[وعليه، أصدقائي، فلترافقكم السلامة. وفي انتظار ذلك، سوف آمر بأن يتم توفير حجرة لكم. أتصور أنكم متعبون شيئاً ما.

- الشكر لك، مونسنيور.
- متى تنوون استئناف الرحلة؟
- بعد مثولنا بين يدي قداسته على الفور.

سارع إلى الإستفسار بشيء من القلق:

- هناك أمل، أليس كذلك؟
- الحبر الأعظم مشغول جداً. لكن أعدكم بأني سوف أقوم بما يلزم.
- لكم بالغ التقدير.

نظر الراهب إلى الثلاثي بتمعن ثم سأل:

- من لباسكم، أرى أنكم تنتمون لطائفة الإخوة الأصاغر. أ ليس ديركم هو دير القديس فرانسوا الأسيزي، في أسْكُولي؟

لم يتردد أنيال كفاكو لحظة واحدة:

- تماماً، أسكولي، موطن فراي جيرولامو دا ليتشيانو!



بالطبع، الأب الأقدس نيقولاس الرابع، أول بابا فرانسيسكاني.
هذا مثير للاهتمام. سوف تستمتعون ربما بلقاء واحد من أخويتكم الذي يعيش بين ظهرانينا في الوقت الحاضر. إن أسعفتني الذاكرة جيداً، هو بدوره كان ضمن طائفة أسكولي.

واسمه؟

- أوريليو كاميني.

ظل كفاكو متبلد الحواس.

- قطعاً لا أعرفه.
- هذا مثير للعجب مع ذلك... يبدو أن لا أحد يعمِّر في ديركم.
- ما الداعي لقول ذلك؟
- تجاهل الكاردينال السؤال.
- ربما تناهى إلى مسامعكم اسم فراي جيوسيبي كاردوتشي؟
- للأسف، ولا هذا أيضاً.
- لكن منذ متى تقيمون في أسكولي؟
- ليس أكثر من ستة أشهر، مونسنيور.
- الآن فهمتُ أحسن. وقبل ذلك؟ أين كنتم؟
- قرب البندقية، على جزيرة صان فرانسيسكو الصغيرة.
- لم اكن أعرف بوجود دير في ذلك المكان.
- ومع ذلك...

استغرق فونتناي في التأمل لحظة قبل أن يوجه سؤالاً جديداً:

- هل لديكم سبب خاص للقاء البابا؟
- مباركته، مونسنيور. نود كثيراً الانتفاع بمباركته. هل يعتبر ذلك وقاحة منا؟
- قطعاً لا. سوف أبذل قصارى جهدي.



جثا كفاكو بركبته على الأرض ولثم بخشوع الخاتم الكاردينالي.

- فليحفظك الرب، مونسنيور.

حذا كابرال حذوه. تردد الأفريقي لبعض الوقت قبل أن يتصرف بالمثل. لم يسمع أحد الشتيمة البذيئة التي نطق بها في سريرته.



١٦

اشتقت إليك، إيناس

اشتقت إليك اشتياق الصيف للشمس، والبحر للسفينة. أعرف أنّ الجدار الذي أقامته دونا كونستانزا بيننا لم ينخرق، إنه هنا، وظله يغطي حياتي، وكل ما يحيط بي. لكن هل هناك شيء أشدّ عناداً من الحب؟ حبي، على أي حال، لم يتبدل، اعلمي ذلك؛ بل إني أذهب إلى حد القول إنه صار أقوى ألف مرة مما كان عليه قبل هروبي غير المجدي إلى ساغرس. قبل رحيلي، كان حدسي يخبرني أنه لو انتُزِعْتُ منك فكأنما انتَزَع من نفسي. الآن اعرف أن ذلك أسوأ مما سبق. لا يمكن انتزاعي من نفسي، لأني لم أعد على قيد الوجود.

اشتقت إليك، إيناس. آه! هوني عليك. لن أقدم على شيء قد يسيء إليك. لقد فكرت ملياً، هناك، أمام الفضاء الرحب. شرفك يعنيني أكثر من أي شيء آخر. كنتِ على حق تلك الليلة حينما قلتِ: «لا أستطيع الخوض أكثر في الخطيئة». لقد دنّستُك، إيناس، رغماً عني، وإني التمس منك المغفرة.

لقد نطقتِ أيضاً بكلمات غيرها ليلة لقائنا. حيث قلتِ لي: أعرف فقط أنك لو نسيتني، سوف أموت ببطء. هل سبق لك أن رايت شجرة ميتة يا بيدرو؟ سوف أشبه تلك الشجرة». هنا يكمن الداعي لرسالتي



بأكمله. لن تكوني أبداً تلك الشجرة الميتة. أنا هنا، وإن غِبْتُ. أنام بجنبك وأصحو فيك.

لابد أنه تناهى إلى سمعك بأن والدي كان قد شارف على الموت ألف خاطرة دارت بلا توقف في رأسي المسكين في تلك اللحظة أفصح لك بواحدة منها. تخيلتُ بأنه ما إن أعتلي العرش، أحمل السلاح وأستولي على الكرسي الرسولي، بأفينون، وأهدد البابا بأسوا الأهوال إن لم يقبل بإعلان منشور يسمح لي بالطلاق. ولم لا، لكل الأزواج الذين يأملون ذلك؟ إن قائمة الخطايا التي أملتها الكنيسة هي أطول من عيش يوم بعيداً عنك. ومع ذلك، هناك خطيئة أغفلنا ذكرها: اليأس؛ يأس مخلوقين حكم عليهما بالعيش معاً بينما الموت سيكون لهما بمثابة عقاب عذب.

اعذريني. إني أضلّ، إني أجدّف.

أين أجد السلوى؟ ربما بتكرار فكرة أنك سوف تكونين، بفضل من دونا كونستانزا كفيل ولدي. أمّهُ الثانية، وتبعاً لذلك، ملاكه الذي يحرسه. هكذا، علاوة على آصرة الدم سوف تقوم رابطة إضافية: رابطة حب مشترك وبلا مقابل لنفس الشخص. كوني على يقين بأن هذه الرابطة، لن يستطيع أحد قطعها. لا الكنيسة ولا بني البشر.

أحبك، إيناس.

وضع بيدرو القلم قرب الدواة. الألم المتعذر على الوصف الذي كان يعتصر قلبه أصبح غير قابل للتحمل بشدة أكثر. الكتاب إلى إيناس توقظ الكثير من مكنونات صدره...

- هل أزعجك؟

كانت كونستانزا قد دخلت توا للحجرة. لم يسمع شيئاً.

- كلا. أقصد، إني...



جازت المرأة الشابة الحجرة بتؤدة ثم وقفت أمام النافذة المشرعة على الخنادق المائية.

سيكون الشتاء طويلا هذا العام، قالت وهي شاردة الذهن. هل لاحظت تساقط بعض ندف الثلج البارحة عند المساء؟

إني لم أنتبه لذلك.

- خسارة، بيدرو. لأحببتَ تلك الحديقة المكسوة بالبياض، تلك اللحظة التي تتردد فيها الطبيعة بين الأبيض والأخضر؛ مترددة مثلنا أحياناً عندما نتأرجح بين الخير والشر.

استدارت ورأت يد بيدرو التي كانت تخفي رسالة. لاح على وجهها ابتسامة حزينة.

- هل تكتب؟

اومأ برأسه أن «نعم».

- لا شك أنها قصيدة؟

- نوعا ما.

- هل سبق أن أخبرتك بذلك؟ أنا لا أحب الشعر. إنه يذكرني ببعض الأشجار، أزهارها عطرة وثمارها مُرَّة. لكنني أعلم أنه ليس ذلك رأيك.

وسألته بغتة:

- هل أنت سعيد؟

- سؤال غريب.

- غير مكتمل، وهذه غلطتي. أصحح: فكرة أن تصير أباً، هل تجعلك سعيداً؟

- أو تشكين في ذلك؟ سوف تغمرني السعادة.

- سواء كان ولداً أو بنتاً؟

- هذا لو تلك، سيدخل علي السرور.



- حسنا. هكذا تزيح عني شيئاً من الجزع. آمل رغم ذلك أن يكون ولداً ذكراً. لأجل البرتغال.

دنت من المقرأ حيث وُضِعت الرسالة وسألت بإهمال:

- هل تسمح لي بقراءة قصيدتك؟

- لقد قلتِ ذلك منذ حين: إنك لا تحبين الشعر وثماره المرّة. أخشى أنك لا تستطيعين تحمل مرارة هذه الأسطر.

- بالطبع. فهمتُ.

أمسكت مروحتها من طرف مقبضها، وفتحتها قرب وجهها.

- فهمتُ، كرّرت قائلة.

ثم أضافت بصوت مكسور:

- أنا ودونا إيناس لا نقتسم الملذات نفسها.

ثبت فيها بيدرو بصره:

- كونستانزا، أظن أن الوقت قد حان لنتحدث.

- هل تأمل ذلك حقا؟

- أجل. لكن ليس هنا. سوف آمر بأن يسرج فرسي.

تحركت بفزع.

- إنك لا تقصد ذلك! تعلم جيداً أني أكره ركوب الخيل ثم أنظر إلى لباسي!

كان الهواء النقي يجلد وجه كونستانزا. مرتدفة خلفه بجنب واحد، كانت ملتصقة ببيدرو، تشعر بالذبذبات الصاعدة من الأرض والتي تدب في جسمها كله. العجيب أن خشية اللحظات الأولى اندثرت وحل مكانها إحساس بالنشوة لا ريب نابعة من اكتشاف أنها جزء من تلك الوحدة الثلاثية. وحدة الانسان والطبيعة والحيوان مجتمعة. جالت كلمة «شهوانية» بخاطر الإنفانتا، وأبعدتها فور ظهورها.

قبالتهما، بدت رابية للتو، وصخرة منحوتة، ضريح قديم نبت



عمودياً في قمتها. صعدا المنحدر بسرعة فائقة. هناك في الأعلى، ترجل بيدرو ورفع كونستانزا من خصرها.

- أقبلي، قال وهو يضعها على الأرض. هنا لن يزعجنا أحد.

وهي ما تزال شاردة الذهن، استفسرته:

هل سبق أن قدمت إلى هنا؟

- مراراً. كانت المرة الأولى رفقة مصالا. كنت أبلغ اثنتى عشر سنة.

مد يده نحو الأفق.

- أنظري! أليس المنظر رائعاً؟

على امتداد البصر تنعطف تلال وحقول القمح، ولا يعيقه بيت، جانب من سور أو طريق. وحدها السماء وقد امتزجت باتساع المنظر الطبيعي.

- إنه جميل جداً بالفعل.

- هذه «أرض الخبز». أرضي.

داعبت كونستانزا خفية سطح الضريح البارد.

كنت تأمل أن نتكلم.

استسلم للتهالك عند قدم سنديانة.

- هل ينبغي لي إخبارك أني أشعر إزاءك بعاطفة كبيرة؟ أعتقد أنك أحسست بذلك.

- أحياناً. أجل. حينما يحدث أن تضاجعني بلا حب.

- لا نستطيع أن نحب شخصين في آن واحد.

ترنحت على ساقيها ولزمها الاستناد إلى الشجرة حتى لا تنهار. لم يخبرها بشيء لم تكن تعلمه من ذي قبل، لكن البوح كان له أثر الخنجر المغروس في صميم القلب. الآن، حدثت نفسها أنها كانت تفضل ألف مرة الاستمرار في وضع من يعرف دون أن يعرف. أن يعلم



المرء أنه تعرض للغدر شيء مؤلم، محتمل أحيانا؛ أن يسمع به من فم من يغدره، يصبح غير قابل للتحمل.

- كان في وسعي إرجاعها إلى قشتالة، كنت تظن هذا، أليس كذلك؟

- لماذا لم تفعلي؟ ما يزال هنالك وقت.

- سوف يكون ذلك أكثر سوءاً.

اندسّت بالقرب منه.

- لا أمتلك تجربة كبيرة في أمور الحب، ومع ذلك، أنا إمرأة. تهمس لي غريزتي (لا شك أني مخطئة) بأنه حينما يتعلق الأمر بالقلب، الفقد والمنع أشد وخزاً وطعناً. إن انتزعتها منك، هل كان ذلك سيعيدك لي؟ أجبني، بيدرو؟

- أن أعلم بأنها هنا، على بعد خطوات، فذلك يربحني، وإن صارت ممنوعة علي، باختيار منك. إن أنا تصورتها غداً بعيدة المنال، سأهجرك للالتحاق بها، أينما كانت.

- وتهجر كل شيء؟

- كل شيء.

- لقب ولي العهد؟ المملكة؟

- لقد سبق أن وضع علي مصالا هذا السؤال.

- بمَ أجبته؟

- بأنه لا يصح حكم المملكة من طرف ملك شَقِي؟

وضعت كونستانزا يدها على صدرها. كل كلمة ينطق بها مَيْسَم محمًّى ينفذ إلى بدنها. رغم مجهوداتها كلها أخذت الدموع تسيل على خديها.

- أمام الرب والناس، أظل زوجتك.

- أنا مدرك لذلك.



إذن يجب قطع تلك الصلة!

أو لم يتم ذلك مسبقا؟ عند اختيارك لها كافلة فقد قمت بنفي كلٍ منّا عن الآخر.

ربما. لكنني لم أستطع نفيك بعيداً عن بالها، ولا هي عن بالك.. لأنها تفكر فيك دوما، كن على يقين بذلك.

نهضت، مسحت دموعها بظاهر يدها وهتفت بصوت صار جازماً بغتة:

- حسناً. ماذا تنتظر مني؟ أن تعيش هي وأموت أنا؟

قام بدوره وأمسكها من كتفيها.

كلا. عيشي، كونستانزا. عيشي ألف سنة. سأظل زوجك في نظر الناس والرب بما أن آخرين هم من أراد بنا ذلك. لكن لا تطلبي مني أن أكمم خواطري وأن أكسر ولو حلقة من السلسلة التي تربطني بإيناس دي كاسترو.

- هل تقسم لي بأن لا تعود لرؤيتها؟

- هي من استوجب أن ننفصل. لم تعد ترغب أبداً في أن يتعرض شرفها للإساءة. لن أتصرف ضد إرادتها.

ظلت مقيمة على صمتها. هل كان لها خيار؟ كانت تستطيع أن تواسي نفسها بالقول إنها أفلحت في تحريم وصالهما. لن يجتمع أبداً جسديهما. هذا على الأقل كانت مقتنعة به. لن تجسر إيناس على تجاوز الحد الفاصل بين الزنى والتجديف. وعليه، لا يهم روح كل منهما! سوف تواصل الحفاظ على بيدرو، وذات يوم تصير ملكة البرتغال. هي ستربح كل شيء! وإيناس ستخسر كل شيء.

- فليكن الأمر كذلك، قالت وقد زاد اطمئنانها.

- فليكن الأمر كذلك، ردد بيدرو معها.



برغش، في قشتالة.

قال فرانسيسكو، وهو مطرق بصره:

- أجل، جلالتك، رغم كل جهودنا فقد رفضتْ مساعدتنا.

ورمى بنظره خزراً نحو أخيه خوان ورأى بأنه لم يكن في وضع مريح بدوره. لقد عادا إلى قشتالة منذ يومين، ولم يغمض لهما جفن منذ يومين، وها يدركان فشل مهمتهما والعواقب التي قد تنجم عنه ومع ذلك، لقد بذلوا كل ما في وسعهم للتغلب على إعراض إيناس، مستعملين الوعيد تارة والتوسل تارة أخرى. لم تُعر أدنى اهتمام لذلك، ومتحصنة بصفة محتومة خلف اللازمة نفسها: «بيدرو، لن أخون أبداً بيدرو». وفي نهاية المطاف، أفلحا في الوصول إلى السبب الحقيقي وراء هذا التعنت. من كان يتخيل ذلك؟ إيناس؟ الشديدة العفة! هي التي كانت تبدو أكثر نساء قشتالة وليون ورعاً. هي التي كانت تحمر خجلاً من لاشيء. لو عَلِم والدهم الهرم، المبجل دون فرنانديز، لخنقها بيديه.

شبك المتقم ذراعه وتفحص الثنائي قبل أن يعلن:

- ها إننا وصلنا إلى طريق مسدود.

- أخشى ذلك، يا مولاي.

وسرت في تقاطيع الملك الشاب ملامح ساخر.

- هل تعلمان ما يحكى هنا وهناك بخصوص أختكما؟

صعق الأخوان.

- الأخبار تصل بسرعة، لاحظ العاهل.

- ماذا يقال، يا جلالة الملك؟

- إن دونا إيناس تضاجع الإنفانتي، وإن دونا كونستانزا التي من أهلنا تعاني أشد العذاب.

تبادل مخاطباه نظرة مذعورة.



هكذا إذن، شاع الخبر في قشتالة. شرف أختهما الملطخ على كل لسان.

من المرجح أن تلك ليست سوى أقاويل، بادر خوان متكاسلاً.

عداك فيه الصواب. لقد وصلتني أخباري بخط يد سنيور كارلوس فالديز مبعوثنا إلى البلاط. هل تريدان أن أتلو عليكما رسالته؟

- لا داعي، مولاي. قال فرانسيسكو معتذراً.

- خسارة، أقوال فالديز لاذعة بما فيه الكفاية، لقد حكى لي من بين ما حكاه عن وليمة أعياد الميلاد تلك التي عرضت فيها إيناس نفسها للفضيحة، حينما وقفت، وسط قاعة الطعام، وصفقت بيديها مثل أي قروية منحطة، على مرآى من دون بيدرو الولهان.

بسط ذراعيه وأكب إلى الأمام.

- وعليه؟ ما رأيكما؟

لم يحصل على جواب.

- أنا، استأنف العاهل القشتالي. أنا سوف أخبركما بالأمر. أعتقد أنه ما كان في وسعنا أن نحلم بوضع أفضل من هذا.

ظن الأخوان أنهما لم يسمعا جيداً ما قاله.

- بلى! فكراً في الأمر. عنق البجعة. هكذا حقا يلقبونها حينما كانت تقيم في البلاط؟ لقد حبست عنق البجعة الفتى بيدرو بين شباكها. تمام. الرجل يعشقها. بجنون إن صدقتُ سفيرنا هناك. تمام أيضاً. كلنا يعلم حقاً كم إن الرجل الولهان يصير مغفلاً وبالتالي سهلٌ قهره. إذا وجِدت هذه الخريطة، إذا كانت فعلاً بين يدي جيراننا، فمن المستحيل أن لا يكون الإنفانتي على علم بالأمر. ونتيجة لذلك، يكفي أن تعمل الجميلة إيناس على استدراجه في الكلام. لاشيء يتيح البوح بالأسرار مثل وسادة وثيرة.

حدق خوان في الملك بحرج.



- مولاي، كان ذلك ممكناً لو أن أختنا قبلت بالتعاون. لكن...
- رفضتْ. لقد فهمتُ جيداً.

اعترف العاهل نفَساً طويلاً. تبدلت خِلقته. قد يقسم المرء أنه وحش مفترس.

- حتى هذه الساعة، تركتُ لكما الحبل على الغارب، ولم أجادلكم، ولا لحظة واحدة. لم أكن دائماً على رأيكما، ورغم ذلك لم أعترض. حينما تعقبتما أثر لاطران، أيّدتكما. حينما عزمتما على مكافأة ذلك الفرانسيسكاني، أيدتكما، بينما، وهذا أمر يجب علي ذكره، كانت أدنى أسباب الحيطة تقتضي التحقق من مضمون الوثائق التي سلمت لكما. حينما أخبرتماني بأنكما أجبرتما على قتل الراهب، أيدتكما مرة أخرى. حيث في نظري لا ترقى حادثة قتل بسيط إلى درجة الجريمة. حينما عرضتما عليّ ذهابكما إلى البرتغال إذ أوحيتما لي بأن شقيقتكما سوف تعيننا، تمنيت لكما رحلة موفقة. الآن، انتهى كل ذلك.

خبط ألفونسو الحادي عشر المائدة بقبضته.

- من الآن فصاعدا، أيها السيدان[1]، سوف أتكفل بالأمر. بما أن هذه القضية صارت نوعاً ما قضية عائلية، فإني عزمت على التعامل معها بتلك الصفة.
- ماذا... ماذا تقصدون، جلالتكم؟

صدح الملك:

- بتلك الصفة! بتلك الصفة!

أمال رأسه إلى الخلف وتابع تزاويق السقف وعيناه مثبتتان:

- أظن أن شقيقتكما الغالية - مثل كل الشقيقات - متعلقة كثيراً بأبيها...

---

(١) بالاسبانية في الأصل: Senores.

رد الأخوان وكأنهما رجل واحد.

إنك لن...

- بالتأكيد سأفعل! في غضون ساعة، سيتم القبض على دون فرنانديز دي كاسترو ووضعه في السجن.

كلا! صاح خوان. ارحمه. إنه شيخ هرم. لن تتحمل حالته الصحية ذلك.

- فكر في العار، أضاف فرانسيسكو. ثم فيم سوف يفيد ذلك قضيتنا؟ لماذا، جلالتكم؟

- الأمر بسيط. سوف تكتبان في الحال رسالة إلى شقيقتكما. رسالة سوف أملي عليكما كلماتها الأساسية. أستطيع من الآن تلخيصها على هذا النحو: إما تتعاون دونا إيناس معنا، وإما يقبع دون فرنانديز داخل زنزانة إلى آخر يوم في حياته. كل يوم من التردد سوف يكون يوماً من المعاناة الإضافية لوالدها. كل أسبوع من المراوغة سوف يكون اسبوعاً من الرعب بالنسبة إليه.

ختم الملك والشرر يتطاير من عينه.

- خذا أقلامكما!

الفينيون، تلك الليلة ذاتها

ممدد على فراشه، مرر الأفريقي سبابته بتلذذ على نصل خنجره.

- يصعب علي تصديق ذلك، دمدم الرجل. أنا هنا! في حجرة المتسولين هذه.

- كفَّ عن الشكوى، صاح به كابرال. إنك تتعبنا!

- وأعد خنجرك إلى غمده، قال له كفاكو ناصحاً. إن كنتَ قد نسيتَ ذلك، أذكرك بأن الميت لا يتكلم. ليست غايتنا قتل الرجل، بل انتزاع معلومات منه.



- كشفت تكشيرة عن أسنان الأفريقي المائلة إلى السواد.

- طبعاً، لكن ما إن يتكلم...

وضع النصل على مِنْحره وتظاهر بذبحه.

دق ناقوس في مكان ما من القصر.

- هيَّا، قال كفاكو آمراً، سوف يتم تقديم الطعام. وهي فرصة للتعرف على كامبيني ذاك.

- لكن يجب تحديد هويته أولاً، قال كابرال مذكّراً.

- معطف بني، خصر مشدود بحزام من ليف القنب. قمة رأسه ربما تغطيها قلنسوة... ألن يكون بمثل لباسنا؟

- مهلا! هتف الأفريقي. ها هي فكرة لم تخطر ببالي من قبل!

نظر إليه رفيقاه باندهاش.

- عن أي فكرة تتحدث؟

- ليف القنب، يا إخوتي، ليف القنب... سلاح مناسب لمن يحسن استعماله...



١٧

كانت غرفة الطعام خالية أو تكاد. وحده راهب تقدم الثلاثي. استفسره كابرال باحترام:

اعذرني يا أبتي، هل يسعك إخباري إن كنا نستطيع الجلوس بينكم؟

غمغم رجل الدين شيئاً يشبه كلمة «نعم».

اختاروا المائدة المتوارية أكثر عن الأنظار وجلسوا إليها.

- هل تظنون أنهم يقدمون حساءً حقيقيا؟ قال الأفريقي وقد استبدت به الحيرة، أم علينا الاكتفاء بطبق من اللحم؟
- أو ليست لديك مشاغل أخرى؟ رد كابرال. حري بك أن تفكر في العثور على رَجلنا.
- في هذه اللحظة، لا نستطيع القول بأنه ذاب وسط الجمع! لو سألتماني رأيي، لابد أن الأكل هو من السوء بحيث لم يعد أحد يتردد على المكان.

أومأ كفاكو برأسه.

عداك فيه الصواب. ها إنهم قادمون.

وبالفعل، كان الرهبان يسرعون في مجموعات صغيرة. سرب بلون البُن والسواد، تفرقوا هنا وهناك، على طول الموائد. وبعد ذلك بحين، لم يتبق سوى بضع أماكن شاغرة.



كان كابرال وكفاكو يتفرسان بانتباه كل طيف من الأطياف، ولا يغفلان أحداً. ويعودان بنظرهما نحو هذا أو ذاك كلما خامرها شك.

- إنه غير موجود هنا، أعلن كابرال.

- ما المقصود من ذلك؟ قال الأفريقي مذعوراً. هل هو صائم؟

- صبراً، قال أنيبال كفاكو للتخفيف من روعه. لن يتأخر بعد هذا.

مرة وقت طويل. جاء رجل دين شاب وقد انقطع نفسه تماماً حينما شُرع في الإطعام. ثم، لم يصل بعده أي شخص آخر.

- والآن! سألهما كابرال. ماذا نصنع؟

- ننصرف بسرعة، زمجر الأفريقي الذي كان يرمق صحنه بمؤخر عينه مشمئزاً. هل رأيتما هذه الحسوة؟

- يبدو لي أن ذلك عبارة عن ثريد.

- ثريد؟

- دع هذا، صاح به كفاكو. كُل أو اغلق فمك.

كان سوف يتابع كلامه مخاطباً كابرال، لكن هذا الأخير أخذه على عجل:

- هناك، جنْب الكاردينال!

أدار كفاكو بصره.

كان مونسنيور دو فونتناي قد جاوز قاعة الطعام، وكامبيني يمشي بحذائه.

- هذا جنون! همس كابرال. يأتي لنا الكاردينال برَجُلنا على طبق من فضة. ها إنهما قادمان نحونا.

لم يبدُ أن كفاكو قد استحب الأمر.

- ما كنت سوف أحتاج لذلك. لم أتوقع أن يتم لقاؤنا على ذلك النحو.

حبس ذراع الأفريقي.



- لا تنطق بأي كلمة!
كان الكاردينال قد وقف أمامهم حينئذ.
- مسا الخير، إخوتي، قال بابتسامة عريضة. ها هو الرفيق الذي كلمتكم عنه. أقدم لكم الأخ أوريليو كامبيني.
نهض كفاكو وانحنى احتراماً.
- لي الشرف، أخ كامبيني. اسمي أنيبال كفاكو. وهذان صديقَيَّ فِتُورْيُو كابرال، و... بعد لحظة خفية من التردد... أندريا بورتناري.
- بورتناري؟ لاحظ كامبيني وهو يلقي بعينيه الضيقتين المشككتين نحو الأفريقي. أنت من أصل توسكاني؟
اكتفى الافريقي بالموافقة محركاً راسه.
- هكذا، عاجل كفاكو متدخلاً، كنتَ مقيماً بديرنا في أسكولي؟
- صحيح، انتم أيضاً، وفق ما قاله مونسنيور. أمر غريب. وجوهكم غير مألوفة لدي.
ضحك كفاكو ضحكة مقتضبة.
- ولا وجهك أيضاً. لكن ذلك أمر طبيعي. نحن لا نقيم بآسكولي سوى منذ بضعة شهور. ثم...
قاطعه فونتناي.
- أعذروني، لكن يجب أعود إلى داري. ألقاكم عما قريب.
أشار كفاكو إلى المقعد.
- تفضل بالجلوس، يا أخ... (وعن قصد ترك جملته معلَّقة) أنا محرَج، لم أعد أذكر اسمك.
- أوريليو كامبيني.
- أوريليو، هو ذاك. اجلس إذن.
ظل الفرانسيسكاني ثابتاً في مكانه. كانت عيناه تنتقلان من هذا لذاك، وكأنه يسعى إلى فك شفرة نص غير مرئي. شيء ما يزعجه في هؤلاء الرجال الذين لم يستطع أن يحيط بهم.



- كلا، قال بعد حين، أشكركم. أفتقد الشهية هذا المساء. أتمنى لكم رحلة موفقة. لقد أخبرني مونسنيور بأنكم ذاهبون إلى كومبستيلا، أليس كذلك؟
- صحيح.
- إنه طريق شاق ذاك الذي يؤدي إلى جاك الأصفر. على الأخص في الشتاء.
- فعلاً. لكن أليست طريق التضحية هي الوسيلة الأكيدة لشكر الرب؟

وافق كاميني بوجه لا يبدي أي شعور.

- أودّعكم، صرّح بجفاء مباغت. ربما تسنح لنا الفرصة باللقاء من جديد قبل رحيلكم.

ومن دون إطالة انتظار، دار على عقبيه.

- سوف نلتقي بالتأكيد، يا محتال، وشوش الأفريقي. هذا مؤكد،

قصر مونتيمور

حبيبي بيدرو، رسالتك ما تزال دافئة بجلدي. لقد حفظتها الليل كله لصق قلبي. نمتُ، بلا حركة، لا أجرؤ على التحرك، وبالكاد أجسر على التنفس، خشية من ثني الصفحات.

شكراً. شكراً لأنك هنا. إني أشعر بك. إني أتنفسك. تجري في عروقي وتطهرني. لقد علمت بخصوص جلالته، ووصلتني أخبار بخصوصك أيضاً. سلِم الملك، ومأثرتك على كل لسان. وعلى لسان مصالا خصوصاً. هو من حكى لي كل شيء. إني أفهم، كم أفهم! المشاعر التي تكنها لهذا الرجل. هل أنا في حاجة لإخبارك بأنه يُجِلك بما يفوق الحدود؟ إنك محظوظ حقاً إذ بجانبك مخلوق من طينته. أحياناً، حتى لو كان المرء محاطاً بأب وأم فإنه يشعر بشدة اليتم. أجزل الثناء لربك لأنه أجزى لك العطاء على هذا النحو.



تمر الأيام وتتشابه، وكل أسبوع يصير بطن دونا كونستانزا مستديراً أكثر بقليل. أظن أني أميز حملها النازل. علاوة على ذلك، كل الوقت نعمد إلى وضع الملح في طعامها أكثر من العادة وتفضل قشرة الخبز على لُبِّه. سوف يكون ولداً ذكراً إذن. إنك محق حينما تكتب بأنها إضافة إلى آصرة الدم التي تجمعنا سوف تقوم رابطة إضافية، رابطة حب مشترك للمخلوق ذاته. هكذا حقاً أرى الأمر. وهذا المنظور كذلك هو ما يسمح لي بأن لا أموت تماماً ويمنعني من الركض نحوك. آه! لو تعلم. لو أنك تتخيل فحسب اشتياقنا لبعضنا الذي ينخرني. حينما يشتد الألم كثيراً، أوشك أن يغمى علي، ولا تخطر ببالي سوى فكرة واحدة: أن أتنكر لذاتي، أن ألقي في النار بالعهد الذي أخذته على عاتقي وأستعيد من جديد يقين ذراعيك. أحبك، بيدرو. أحبك أكثر من حبي للحياة. ومع ذلك، إن حبي للحياة لا حدود له. لقد تناهى إلى سمعي أن علاقات الحب التي نعيشها ينتهي بها المطاف في هذه اللحظة أو تلك إلى أن تفقد من وهجها. في لياليّ الخالية من النوم، أحدث نفسي بأنها ربما توجد هنا تلك الهدية التي منحها لنا الرب. إننا لن نهرِم ونحن معاً، وإنما جنباً إلى جنب، هكذا لن تذبل الشمعة، وستظل متقدة على مر الأيام والساعات، بشوقنا، بعطشنا، بجوعنا الذي لن نشبعه. بي جوع إليك يا حبيبي.

ايناس

- ها أنت ترى يا مصالا، ألم أكن على صواب حينما قلت لك إنها من لحمي ودمي؟ وحينما قلت لك أنها لم تسبقها أي امرأة، ولن تعقبها أخرى؟

أمسك العبد سبحة من الصدف واجرى برفق الخرزات بين الإبهام والسبابة.



- سأجيبك، يا مولاي، لكن مرة أخرى ستجدني مفرطاً في تشاؤمي أو مفرطاً في قلقي. هل سبق لك أن قرأت شيئاً من القرآن؟ بالطبع، لا. إذن اسمح لي أن أعرض عليك سورة أجد أنها ذات مغزى على نحو خاص.

توجه ناحية رف صغير وأمسك بالكتاب الوحيد الذي كان موضوعاً هناك.

- انصت، إن الأمر يتعلق بالسورة التي اسمها «البقرة»، الآية ١٦٥. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾!

رفع رأسه.

- هل تدرك معنى هذه الكلمات؟

أجاب بيدرو بالنفي.

- إنها تكتب إليك «أحبك أكثر من حبي للحياة». لكن ما الحياة إن لم تكن نفحاً من العلي القدير، وأقدس هبة؟ تقول لي عنها: «إنها متفردة». الله هو الواحد الأحد، دون بيدرو. ألم تسر إلي بأنك كنت مستعداً، أثناء أوقات هذيانك، ما إن تصبح ملكاً، لحمل السلاح ضد رأس المسيحية ليمنحك الطلاق؟
- لم أكن جاداً! تعلم ذلك جيداً.

تبسم مصالا قليلاً.

- اسمح لي بأن أفتح قوساً. من بين امتيازات عديدة، فإن تلك المتعلقة بالحياة الزوجية تؤكد تفوق الإسلام على دينكم. من عظمة بصيرته، علمه تعالى بأن النساء لسن فحسب عرضة للزلل، بل إنهن يسعين أبد الدهر نحو السعادة. لذلك السبب يسمح لنا باتخاذ أربع زوجات، مثلما يسمح لنا بتطليقهن حينما نصير تعساء. بينما حُكم عليكم بالعيش مع الشعور بعدم الرضا.



أطلق بيدرو صرخة استياء.

- أخبرني بالأحرى عمّا ترمي إليه؟

أعاد البربري الكتاب مكانه على الرف واستعاد سبحته .*أحبك أكثر من حبي للحياة*، هذا ما كتبته. وأنت، حينما تستحضر ذكرى إيناس، تقول: *إنها متفردة*. ينبغي الحذر من الكلمات، مولاي. الكلمات، مثل الأفعال، قد تثير سخط القدير وغضبه. إنك تحب دونا إيناس بشدة. وهي تحبك بشدة: إلى حد أنه يساوي حبك للرب أو تجعله في المرتبة الثانية. خذ حذرك، دون بيدرو! في كتاب اليهود ورد أن الرب إله غيور. لا يقبل القسمة. الآية التي تلوتها عليك في الحين تقول تقريباً الشيء نفسه. احذر أن لا تغضب الإله!

أطلق بيدرو ضحكة مجلجلة.

- إنك تذكرني بتلك العرَّافة العجوز التي قرأت خطوط كفي حينما كنتُ في ايفورا. هل تعلم ما غمغمت به لي؟ (ثم اقتبسَ:) «لا ينبغي، وإلا أنت أو هي حتى نهاية العالم!» Até ao fim do mundo!

ختم الانفانتي بهز كتفيه.

- إذا كان لابد لي من الحفاظ على إيناس حتى يوم الحساب، فليكن، فإن هذا الأمر المنظور يفرحني، ويسمح لي بتحمل كل ما أتحمله. لكن لنغير دفة الحديث.

واستولت ملامح صارمة على وجه الأمير.

- لقد حدث شيء عجيب في الكتيم. شيء لم أفلح في تفسيره وهو يستحوذ علي منذئد.

- يبدو أنك كنتَ مثيراً للإعجاب بشجاعتك.

- لم أفعل سوى ما أملاه علي واجبي.

مدَّ بيدرو يده نحو سبحة مصالا.



- هل تستطيع إعارتها لي؟

قال العبد ساخرا:

- هل تنوي اعتناق هذا الدين؟

- كفى مصلا، أنا جادّ.

وبدوره أخذ الانفانتي يسبح بخرزات الصدف، لكن خلافاً لعبده، فعل ذلك على نحو متسارع ومتوتر.

- لقد أزهقتُ أرواحاً. لا أدري كم رجلاً قتلتُ. من شدة ما كان سيفي أحمراً من الدم لم أعد أرى نصله. أراني وقد غشاني غمام أغرز سيفي في الأجساد، واقطع الرؤوس كما لو كانت ثماراً. كان ذلك إحساساً غريباً. أنت المؤهل أكثر لمعرفة كم إن رؤية الدم تزعجني. رفضي للقنص خير دليل على ذلك. أذكر أني ذات مرة، لعلي كنت في الثانية عشر من عمري، أرغمي والدي على مرافقته لمحاصرة الخنزير البري. بعد ساعات كثيرة من المطاردة أفلحت الكلاب الصاخبة في إخراج الوحش من معقله. كان خنزيراً برياً ضخماً، يغطيه وحل حظيرته حيث كان يرتع. واحد من أولئك المتوحشين الذين لا يثقون سوى في أنيابهم، القادرين على تمزيق بطن المرء بضربة واحدة. وكان فريسة للكلاب. سهم، فسهمان، ثم ثلاثة أسهم انطلقت من الأقواس، ظننتُ أني رأيتُ رأس الخنزير ينشق بمعنى الكلمة أمام الأعين. زلزلت صدمةً مجلجلة الأرض. غمر الغثيان أنفي. أمرني أبي حينها بالترجل من مطيتي وأجبرني على تأمل احتضار الوحش حتى اللحظة التي لفظ فيها أنفاسه الأخيرة. ولأمد طويل، ليالي كاملة، لم أتخلص من استحواذ مشهد تلك الفطيسة المتسخة بالوحل والدم، وتلك العينين المشعتين اللتان كانتا ما تزالان تجدان في الألم القدرة على إطلاق التهديدات.



صمَت بيدرو. الآن، أصابعه تفرك السبحة كما لو كان يريد سحق الخرزات.

- الرهبة، استأنفَ بعد حين. منذ لك اليوم، استولت الرهبة من الموت ورفض الظلم على عقلي. رفض الظلم باقي؛ أما الخوف من الموت فقد هجرني منذ معركة الكتيم. لكن هناك ما هو أشد حيرة...

سكتَ من جديد ولفظ الاعتراف المثير:

- لقد شعرت بالابتهاج من إزهاق الأرواح..

ظل وجه مصالا متبلد الاحساس.

- أجل، كرر بيدرو. لقد أحببتُ النظر إلى وجوه أولئك الرجال المتحطمة، إلى رعبهم، وعدم تصديقهم حينما كان سيفي يخترقهم. أحببت النظر إلى سقوط تلك الأجساد، وقد تفككت أوصالها فجأة، وشعرت أن بداخلي يكبر إحساس مهيب بالقوة والسُكر في النظر إلى الحياة الهاربة على هيئة أمواج منكسرة من الجراح الغائرة.

وختم بملاحظة:

- ربما ذلك هو هجر عالم الطفولة نحو عالم الكبار الراشدين. في هذه الحال، يمكن لوالدي أن يكون راضياً.

- هراء!

- هراء؟

- ألم يسبق لك أبداً أن شاهدت بعض الأطفال يضربون الأرض بأرجلهم من شدة الفرح، أو سمعتَ ضحكاتهم أمام ارتعاشات سحلية تحتضر؟ ألم تكن يوماً شاهداً على سخريتهم حينما يهاجمون جماعة على الأضعف بينهم؟ كلا. خلاصتك ليست حسنة.



- وهل لديك غيرها فتقترحها علي؟

- كلا. تذكر هذا فحسب: إنْ راودك هذا الشعور بالابتهاج مرة أخرى، سوف يعتريني الخوف إن كنتُ مكانك. الخوف الشديد.

افينيون

إنه طريق شاق ذاك الذي يؤدي إلى جاك الأصغر.

كان كامبيني يغلي غضباً. إن فونتناي يعتبره حقاً من أشد الأغبياء. جاك الأصغر! لماذا هذا المدعو الفرانسيسكاني سقط في فخ بهذا القدر من الفجاجة؟ لا يوجد في الدنيا بأسرها رجل دين واحد لا يعرف بأن القديس جاك، ابن زِبيدي وسالومي، مبشر اسبانيا، كان يحمل لقب الأكبر. لقب سمح بتمييزه عن الحواري الذي له اللقب نفسه، أسقف أورشليم والذي كان ينادى عليه باسم جاك الأصغر.

هزت ضحكة متوترة الفرانسيسكاني بينما كان يرفع فراشه القش.

الرحيل، يجب الرحيل بكل سرعة. لن يحمله معه سوى السوط، سنده الوحيد، رفيق الأبد. أما الوثيقة، فستكون بأمان أكثر هنا، تحت البلاطة، مما لو كانت معه. لاحقاً، سيتدبر أمرها. أولاً يجب أن ينفد بجلده.

فتح الركن الصغير المصنوع من خشب السنديان وأخرج منه بعض الملابس، ثم أدخلها في رزمة وهرع نحو الباب.

وبينما كان ينزل السلم المؤدي إلى الطابق الأسفل أربع درجات فأربع، كانت الف خاطرة وخاطرة متضاربة تتصارع في رأسه. لقد استشعر التهديد ولم يستطع تحديده بوضوح، كما لم ينفذ إلى آليته. أي صلة تجمع هؤلاء الرجال الثلاثة والحَبر؟ إذ لابد من أن هذه الصلة موجودة، وإلا ما السبب الذي جعل فونتناي يصر بكل ذلك



القدر من أجل أن يقدمهم إليه؟ إلا إذا... وماذا لو أنه أخطأ طريقه؟ لو أن الأمر كان صدفة؟ لو كان فونتناي لا يعلم أي شيء عن هؤلاء الأشخاص؟ في هذه الحال، فإن الوضع أشد خطورة مما تصوره. إذا كان هؤلاء الرجال حضروا إلى أفينيون، فذلك لأنهم على علم. من أرسلهم كان لديه خبر بعودته إلى المدينة البابوية. ظن كامبيني أنه ميَّز لكنة ضفيفة حينما تكلم كفاكو ذاك. لكنة اسبانية، ربما. أما الآخر، ذاك الشخص الذي له رقبة ثور، لاشيء فيه يوحي بأنه توسكاني. الأمر الأكيد، من الأفضل أن لا يقع بين يديه. نظرة واحدة من كامبيني كانت كافية للحكم عليه: إنه قاتل. واحد من أولئك الوحوش الذين يستطيعون نقل المرء من الحياة إلى الموت دون أن يرف له جفن.

جاوز بخطى سريعة دهليز مجمع انتخاب البابا واقترب من جناح الوجهاء الكبار. في هذه اللحظة أبصر الرجال الثلاثة عند الطرف الأقصى من الممر. كانوا يسدون عليه الطريق. صاح كفاكو:

- أخي! يا لها من مفاجأة سارة. في الواقع، كنا نبحث عنك.

مذعوراً، دار كامبيني على عقبيه.

- إلى أين أنت ذاهب؟ انتظرنا! صاح البرتغالي مرة أخرى.

وهو يتكلم، اشار إلى رفيقيه بالإسراع.

إنهم يركضون الآن وكان الممر يضج بظلالهم المختلة.

كان كامبيني يركض أيضاً. لكن بسيقانه القصيرة، لم يساوره أدنى شك. لن يتأخر مطاردوه في اللحاق به. أين المفر؟ كان العرق يغرق عينيه، وقلبه يرجف بين ضلوعه. أين المفر؟

قاده جريه، دون قصد منه، قبالة حجرة حاجب البابا. لم يتردد. دخل الحجرة. لا أحد. شمعة كبيرة تلقي وهجاً أمغر على طول الجدران. باب آخر يؤدي إلى خزانة الكتب. هرع نحوها. كانت



موصدة. خبط بقبضة يده، دق المقبض بشراسة. بلا طائل. حينما أرا
الرجوع على عقبيه، كان الأوان قد فات. كانت يد قد حبست رف
حينذاك. للوهلة الاولى، شعر كامبيني وكأن الأمر يتعلق بقيد معدني
ما تستطيع يد إنسان أن تكون بتلك القوة. شعر بأنه يُسحق على البا
صدم رأسه عضادة الباب بشدة وانتزع منه صرخة ألم.

- اتركني!

اعوجت شفتا الأفريقي بتكشيرة.

- هدئ من روعك أخي. نريد فقط أن نحادثك.

- اتركني!

قال كفاكو آمراً:

- اتركه!

اقترب ببطء من الفرانسيسكاني.

- استدر.

امتثل كامبيني. خيط من الدم يسيل على طول وجنته. تمتم:

- ماذا تريدون مني؟

- الشيء القليل حقاً، رد عليه كفاكو.

كانت نبرة صوته محايدة، غير مبالية تقريباً.

- نريد وثيقة فقط... خريطة. خريطة بحرية، على وجه الضبط.

- أنتم مجانين! لا أملك شيئاً مثل هذا!

- أوه! صاح كابرال من جديد، متظاهراً بالمبالغة في القول. وأنا من كان يعتقد بأن رجل الدين لا يستطيع الافتراء!

- الخريطة، زمجر كفاكو. أين هي؟

- لا أعرف عن أي شيء تتحدثون!

- هنا ربما؟

أخذ كابرال الرزمة التي أسقطها الفرانسيسكاني. فك الحبل الذي



بشدّ طرفها الأقصى وأفرغ ما فيها على الأرض. أول شيء رآه هو السوط العقرب. رفعه بين الإبهام والسبابة بتقزز ظاهر.

سوط؟

ثم سأل الفرانسيسكاني:

ما الغرض منه؟

قال الأفريقي متهكما:

لمعاقبة ذكره إنْ شرع في الإنعاظ.

أنهى كابرال تفتيشه.

لا شيء، أعلن وهو محبط. ليس هناك سوى خِرَقٍ حقيرة.

حينها استدار كفاكو نحو الأفريقي:

إنه تحت تصرفك...

أخرج الرجل خنجره.

والغريب أن الخوف الشديد الذي ساوره في اللحظات الأولى هجر كامبيني. لا رعب أمام السلاح، ولا حركة احتجاج. بل إنه انتصب واستقام في وقفته، رقبته متصلبة ورأسه مرفوع.

فطن كفاكو لهذا التغير في الهيئة. رد ذلك إلى الاستهتار، ما لم يكن إلى روح التضحية؛ تلك الروح التي كانت تسكن المسيحيين الأوائل حينما يدخلون الحَلَبة.

لامس الأفريقي صدغ الفرانسيسكاني. بدقة صانع حليّ، جعل السّنان يزلق مشكّلاً نصف دائرة، من الأعلى إلى الأسفل، حتى الذقن.

- الخريطة؟ أين هي؟[1]

لم يحصل على رد.

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: Omapa?onde está?

ظن الأفريقي أن ضحيته ربما لا يفهم اللغة البرتغالية. لا يهم! دو
فعلته لكن هذه المرة ضغط بالسنان على الجلد. كان التلذذ بادياً، شق
البشرة من الجانب الأيمن للوجه، وتوقف عند صامِغَي الشفتين.

لم تخرج أنّة من فم الفرانسيسكاني.

وضع الأفريقي الخنجر على الجانب الأيسر وحفَر ثُلْمة جديدة.

ولا رجفة خفية.

- تكلم! صرخ كابرال.

ولا جواب.

حينئذ وضع الأفريقي الخنجر على جبين كاميني.

- سبق وأنك لم تعد حسن المظهر، قال. لكن حينما أخلص منك،
الرب بعينه لن يتعرف عليك.

لم يكن كاميني يستمع إليه. كان بمفرده في هذه المكتبة. بمفرده
أمام استمتاعه. لكن ذلك، لم يكن في وسع أي من الرجال الثلاثة
معرفته. لو استطاعوا النفاد إلى سريرة نفسه، لوسعهم سماع ما يشبه
الابتهال: «عذاب، عذاب. ليست الدنيا سوى عذاب».

تعرض الجبين لما آل إليه الوجه. ثم، جاء دور الأذنين. بسرور
متعاظم، قطع الأفريقي شحمة الأذن وأدخلها في فم الفرانسيكاني.

انتاب كفاكو الذي لم تفارق عيناه المشهد إحساس بالضيق. لم
يكن ذلك الوجه المشوه والمدمى هو ما يثير عاطفته، بل اللامبالاة
التامة الصادرة من الرجل المعذَّب. هل هذا الراهب مجنون؟ أن لا
تخيفه فكرة الموت، فليكن، لكن من أي قعر غريب يستمد مقاومة
الألم تلك؟

كان الأفريقي قد انتزع الشحمة الثانية.

- كفى! أمر كفاكو، وقد جهد أعصابه.

خطى نحو كاميني وألصق وجهه تقريباً بوجه الفرانسيكاني.



لقد تعبتُ، قال نهِجاً. تكلم!

وبمثابة جواب، غمغم الفرانسيسكاني.

- أؤمن بالرب الواحد، الأب، العلي القدير، خالق السماء والأرض[1].

كما تريد.

خاطب الأفريقي:

- العينان!

وكما لو يكن ينتظر سوى هذه اللحظة، وضع الأفريقي سنان خنجره عند لحاظ العين اليمنى.

- سوف أصنع لك ثقباً جميلاً، يا صديقي. ثقب صغير مثل لوزة. وسوف أقتلع عينك الصغيرة، برفق، ببطء، بما يكفي من البطء كي تتلذذ بالصرير المكتوم الذي يحدثه الحديد حينما يغوص إلى المحجر. بعد ذلك، أضع عينك في كفك وأريه لك وهو ما يزال يختلج.

ثم جمع الفعل بالقول.

حينها فحسب، صرخ كامبيني. صرخة مكتومة، أو بالأحرى حشرجة تردد صداها في كل أرجاء المكتبة ولا شد أبعد من ذلك.

- الخريطة! زمجر كابرال. تكلم!

- العين الأخرى! هتف كفاكو.

- ماذا يحدث هنا؟ من أنتم؟

وقد أصابه الخرس، تراجع الثلاثي.

الباب الذي سعى كامبيني دون جدوى إلى اقتلاعه انفتح منذ حين.

---

(١) باللاتينية في الأصل: .Credo in unum Deum, Patrem omnipotentem creatorem coeli et terroe



كان رجل قد ظهر عند مدخل الباب. يلبس غفارة بيضاء. ويزين صليب صدري اللباس المقدس.

كرر بحزم:

- من أنتم؟
- وأنت؟ سأل الأفريقي بابتسامة فيها صلف.
- البابا!

وما إن نطق بهذه الكلمات حتى رأى وجه الفرانسيسكاني، وأطلق صرخة مرتعبة.



١٨

قصر مونتيمور

كان الملك ألفونسو قد أنصت حتى النهاية لتقرير كونسالفيس دون أن يقاطعه.

- أرِني تلك الرسالة التي اعترضت طريقها.

إمتثل رئيس كتاب العدل.

فتح العاهل الورقة المطوية ثم قرأ.

برغش

إيناس، أختي اللطيفة، أكتب لك وقلبي ينزف دماً. والدنا المحبوب تمّ اعتقاله هذا الصباح ورميه في زنزانة بسجن أوخيدا. أعجل بإخبارك أنه غير متهم بشيء. ضميره صاف. ثم، كيف يكون الأمر غير ذلك حينما نعرف النزاهة التي طبعته على الدوام؟ إذن لماذا؟ نحن السبب، عزيزتي إيناس اللطيفة. إنك لم تنسي الحديث الذي جمعنا عشية رحيلنا إلى قشتالة. ذلك اليوم، أنا وخوان توسلنا إليك لمساعدتنا. ولم تُصغ إلينا، ورغم كل توسلاتي، أصررت على رفضك التعاون، بينما مسعانا ـ أذكرك بذلك ـ نابع فحسب من الرغبة في خدمة ملِكنا ومملكتنا. ما زلتُ أذكر أني بيَّنتُ لك أنه إذا ما أفلحتِ في مهمتك، لا محالة أن والدنا سيجني ثمار لك النجاح. إنك



تعلمين مقدار عظمة جُود عاهلنا والطريقة التي يجازي بها وفاء خدأمه وخلافاً لذلك، وهذا ما أغفلنا ذكره عن قصد، حتى لا نزعجك ونحفظ سكينتك، هو النتائج المحتملة لفشلك. اليوم، يؤدي والدنا ثمن هذا الفشل. لقد اجبرنا على إخبار جلالته عن أسباب رفضك. ولك أن تتصوري مدى الإحباط الذي أصابه. وهو كذلك لاسيما أن الملك أخذ علماً بعلاقتك الآثمة والمهانة التي أصابت الإنفانتا دونا كونستانزا بسببك. لقد سعينا بالطبع إلى الدفاع عنك. بعد كل شيء، أليس مرد تصرفك ذاك هو رغبتك في أن لا تخوني حبك؟ المؤكد أن الحب شعور مشرف. لكن، مثلما أكد على ذلك عاهلنا، فهذا الشعور يصير حقيراً وخطراً، ما إن يتدخل في مصالح الدولة.

ومن الآن فصاعداً، حياتنا والدنا بين يديك. القرار لك. أن يحيا أو يموت، فذلك متعلق بك؛ إذ لا يجب أن يخامرنا شك في أنه لن يتحمل لوقت طويل. الشعور بالخزي الذي يعذبه سوف يقتله بكل تأكيده أكثر مما يفعل به المرض. في هذه الأثناء، أسارع إلى تحذيرك: لا خداع، لا تهرب. جلالته لن ينخدع بذلك. إذا وقع وكذبت للإفلات، إذن اعلمي أنه لن تخلصك قوة في العالم من فرناندو دي كاسترو.

لك محبتنا.

أخوك، فرانسيسكو.

أرجع الملك الرسالة إلى كونسالفيس ولم ينبس ببنت شفة.

جازف ديوغو باشيكو الجالس جنب رئيس كتاب العدل قائلا:

- جلالتكم، لا أدري إن...

أخرسه الملك بإشارة من يده.

- منذ متى؟



ألقى باشيكو نظرة متسائلة.

قال الملك موضّحاً:

منذ متى وابني يشارك دونا إيناس كاسترو الفراش؟

لوى كل من المستشارين الثلاثة شدقه حرجاً.

أنا أنتظر جوابكم!

منذ أسابيع عديدة، يا مولاي، أوضح كونسالفيس. في حقيقة الأمر، ابتدأت علاقتهما في الأيام التي أعقبت الزواج. إن كانت أخبارنا...

- لأي سبب لم يتم إخباري؟

- لم نعتبر أن لذلك جدوى، يا مولاي. بعد كل شيء...

- نعم؟

أطرق كونسالفيس، وتابع بصوت متردد:

- لم يكن هناك داع للقلق. والسيد بيدرو لم يأت فعلاً مستنكراً، لا شيء قد يبرر...

سُمعت لألفونسو زمجرة وحش.

- لم تعتبر أن لذلك جدوى، لا شيء مستنكر؟ لأن في نظرك، خداع المرء لزوجه، والكذب عليها وخيانتها، ولفظ الإساءة إلى شرفها مثل من يتقيأ على كرشه، كل هذا في نظرك، لا يستدعي الاستنكار؟ لكن من أي طين صنعتَ؟ أي دم يجري في عروقك؟ كم من عشيقك تشاركك فراشك؟ كم من لقيط بذرت لتحكم على الزنى بهذه الكياسة؟

والعين تتقد شرراً، أشار بسبابته نحو الرسالة.

- والآن هذا التهديد!

حطّ صمت قاهر على قاعة الخرائط البحرية. وهم صعقون، لم يجرؤ أي من المستشارين الثلاثة على المبادرة بأبسط تعقيب. في



الخارج، أخذ المطر يتساقط بشدة لا تصدق وطفقت النوافذ تهتز بفعل وابل المياه.

استعاد الملك الرسالة بحركة سريعة، وألقى نظرة خاطفة على النص ثم صاح من جديد:

- هل يستطيع أحد منكم أن يخبرني عما تخفيه هذه التلميحات؟

قرأ:

- *ذلك اليوم، أنا وخوان توسلنا إليك لمساعدتنا. ولم تُصغ إلينا، ورغم كل توسلاتي، أصررت على رفضك التعاون؟* ماذا يعني ذلك؟ أي مهمة كلِّفَت بها دونا إيناس؟ أي شيء طلب منها له كل ذلك القدر من الأهمية حيث يستحق أن يرمى والدها في السجن.

أخذ بيرو كويلهو على عاتقه تقديم الجواب:

- لقد فكرنا في ذلك، مولاي. لم نجد شيئاً مقنعاً. لاشيء. لا شيء إن لم...

نحنح جرعة من حلقه قبل أن يعلن:

- الملف، رسالة القس يوحنا.

- هل تعني أن جيراننا على علم بالأمر؟

- ذلك ممكن جداً. كما تعرفون، رسالة الراهب يوحنا تلك كُشِف امرها لعدد معين من الأشخاص. لقد جرىٰ تداول نسخ كثيرة عبر القارة، حتى مدينة قسطنطين، أو إن أحببتم، قسطنطينية. إذ هكذا علمنا بالقضية. منطقياً، لاشيء يمنع من أن القشتاليين قد علموا بها هم كذلك.

- وبالنسبة للخريطة؟ هل الأمر مماثل؟

وبمثابة جواب، أبدى كويلهو سحنة متحيرة.

- لعل ذلك غير قابل للتصديق حقاً، لاحظ كونسالفيس. للعلم بوجود الخريطة، يتوجب على البلاط القشتالي أن يضم عقلاً ثاقباً ومتبحراً مثل عقل بلتزار دي مونطالطو، وأن يكون هذا العقل



قادراً على اقتفاء أثر أفينيون. مستحيل! عمل التحقيق الذي خاضه صديقنا كان شديد التعقيد حيث أن لا أحد، أكرر ذلك، لا أحد كان يستطيع النجاح.

استمد رئيس كتاب العدل نفساً قصيراً ثم استرسل:

وخلافاً لذلك، ومثلما شدد على ذلك بيرو كويلهو، من المرجح أنه بعدما علموا بوجود تلك الخريطة، فإن القشتاليين يسعون إلى معرفة هل هي بحوزتنا أم لا.

قرر ديوغو باشيكو أن يدلي بدلوه:

- المؤكد، قال بحزم، أن دونا إيناس تمثل من الآن فصاعداً خطراً على المملكة.

لم يبد أن الملك سمع الملاحظة. العين تتقد من الغيظ والوجه يضج بالعذاب.

- إبني، قال بجفاء. أحضروا ابني ولنترك لوحدنا.

افينيون

قام فرانسوا فيلناف، طبيب البابا الشخصي، بوضع ضمادة جديدة على عين كاميني وأفضى للمونسيور دو فونتناي:

- حاله أحسن مما كان عليه منذ ثلاثة ايام. إذا لم ينتشر الالتهاب، يمكن أن نأمل شفاءه. ومن العجب أنه لم يمت بعدما نزف دمه كثيراً. حبته الطبيعة بقوة حقيقية.

- يا لها من حكاية! صاح الكاردينال وهو يجوس حجرة الفرانسيسكاني جيئة وذهابا. يا لها من حكاية! قتلة في القصر الرسولي! وعلاوة على ذلك، على بعد خطوات من حجرة الحبر الأعظم. في مكتبته الخاصة! لقد اخبرتك، أليس كذلك، بأن قدامته هو من دفع هؤلاء الخبثاء إلى الفرار؟



- أجل، مونسنيور. لقد أبان الأب الأقدس عن شجاعة كبيرة. في الأخير، هل استطعتم الحصول على معلومات حول هؤلاء الأشخاص؟ عن دوافعهم؟

- حسب الأخ كامبيني، يبدو أن هؤلاء الرجال كانوا يسعون للوصول إلى غرفة الخزينة العالية الواقعة بين المكتبة الخاصة بالأب الأقدس وحجرة حاجب البابا. لقد ظنوا - من يدري السبب! - أن الأخ يمتلك مفاتيح تلك الغرفة. ما انفك التعس يخبرهم أنهم مخطئون، فإنهم لم يريدوا تصديقه وقاموا بتعذيبه أملا في جعله يتكلم. ثم، لما فاجأهم قدوم البابا المباغت، فضلوا الفرار.

رفع الطبيب ناظريه نحو السماء.

- ليس هذا حمقا فحسب بل إنه غباء، بما أن الغرفة المعنية بالأمر لا تضم سوى جزء ضئيل من الممتلكات، كما يحرسها رجال مسلحون.

كف الكاردينال عن ذهابه وجيئته ودنا من مفرشة كامبيني.

- أعذرني يا أخ، هل أنت متيقن من أنك أخبرتنا بكل شيء؟ ألم تغفل معلومة ما؟ كلمة، جملة؟

بالكاد حرّك الفرانسيسكاني رأسه.

- كلا، مونسنيور. لقد أخبرتكما بكل بشيء.

أشار الطبيب قائلا:

- لك أن تواسيك نفسك وتحدثها أن الأمور كانت ستصبح أكثر مأساوية. هؤلاء الأوغاد كان في وسعهم الاعتداء على الأب الأقدس.

- إنك على صواب، يا صديقي، قال فونتناي موافقاً. إني لا أجسر على تخيل ذلك.



لامس بيده جبين الفرانسيسكاني المضمد.

- استرح، وحاول أن تنام. سوف أزورك من جديد عند مستهل الليل.

تمتم كاميني بكلمة «نعم» غير مسموعة تقريباً.

انغلق الباب.

ناجى نفسه: «الشكر لك، يا رب. الثناء لك على هذه المحنة. هؤلاء الرجال هم رسلك. الشكر لك، يا رب».

قصر مونتيمور

ظلت عين ألفونسو مثبتة على النافذة. هناك حيث خلّف المطر آثار البخار؛ هو لم يكن يرى سوى ظلال أطياف، أشجار ذات غصون عارية، عصافير ذبحت حناجرها، طفل يموت من يتمه، مواسم فانية، نصمّها صرخات موحشة وتوسلات. وبين الفينة والأخرى، وجه أبيه، الملك دينيس، وجه جامد التقاطيع.

منذ مدة طويلة وبيدرو ينتظر وسط القاعة. حتى أن العاهل لم يرد على تحيته له.

في النهاية، دعاه ألفونسو للجلوس إلى الطرف الأقصى للمائدة الطويلة المستطيلة التي كانت تزين القاعة. رائحة الشمع القوية المنبعثة من سطحها اللامع وخزت عيني بيدرو؛ كان يحب كثيراً هذه الرائحة. كانت تذكر بالنظافة وكرم الضيافة.

- مرة أخرى، بادر الملك قائلاً. مرة أخرى أحبكتني. وقد فعلتَ ذلك في أسوأ اللحظات، حينما أخذت ثقتي فيك تدب بداخلي وأحسستُ بولادة شعور بالفخر. فخر بولدي، فخر بشجاعته، فخر بأنه ابني. إعلمْ مع هذا أن في هذه اللحظة بالضبط، ليس الأب هو من يتكلم، بل ملك البرتغال. لن يهم من الآن فصاعدا تلك



العواطف الأبوية أو الغضب الذي يغلي بداخلي. وبالمثل، أوضح
ذلك أيضاً، إني لا أخاطب بيدرو، وإنما دون بيدرو، الأمير
ووريث العرش. هل هذا واضح؟

- أجل... أبي.
- صاحب الجلالة!
- أجل جلالتكم.

وعمَّ الصمت من جديد. وهو مرتبك، تساؤل بيدرو عن أي خطأ اقترفه؟ متى؟ وفي الحين خطر بباله: «إنه يعلم بخصوص إيناس».

وتقريباً في الوقت نفسه قال العاهل:

- إيناس دي كاسترو. هل الاسم أكثر من مألوف لديك، أظن؟

أومأ بيدرو أن نعم.

- هي عشيقتك.
- سيدة خواطري...
- عشيقتك!
- الكلمة...
- الكلمة تناسب الملك!
- حسناً، مولاي.
- بالطبع، لن تتأخرا في أن تصنعا لنا أبناء زنا بشعين!

توردت وجنتا بيدرو. فتح فمه للرد. لكن على جاري العادة تعثرت الكلمات في حلقه.

- أبناء زنا! كرَّر ألفونسو.

وقد زاغت عيناه، قفز بغتة نحو الانفانتي وأمسك بخناقه.

- أبدا! أبداً لن أسمح بوقوع ذلك! هل تسمعني؟ أبدا!

أرخى قبضته وأخفى وجهه بين يديه المرتعدتين.

- صانع أبناء الزنا... صانع أبناء الزنا... ربي، قل لي إن الماضي لا



يمكنه أن يلحق بالحاضر.

وبعدما تماسك نفسه، أطلق صرخة ألم وتهاوى فوق أريكة.

جراحك، همس بيدرو، وقد تجاوزه الوضع. إنك تنكأ جراحك.

لم يؤلمني جرح، أي جرح، بمقدار ما فعلت أنت.

اغترف الانفانتي جرعة هواء.

إن كانت دونا إيناس هي السبب في كل ما يعذبك...

استعاد أنفاسه.

.... اخبرك أنها قررت قطع الصلة بيننا

وأضاف بسرعة:

رغماً عني.

شع بريق دهشة من عيني العاهل.

فصّل في ما تقول.

لقد اختارتها دونا كونستانزا لتكون كافلة للطفل الذي سوف يولد.

منذ متى صار هذا النوع من الحجة كافياً لإنهاء خيانة؟

- في نظر دونا إيناس، كان كافياً. لقد ارتأت... ارتأت أن ما يفوق طاقتها و... يخالف كل مبادئها هو... مواصلة هذه علاقتنا، لأنها واعية بالدور المقدس... الذي أناطتها به كونستانزا.

- لقد قلتَ منذ حين: «رغماً عني». أفهم من ذلك أنك كنت على استعداد للاستمرار. هل أنا على صواب؟

- أجل... أبي. جلالتكم.

- ولو تطلب ذلك تلطيخ الشرف. شرفك. شرفها؟

- أجل...

صرخ العاهل من جديد.

- هل هذا هو الطفل الذي حملته أمك؟

- إني أحب إيناس دي كاسترو.



- اصمت!

تجاهل بيدرو الأمر وتابع:

- إني أحب إيناس دي كاسترو. وإذا...

- اصمت! وإذا كان لابد من فصلي... فصلي عنها، سأتبعها. أينما ذهبتْ، سأذهب. أينما عاشت... أينما عاشت، سأعيش.

- هل فقدتَ صوابك؟

- اينما ماتت... سوف أموت...

- جنون! جنون! كلا! نزوة طفل! ماذا تعرف عن الحب؟ لاشيء! لست سوى صبي. صبي لم يعرف شيئاً، لم ير شيئاً. لم يحس شيئا! أنت...

قاطعه بيدرو بصرامة غير متوقعة:

- هل كنتُ أيضاً صبياً حينما أنقذت حياتكم في ألكتيم؟

تكلم دفعة واحدة ودون تعثر.

- إنك لم تقم سوى بواجبك! لا أكثر!

- وأنا فخور بذلك! أطالب...

توقف عن الكلام. كان الباب قد فتح، مفسحاً المجال للملكة.

- ماذا تصنعين هنا؟ زمجر العاهل.

واصلت بياتريس تقدمها بهدوء.

- صوتكما يصل حتى حجرتي. وغضبكما الشديد أيضاً.

- اتركينا! يتعلق الأمر بشأن من شؤون الدولة.

- يتعلق الأمر بولدي.

- إنه لك بكامله. لكن هذه الساعة، إنه لي. اتركينا، ارجوك.

متجاهلة دعوته، جلست الملكة إلى المائدة، جنب بيدرو.

- أنا على علم بكل شيء، أعلنت. شأنكم الذي يخص الدولة ذاك، ليس ربما سوى شأن يخص القلب. ألا تظن ذلك.



وقد بَهَتَه الكلام، خفَّ الملك نحوها خطوة.

كنتِ تعرفين إذن؟

أجل. منذ أول يوم.

كيف؟ من الذي أخبركِ؟

في البداية، لم يخبرني أحد. اكتفيت بأخذ وقتي لاستجلاء نفس بيدرو. ثم تحدثت إلى دونا إيناس. لقد أكدت لي كل شيء. كما أنها أكدت قطيعتها. لم يعد هناك شأن للدولة إذن.

- عداك الصواب في ذلك، سيدتي! القضية ساخنة. نحن بصدد الخيانة والتهديد.

- ماذا... ماذا تقصد؟ سأل بيدرو بحيرة.

توجه ألفونسو نحو المائدة وتناول الرسالة التي اعترضها المستشارون.

- اقرأ، دون بيدرو! اقرأ!




@3abeth

١٩

أفينيون

أفرغ أنيبال كفاكو دفعة واحدة جرّة الخمر الأحمر التي قدمها له صاحب الخان منذ حين.

- أكرر لك، دمدم الأفريقي، كان يجب علينا أن نصفي لذلك الأب[1] حسابه.

- قتل البابا؟ لقد فسد عقلك حقا!

- بابا، كاردينال، مزارع، أين الفرق؟ إما نقتل أو لا نقتل، أليس كذلك؟ ما الذي كان سيتغير؟

- بالضبط، قال كابرال، لم يكن ذلك ليغير شيئاً، لأنه لا شيء في الدنيا كان سيجعل رجلنا يتكلم.

قهقه الأفريقي.

- غلط! مسألة وقت، هذا كل ما في الأمر.

أشار كفاكو إلى صاحب الخان بأن يسقيهما من جديد.

- لقد راقبت جيداً ذلك الفرانسيسكاني. كان فيه شيء ما مستفحل. كان يبدو أنه لا يشعر أدنى خوف في مواجهة الألم. الأسوأ من ذلك، كان يشعر باللذة. لذة مَرَضِيَّة.

---

(١) بالاسبانية في الأصل: padre.

- لقد لحظت ذلك أيضاً. والآن، علامَ قرَّ عزمنا؟ إنك لا تنوي التخلي عن الأمر رغم ذلك؟
- التخلي عن ستة آلاف مرابطية؟ ذلك مستبعد.
- أنا أقتدي برأيك، تابع كابرال، لكن ما العمل لتدارك الموقف؟ الرجوع إلى القصر يبدو لي فيه مخاطرة شديدة. لم يعد من الممكن مواصلة لعب دور الحجاج، دون إغفال أنه من المرجح كثيراً أن البابا قد أخبرهم بأوصافنا.

استبعد كفاكو تلك الفرضية.

- أشك في ذلك. لقد وقع كل شيء بسرعة كبيرة. وهو مذعور بذلك القدر، سوف يكون شيطاناً بالفعل لو احتفظت ذاكرته بملامحنا.

مرة أخرى أفلتت الأفريقي ضحكة مقتضبة.

- تشبيه البابا بالشيطان؟ توشك أن تتعرض للحرمان الكنسي، يا صديقي.

تجاهل كفاكو التعقيب.

- سوف نقوم بمحاولة جديد حينما يحل الظلام.
- كيف؟ سأل كابرال متحيّراً. ليس هناك سوى مدخل واحد؛ مدخل باب الشامبو، الذي يحرسه مسلحون برِماح. حتى وأنه لم يكن للبابا وقت لتذكر وجوهنا، فإنه...
- لم أقل أبداً بأننا سوف نمر من الباب، قاطعه أنيال كفاكو.

دسّ يده في جيب معطفه وأخرج منه صحيفة مطوية طيًّا.

- هذه خِطَّة القصر. لقد ارتأت حكمة كونسالفيس أن يمدني بها قبل رحيلنا.

فتح الوثيقة وبسطها فوق المائدة.

- أنظرا جيداً. هنا يقع المدخل الرئيس وقاعة الحرّاس. لا مجال للاقتراب منها. سوف نسير على امتداد البناية الواقعة إلى اليسار.



هنا، جناح الخلصاء، وأبعد من ذلك، برج الكامبَاني، وأبعد من ذلك بكثير، جناح الكنيسة البابوية. تبرز في الحائط نافذتان من الزجاج الملوَّن. من هذا المكان نعبر. وما إن نصل إلى الداخل، نصعد السلم الحجري المؤدي إلى الحجرات. ولن يتبقى سوى العثور على تلك التي يقيم بها الفرانسيسكاني.

أخفى الخطة في جيبه.

- بالنظر إلى الحال التي تركنا عليها الرجل، إما أنه مات، وإما يحضن إصاباته وهو في فراشه. شخصياً، باعتبار المقاومة التي أبداها، فأنا أميل إلى الامكانية الثانية.

رفع جرّته نحو رفاقه.

- في صحة الأخ كامبيني!

قصر مونتيمور، البرتغال.

بالكاد لامس بيدرو يد إيناس.

- إني لا أجد عندك عتاباً، أليس كذلك؟ لكن كان من العاجل أن نحادث بعضنا.

مسحت المرأة الشابة دموعها وهي تهز رأسها مرات عديدة.

- كيف يسعني عتابك؟ ألا يتعلق الأمر بأبي؟

وصرخت غاضبة:

- كيف تجرأ الملك؟

- الملك لا يتجرأ على شيء. إنه يمارس سلطته، هذا كل ما في الأمر.

- ويقتل؟

ابتعد عنها بيدرو برِفق.

- لقد قرأت الرسالة. لا بد أنك تعرفين ما يطلبونه منك.



- بالطبع. يتوقعون أن أؤكد لهم وجود خريطة. إنها خريطة، وفق ما قالوه، تسمح لسفننا بالوصول إلى الهند عبر البحر.

- هذه الخريطة...

مذعورة، ضغطت بكفها على فم الأمير.

- كلّا! ولا كلمة. لا أريد أن أعرف إن كانت هذه الخريطة موجودة. لا أريد أن أعرف شيئاً مما تعرفه! ألا ترى بأنهم يقتلعون قلبي؟

- إني أرى كل شيء، إيناس.

- كلا! أنصت إلي جيداً، بيدرو. إن كان لابد أن تخفق عن حب وتكشف لي سرّك. يجب أن تعرف، لن أتردد، سوف أخونك في الحال، حتى ولو لقيت حتفي بعد ذلك.

قالت وهي تفخم الكلام:

- سوف أشي بك لأخلص أبي.

- لستِ مدعوة للوشاية بي، سوف ننقذ دون فرنانديز. لدي خطة.

حدقت فيه دون أن تخفي دهشتها.

- خطة؟

- يريدون خريطة؟ سنعطيهم واحدة.

- كيف ذلك؟

- لدينا في البلاط رجل ذو مهارة عالية. اسمه بلثزار دي مونطالطو. عالم جغرافي، فلكي، طبيب ورياضي، وهو بالتأكيد واحد من أكبر علماء شبه الجزيرة. لقد عرضت عليه مشروعي. بداية أطلق صراخاً عالياً، ودفع بتعقيد المهمة الشديد، لكن انتهىْ به المطاف إلى القبول بالأمر. سوف يساعدنا. في الأيام القادمة، سوف يعمل على تزوير خريطة بحرية من شدة كمالها يبرق لها بصرُ أكثر البحارة حنكة. وفي حقيقة الأمر، المهمة ليست بمثل الصعوبة التي يزعمها مونطالطو. بقدر اتساع عالمنا فهو غير معلوم لدينا،



يشبه بساطاً مزخرفاً غير مكتمل الصنعة. بقليل من الخيال وكثير من العِلم، من الممكن ملء الفراغات.

دست إيناس يدًا محمومة بين خصلات شعرها.

- والدك؟ ما رأيه في ذلك؟

- رفض في البداية. وفي الأخير، كان على استعداد حقاً للإقرار بأن هذه الخطة ستجعلنا نربح بعض الوقت وتبلبل خصومنا. للكشف عما إذا كانت هذه الخريطة أصلية أم لا، لن يكون لهؤلاء سوى حل واحد: إطلاق حملة استكشافية. والمرجح أنها لن تعود أبداً. من هنا إلى ذلك الحين...

- وأنا؟ ونحن؟

- بخلاف كل ذلك، فإن أقوال أخيك المضمنة في الرسالة كانت خير مدافع عنك. ألم يكتب: «*توسلنا إليك لمساعدتنا. ولم تُصغ إلينا، ورغم كل توسلاتي، أصررت على رفضك التعاون*». أليس هذا دليلاً قاطعاً على نزاهتك؟ لا بد لي من القول عن أمي قد دافعت عن وجهة النظر هذه بشكل رائع. من جهة أخرى، لقد اوضحت لوالدي بأنك رغبتِ في قطع الصلة بيننا وعلى الأخص الاسباب التي دفعتك إلى فعل ذلك. هنا أيضاً، دعمتني الملكة.

لامس خذُ إيناس بحركة غايتها إدخال الاطمئنان عليها.

- ليس هناك ما تخشينه أبداً، قال برفق. كل شيء سيكون على ما يرام.

حجب ظل سواد عينيها.

- لقد حُرِمتُ منك. وقد أفقد أبي إلى الأبد... ليس هناك ما أخشاه؟

افينيون

كانت ليلة ديجور. لولا تلك الأضواء الشاحبة المتسللة من البيوت



الصغيرة القريبة من القصر الرسولي، لشق على الرجال الثلاثة تلمس طريقهم.

في الطابق الثاني من البناية، كان كامبيني قد استعاد للتوّ الغلاف المصنوع من جلد الماعز المدسوس حتى ذلك الحين تحت بلاطة مفرشة القش. كل حركة كان يقدم عليها تطلق وخزات مبهرة في البصمة السوداء التي كانت تقيم فيها عينه، أياماً معدودة منذ قبل.

دسّ الغلاف تحت معطفه وجثا عند مركعه.

أسفل من هناك بأمتار معدودة، كان كفاكو يفحص النافذة الزجاجية الملونة والضيق بادي على وجهه. إنها أعلى مما كان يتخيله. وحده السلم الصغير سوف يسمح لهم بالوصول إليها.

استدار نحو كابرال، الأطول من بينهم الثلاثة:

- الزم هذا المكان.

ومن غير انتظار، اعتلى كتفي رفيقه. ومع أن توازنه كان مختلاً، افلح في الاستناد بيده اليسرى إلى أطار النافذة وبيده اليمنى أمسك خنجره. ضرب الزجاج الملون الذي رسم عليه القديس بولس إذ تطاير لذلك رأس الحواري شظايا. وأعاد الكرة إلى أن لم يبق منه سوى نثر زجاج ملوّن. إندسَّ داخل الفتحة. كان المعبد خاليا؛ وحده لهب شمعة يتراقص في مِشعلها. بعد أن اطمئن، مرَّ بين العضادتين وقفز في الهواء.

- ربي، كان كامبيني يقول في صلاته، لقد حكمتَ بأن تأخذ مني بصري في جزء منه. أنا أشكر لك ذلك. هكذا، تحرم نظري من مشاهدة كل الخسة التي تملأ هذا العالم السفلي. الآن، التمس من جديد سندك. السر الذي أحفظه منذ أمد بعيد جداً لا يجب بأي ثمن أن يقع بين أيادي كافرة. اعطني القوة لحفظه. من دونك، لستُ شيئاً. الطريق الذي ينتظرني مفروش بالأشواك. أتوسل إليك،



يا ربي، إمنحني شيئاً من قوتك الإلهية، ويَسِّر لي الوصول إلى غايتي. وبعد إنجاز هذه المهمة الأخيرة، لن يتبقى لي سوى انتظار ساعة الخلاص النهائي. أخيرا!

ارتسم الفرانسيسكاني بشارة الصليب وتوجه نحو الباب.

فتحه.

كان المونسنيور دو فونتناي يسد عليه الطريق، وبيده صحن ساخن.

- والآن؟ همس الأفريقي.

تجاهل كفاكو السؤال وأمر رفيقه أن يتبعه.

بعد أن مرا أمام المذبح، صعدا على طول المسافة الفاصلة بين العوارض ثم وصلا إلى وسط ممر طويل يضيئه مشعلان. باب من خشب السنديان المصمت يظهر في الأعلى، يمنة. توجه كفاكو صوبه وعزّ له بشيء من القلق: «ليْتَه لا يكون موصداً بالمفتاح». لم يكن كذلك. ثلاثون درجة يغشاها الظلام تؤدي إلى الطابق الأعلى؛ صعدها الرجلان، وحواسهما جميعهن على أهبة الاستعداد.

- أخ كامبيني! هتف الكاردينال. إلى أين أنت ذاهب؟

غير ممكن! حدث الفرانسيسكاني نفسه ماذا يصنع هنا؟

استأنف الكاردينال، مذعورا:

- في حالك هذه! يا له من تهور! انظر، لقد جئتك بقليل من الحسوة لكي...

لم يكمل جملته. ارتمى عليه كامبيني. تكسَّر الصحن على الأرض حينما أطبقت أصابع الفرانسيسكاني على حنجرة الكاردينال. وعيناه جاحظتان، حاول الأسقف التخلص من الملزم، لكن كان ذلك مستحيلاً. كانت أصابع كامبيني تقبض عليه بقوة أكبر فأكبر. واصل دو فونتناي دفاعه لبعض الوقت. اهتز جسمه كله تشنجا؛ تهاوى، كتلةً من



اللحم وقد فقدت بغتة تماسكها. نزع أخير، ثم اجتمع الريق عند ملتقى شفتيه. ترك كامبيني الكاردينال فوق البلاطة.

- هناك! صاح الأفريقي مُحذراً، إنه يهرب.

كان كفاكو قد رأى بدوره الفرانسيسكاني. وانطلقا بسرعة في إثره.

نزل كامبيني الدرجات أربع فأربع. وها هو الآن ينطلق في ساحة الشرف؛ أمتار معدودة تفصله عن قاعة الحراس. كاد يصلها حينما بلغت أنفاس مطارديه رقبته.

- أغيثوني! صرخ حد تمزق حنجرته. أغيثوني.

برز عشرة جنود مسلحين برماح وسيوف تقريباً في الوقت نفسه، بينما كان الأفريقي يطوق فريسته.

- يا هذا! ماذا يحدث عندك؟ زمجر أحد الحراس.

- خلصوني! قال كامبيني متوسلاً. إنهما المجرمان اللذان اعتديا على قداسته. خلصوني!

ألقى الأفريقي نظرة حائرة نحو كفاكو.

- اتركه... فلنهرب!

بعدما فاتت لحظة الدهشة الأولى، تمالك الحراس أنفسهم. وزحفوا إلى الرجلين.

أخرج كفاكو خنجره. انقض الافريقي على الجندي الأول.

سقط حارس فحارسان بفعل ضربات الخنجر. لكن النزال لم يكن متساوياً. اخترق رمح صدر الأفريقي من جانبيه. لو أن كفاكو لم يلق سلاحه على الأرض وصاح بأنه يستسلم، لا ريب أنه كان سيتعرض للمصير نفسه. سمح له بالسيطرة عليه وأخذه ولم يبد أدنى مقاومة.

حينها بحث رئيس الحراس بعينيه عن كامبيني.

كان الساحة خالية.



قصر مونتيمور، عشرون يوماً بعد ذلك.

- كلا، مولاي، أجاب ديوغو باشيكو. لم يصلنا أي خبر عن رجالنا. الرسالة التي بعثنا بها لواحد من عملائنا بأفينيون ما تزال دون رد.

رفع الملك عينيه نحو السماء.

- كيف أمكن ذلك؟ لقد أكدت لي رغم هذا بأن هؤلاء الناس قادرون على إنجاز المهام الأشد صعوبة على أحسن وجه. ما الذي وقع إذن؟

- إنهم عاجزون، يا مولاي! صاح بلتزار. إنهم أقل من لا شيء.

وقال دون بيدرو الذي كان جالساً يُمْنَة العاهل:

- الرأي رأي صديقنا. الإمساك براهب وحيد، أعزل، مطمئن لاعتقاده أنه في مأمن، مهما يكن ليست تلك مهمة صعبة بكل ذلك القدر.

حدّق كونسالفيس في الإنفاتي. لم يستحسن البتة حضوره المتكرر للمجلس. أي انقلاب وقع حتى قرر الملك بغتة إشراك هذا الشخص المختال في اجتماعهم؟ كظم غيظه مُبدياً الأسف على وجهه.

- أنت على حق، يا مولاي. استعصى علي الفهم. عائق غير متوقع بلا ريب.

- غير متوقع؟ رد عليه بيدرو. في قضية بمثل هذه الأهمية، كنتُ أظن أنه لا مكان لما هو غير متوقع.

هبَّ باشيكو لنجدة صديقه.

- اسمح لي، مولاي، لكن غير المتوقع ليس هو المستحيل؛ إنها ورقة ما تزال محجوبة بين أوراق اللعب.

بدرت عن ألفونسو إيماءة انزعاج.

- وعليه، فليكن، سوف ننتظر!



خاطب بلثزار دو مونطالطو.

- ماذا عن مشروع الخريطة المزورة ذاك؟
- لقد انتهيت، يا مولاي. تلك الخريطة جاهزة.
- إذن؟ هل أنت راضٍ عليها؟ هل لها حظ في أن تخدع صهري العزيز؟

لوى بلثزار شدقه من ريب.

- كيف يسعنا التأكد من ذلك؟ دعونا نقول إنه يحدوني أمل. لبضعة أيام، ألفيت نفسي أقوم بدور الرب وأنا أصنع عالماً على صورتي. يبقى أن ننتظر هل سيجد الجغرافيون الذين سوف يكبون عليه تلك الصورة مغرية بما فيه الكفاية للأخذ بها.
- صديقنا متواضع، صحح بيدرو. لقد رأيت ما أنجزه. إنه رائع. صحيفة ومداد عتيق، رسم تام للبحار والأراضي. مؤكد إنهم سوف ينخدعون.

حرك ألفونسو رأسه يمنة و يسرة، تحاشى نظرات ابنه، ثم خاطب مستشاريه.

- في هذه الحال، قوموا باللازم لدى دونا إيناس. فلتكتب رسالتها ولتعرضها علينا.

وافق الثلاثي، لكن بشيء من التقاعس.

- ماذا هناك؟ استغرب بيدرو. هل تراجعتم عن موافقتكم؟

تبادل المستشارون طرفة عين حرجة.

- تكلموا! أصر الإنفانتي. ماذا يحدث؟

استمد كويلهو نفسا عميقا وأخذ على عاتقه الرد:

- مولاي، هل أنت متيقن من دونا إيناس؟
- أخشى أني لم أفهم هذا الإلماح.



- دعونا نقول... بعد كل... من أجل إنقاذ والدها ألن يغريها التعامل بازدواجية؟

رد بيدرو بخشونة:

- اعلم أن إيناس دي كاسترو تحظى بثقتي الكاملة!لقد أظهرَتْ الحجة على ذلك! من جهة أخرى، سينيور باشيكو، ألفتُ انتباهك إلى أن سؤالك ليس مُهينا فحسب بل هو سخيف كذلك. مهين لأن نزاهة الشخص لا يمكن الشك فيها، سخيف حيث ليس من مصلحة دونا إيناس أن تهدر وقتها. كل يوم يمضي يزيد من عذاب أبيها. ما الفائدة من كشفها لمناورتنا؟
- إني...
- لا فائدة، سينيور، إن كشفت بأن الخريطة مزورة لن يخلص دون فرنانديز. لن يتم تفادي الخطر على أية حال؛ لن يبسط جيراننا قبضتهم التي يطبقون بها على تلك المرأة الشابة.
- انتهى النقاش، أعلن الملك. فليتحمل كل واحد مسؤولياته.

ثم ختم بالقول:

- في حال الفشل، كونوا على يقين من أني سأكون بلا شفقة.

في تلك اللحظة، لم يكن في وسع أي واحد القول إن كان المقصود بالتهديدِ المستشارون أو دون بيدرو.

برغش، قشتالة

للمرة الأخيرة فحص المتقم الصحيفة الموضوعة على المائدة، ثم رفع رأسه.

كان يحيط به ثلاثة رجال. ملّاح وجغرافيّان. وبجانبهما، إلى الخلف قليلا، وقف خوان وفرانسيسكو.

- إذن، أيها السادة. ما حكمكم؟



خمّن الجغرافي الأول:

- مولاي، يصعب النطق بحكم. ظاهريا، تبدو هذه الخريطة مناسبة لمجموع معارفنا ونجد فيها على الأخص أغلب المؤشرات المجتمعة في كتاب بطليموس كوزموغرافيا .وصف الأرض المعروفة هو بحق ما نعرفه.

وضع اصبعا على الخريطة.

- المناطق الخمس محددة فيها جيدا.

عبس ألفونسو الحادي عشر.

- المناطق الخمس؟

عاجل الجغرافي الثاني إلى بسط الفكرة:

- ينقسم العالم المعروف إلى خمسة مناطق. La frigida septentrionalis inhabitabilis، أو منطقة باردة وغير معمورة. la temperata habitabilis، المنطقة المعتدلة والمعمورة، التي نطلق عليها أوروبا. la perusta inhabitabilis، منطقة حارة غير معروفة وغير معمورة. la temperata habitabilis antipodum nobis incognita، منطقة حارة أخرى، مناقضة للأولى، معمورة، لكنها مجهولة لدينا. وأخيرا، المنطقة المسماة[1] frigida australis inhabitabilis، منطقة باردة جنوبية وغير معمورة.

- تمام. كل هذا لا يخبرني عن مصدر ترددكم.

- هذه المنطقة الرابعة، قال الجغرافي الأول مفسرا، إلى حد اليوم لم يسمح لنا أي شيء بتصورها. لكن، ها هي هذه الخريطة تكشف لنا بحرا يمتد على طول المنطقة المجهولة، وينعطف عبرها في أقصى الجنوب، للامتداد حتى بلاد الهند.

هتف فرانسيسكو:

---

(١) العبارات واردة باللاتينية في الأصل.



- أليست بالضبط الطريق التي نبحث عنها؟

وجاء دور الملّاح للتعبير عن رأيه:

- بالطبع، مولاي. لكن المشكل يتمثل في مدة الرحلة. كيف نكون على يقينمن أن المسافاتالتي اقترحها صاحب الخريطة صحيحة؟يكفي خطأ واحد وحيد كي لا تعود أبدا السفينة المغامرة إلى أبعد من الأرض المعروفة.

تناول خوان الكلمة:

- أيها السادة، هناك أمران لا ثالث لهما. إما تصدقوا صحة الخريطة وإما لا تصدقوا ذلك. أعقب ذلك لحظة من التردد قطعها الجغرافي الأول.
- من المرجح جدا أن الخريطة صحيحة، لكن...
- وعليه؟كفاكم حيرة إذناقاطعهم الملك. انظروا إلى وجوهكم المنكسرة!هذا يوم يجب أن يكون يوما للفرح، ها أنتم تجعلون منه يوما حزينا.

قال آمرا:

- فليتم إيجار ثلاث سفن في الحال. ماء شروب، مؤونة، لا ينقصنَّ شيء. ستعطي الخزانة جميع النفقات، بلا حساب!

سدّد اصبعه نحو الملاح.

- قبطان[1] بيريز، أعهد لك بهذه المهمة. عليك أن تؤديها على أحسن وجه من أجل عظمة قشتالة. لا وقت للهدر. للبرتغاليين في هذا سُبقة. مسؤوليتك أن تدركهم وتسبقهم.

احتار القبطان. هل انطلق أسطولهم؟

طمأنه فرانسيسكو:

- كلا. وفق معلوماتنا، لم تنطلق رحلتهم بعد من لشبونة. من

---

(١) بالاسبانية في الأصل: Capitán



المرجح أنهم ينتظرون نهاية موسم الأجواء السيئة. هكذا، كل الحظوظ تحالفنا.

- هيّا! أمر الملك. الرب معنا!

بعد أن أغلِق الباب، نادى المنتقم على الأخوين.

- إذن؟ ماذا تنتظران لتهنئتي؟ألم أكن محقا في التصرف مثلما فعلتُ؟بالطبع، لقد أجبِر بريء على دفع الثمن. لكن أليست تلك علة وجود البراءة؟

- أجل، مولاي، قال فرانسيسكو موافقا بخنوع. إنّا نثني عليك.

أطبق الصمت من جديد. لم يجسر فرانسيسكو ولا خوان على وضع السؤال الذي كان يحرق شفاههما. وفي الأخير كان الملك هو من تكلم.

- أيها السيدان، تستطيعان الانصراف.

- و... والدنا يا جلالة الملك؟قال خوان مجازفا.

قطّب ألفونسو حاجبيه.

- أو لم تدركا القصد بعد؟أم أنكما لم تسمعا؟لقد بدا لي مع ذلك أني قلت لكما إن شخصا بريئا دفع للأسف ثمن نجاحنا.

- المعذرة، مولاي... هل ذلك يعني أن...

- أمر محزن فعلا، أعلم ذلك. لقد كانت حالة دون فرنانديزالصحة أسوأ مما كنا نظن. المسكين، لم يقاوم برودة الزنزانة الانفرادية.

- هل... هل...؟ تمتم فرانسيسكو.

- لقد مات[1]، قال الملك، والتأثر غير بادي عليه. أجل، المسكين.

- متى؟

- هذه الليلة أو الليلة الماضية، لم أعد أعرف متى.

ربت الملك بيده على كتف فرانسيسكو.

- لا تحزنا، كل الشرف يعود لكما الآن!

---

(١) بالاسبانية في الأصل: Ha muerto



٢٠

قصر مونتيمور، سبتمبر ١٣٤١

كانت الصرخات المتصاعدة من حجرة دونا كونستانزا تتردد في القصر بأكمله. صرخات تتخللها أنّات. أنّات الزهرة المقطوفة.

في الطابق العلوي، كانت الملكة بياتريس والملك على وشك الانتهاء من العشاء، وقد جلس كل منهما عند الطرف الأقصى من المائدة المهيبة التي تزين قاعة الأكل. وفي حقيقة الأمر الملك هو من كان يلتهم آخر لقمة من طبقه المفضل: لحم الخنزير الالنتخاني؛ وهو خليط من المحار ولحم الخنزير، وقد تبّل كثيرا بالكزبرة. أما بياتريس، فإنها لم تأكل شيئا طول المساء.

قالت وهي شاردة في البعيد:

- هل تعلم أن بعض المواسم أفضل من غيرها للوضع؟

حرّك الملك رأسه يمنة ويسرة.

- فترات الحرم، مثل الصوم الكبير ومقدمات عيد الميلاد تعتبر مستحسنة. لقد ولد بيدرو في عز الصوم الكبير.

- آه؟ كان ذلك تعقيب الملك الوحيد.

علت صرخة أخرى أكثر حدّة من سابقاتها.

- ألن ينتهي هذا أبدا؟قال ألفونسو غاضبا.

- إنها تتعذب.



- ونحن نتعذب معها.

أدنت الملكة كأس النبيذ من شفتيها.

- أرى أنك ذو مزاج عكر هذا المساء.

- وكيف يسعني غير ذلك؟ لا تمر ساعة دون أن أفكر في تلك الخريطة النفيسة التي ضاعت من بين أيدينا! ضاعت بسبب رعونة أولئك الرجال الذين اختارهم مستشاريَّ. مات أحدهم، والثاني قابع في سجن أفينيون والثالث تبخَّر!

- هذا قد مرت شهور على إغلاق هذه القضية. ألم يحن الوقت للقبول بالأمر الواقع. تذكر أن في هذه المأساة كان والد دونا إيناس هو من دفع الثمن باهظا. من أجل لا شيء.

- ومن المذنب؟ لو أن دونا إيناس لم تلطخ شرفها بمضاجعة ابني لكان دون فرنانديز ما يزال حيا يرزق في هذه الدنيا.

- أوه! كم إنك غير منصف! تعلم تماما أنه حتى لو أن دونا إيناس لم تغرّم بيدرو، فإن بلاط قشتالة كان سوف يسعى للتلاعب بها رغم كل شيء.

ثم قالت مفخمة الكلام:

- إنك غير منصف!

كنس ألفونسو الهواء بازدراء.

- حبيبتي، ينبغي أن تعلمي بأن العدل، إن وُجِد، ما هو إلا ظلمٌ وقد قسم بالتساوي! فلنوقف، أرجوك هذا النقاش هنا. سوف يولد طفل.

كان يستعد لتقريب قطعة من اللحم إلى شفتيه، لكنه أبقى حركته معلقة ليسأل:

- بالمناسبة، أين دون بيدرو؟

لم يكن بيدرو بعيدا. كان يعدو بفرسه منذ ساعتين تقريبا بين



الوديان والسهول. مصالا يعدو إلى جانبه. كان فحل كل منهما يرسم حلقات كبيرة من الغبار الأمغر حول القصر.

- حتأم سوف نواصل الدوران حول أنفسنا؟ صرخ مصالا من غيظه.

لم يحر الإنفانتي جوابا. كان رأسه ما يزال ضاجًا بالأسئلة والأحاسيس المقلقة.

كيف يفرز هذه الخيوط الغريبة حيث تتشابك السعادة والشقاء؟ الفرح بأنه صار أبا واليأس من كونه لم يعد عشيقا؟

ردت إيناس على ضغطة يد كونستانزا التي بادرها المخاض منذ احدى عشر ساعة تقريبا. لم تعد قادرة على تمييز أيّ من اليديْن يدُها؟ بين الفينة والأخرى كانت الإنفانتي ترخي قبضتها كي تغرز أظافيرها في ذراع وصيفتها. هل كانت تأمل من ذلك تحديد حيزها نهائيا؟ أن نختم بكلمة نهاية على قصة إيناس وبيدرو؟ أن تحفر انتصارها في جسد المرأة الشابة؟

كانت النوافذ مغلقة والنار تغط في الموقد. وفي الحجرة يفوح العرق وماء الحياة.

كانت هناك نسوة على الأخص. قابِلةٌ وخادمات. نسوة، لكنو رجل: بلثزار - وهذا استثناء - لقد فرض الملك حضوره في حال حدوث مكروه قد يعترض سير الأمور الطبيعي. جالس في العتمة، كان يلوح عليه السأم بشدة. لاشك - وهذا ما قد فسَّره للملك رغم كل شيء - أنه كان يجهل تماما أمور الولادة. يتذكر بكثير من اللبس أنه قرأ ذا يوم موجزا قديما كتبه مورانوس الإفيزي الذي ينصح فيه الطبيب بتلقي الولد من القدمين من أجل قلبه قبل إخراجه. وقد تساءل دوما بأي سحر يفلح المرء في القيام بذلك؟

- ظهر الرأس! صاحت القابلة. هيًّا! حاولي جهدك مرة أخيرة. ادفعي! ادفعي!



مطّ بلتزار شفتيه. كان يجد المشهد منفرا جدا. كلا، بكل تأكيد إنه لا ينتمي لعالم النساء هذا.

كانت إيناس تشعر بأنها على وشك الانهيار. صرخات الانفانتا تصيبها بالجنون. يضاف إليها حرارة خانقة أصبحت لا تطاق بفعل البخار المتصاعد من الأواني المملوءة بالماء المغلي.

شجعت نفسها بأن تركت خيالها يسبح نحو بيدرو. أين هو؟ فيمَ يفكر؟

- ها هوا قالت القابلة في الأخير وهي تقطع حبل السّرة بضربة سكين. حمدا للرب، إنه ولد ذكر.

رفعت المولود بحركة ظافرة.

- أوَ رأيتم؟ إنه مُشْعِرا شعر الرأس فأل حسن! ينبغي أن لا يُنسى حِفظه.

قلبت رأس الطفل إلى الأسفل وصفعت بكفها ردفيه.

- لكِ المهاني، دونا كونستانزا، قالت إيناس جاهدة لكبح انهمار مشاعرها. إنه وليد جميل.

وقد غمر العرق تقاطيعها، وشحت الانفانتا وجهها بمسحة من امتنان.

- شكرا، صديقتي.

انتصبت قليلا:

- هل يمكن أن أراه؟

لم تسمعها القابلة، إذ كانت مشغولة بغسل الوليد بالزبدة المذابة. وبعد أن فركته بماء الحياة وقمطته عادت به إلى حيث كونستانزا ثم وضعته برفق على صدرها.



- ها هو ذا ملك المستقبل، سيدتي[1]. ورأت من المفيد تكرار قولها:

- الشعر يغطي قِحْفَ رأسه.

لابد أن القابلة تجُرُّ الشؤمَ. لم يـعف الوقت دون بيدروليحمِل ولده بين ذراعيه. لويس ـ ذاك هو الاسم الذي اختير له ـ في المساء ذاته، أخذَ لويس النَّزعَ، لمّا دعي بلتزار على عجل إلى مهد الصبي، كان عليه الإقرار سريعا بعجزه. مات لويس مع طلائع الفجر الأولى.

من المستحيل وصف ما كابدته دونا كونستانزا. حينما علمت بالخبر أغمِيَ عليها. تمَّت إفاقتها وأخذت تهذي، وتغمغمبكلمات لا صلة بينها، والانغماس في فترات مخيفة من الصمت. وطوال خمسة عشر يوما بنهارها وليلها، لم يفارقها بيدرو لحظة واحدة.

لقد خيرتُ، كانت تهمس الحيطان.

لقد خيرتُ، همهمت الأشجار والوديان.

لقد خيرتُ، جرى النهر، وبعد حين رددتِ المملكة بأكملها هذه اللازمة ونشرتها حتى أجراف ساغرس.

لما رجعت الإنفانتا إلى الحياة، كانت أول كلمات همست بها في أذن بيدرو:

- ولدٌ آخر، امنحي ولدا آخرا. اقسم لي على ذلك! أمام الرب، اقسم لي على ذلك!

أقسم بيدرو.

ذلك في النفَس الذي صحب قسَمه، كان يتردد اسم إيناس المنتصر والأمل المتجدد.

(١) بالبرتغالية في الأصل: minha senhora



- يجب أن نقبل بالأمر الواقع، أقر فرانسيسكو، الحملة التي انطلقت منذ ستة أشهر قد هلكت حقا وفعلا.
- جرّاء عاصفة؟ اقترح خوان.
- ذلك ممكن. أو أن...
- الخريطة؟
- خريطة وهمية! رسمها مجنون.
- ورسالة القس يوحنا؟ وَهْمٌ هي أيضا؟ مستحيل! ليس هناك عقل يستطيع نسج حبكة بهذا القدر من الكمال. ولأي سبب يفعل ذلك؟ للاستمتاع فقط بخداع امبراطور بيزنطة؟ ملك انجلترا؟ البابا؟

قوّس فرانسيسكو ظهره.

- كيف نعرف ذلك؟ أنا تائه. تائه وذهبث عزيمتي. كل أحلامنا، وآمالنا بالمجد تكسرت! ولم يعد الملك يرغب في استقبالنا. الأسوأ من ذلك، إنه لا يظهر أدنى مرارة إزاء خسارة السفن الثلاثة والقائمين عليها. وكأن تحتَ سرّة عشيقته، ليونور دي غوزمان المحيِّرة تلك، تمتلك قدرة مواسية عجيبة.

أكب خوان على أخيه.

- أو تدري يا فرانسيسكو، أتساءل إن لم يكن هناك تفسير لاختفاء الأسطول لم نفكر فيه.
- أنا أسمعك.
- ماذا لو كانت الخريطة مزورة؟ خريطة مزورة بالكامل من طرف البرتغالين حتى يقذفوا بنا نحو وجهة خاطئة؟

أترع فرانسيسكو عينيه واسعا.

- مما يعني أن أختنا ربما كانت متواطئة في هذه المكيدة، التي



تخالف مصالحكل من أسرتها والملك وقشتالة؟ إنك تهذر. هذا محال! من جهة أخرى، إذا اعتبر جيراننا أنه من المجديِ رسم خريطة مزورة، ذلك يعني أنهم وضعوا أيديهم على الأصلية. بيد أن جواسيسنا على يقين راسخ: لم تنطلق أي حملة كبرى من طرف البرتغال خلال الأشهر الماضية. وهذا دليل ساطع على أن افتراضك تافه.

حدَّق خوان في أخيه وقد لاح عليه الاستغراق في التفكير.

- لو أني مكانك، ما كنتُ جازما بهذا القدر. تأمَّل، فكِّر، فكِّر مليًا، يا فرانسيسكو...

مونتيمور، البرتغال

عاريان، ملتصقان الواحد بالآخر، لم يسعَ هو ولا هي إلىالمضاجعة. كان يكفيهما أن يحتفظا بأنفسهما على ذلك النحو.

- لقد رجعتِ، همس بيدرو. متحررة من وعدك. من الآن فصاعدا، كل شيء صار ممكنا من جديد.
- حتى يحلّ الطفل القادم.
- حبي، أرجوكِ، لا تفسدي هذه الأوقات. لماذا تهتمين بالغد؟ لا يجب أن نفكر سوى في الوقت الحاضر. ألا يحمينا القدر؟

بطرف شفتيه، لاعب جبينها وعينيها وعنقها ومهوى صدرها بذلك الصوت الخفي للأنفاس الذي يأتيه الأطفال عند تقبيل أحدٍ ما.

- قولي إنك تحبينني.

أجابته:

- قل إنك تحبني.
- لن تهجريني بعد هذا أبدا؟
- وهل هجرتك أبدا؟



- إن رحلتِ، هل تعودي إليَّ دوما؟

حدقت فيه بانفعال شديد.

- كلا. كلا، بيدرو. في وسعهم تهديدي بأشد العذاب، دقّ المسامير في جسدي، ورميي في نيران الجحيم. فلن أتخلى عنك أبدا. لقد قاسيت شر عذاب، لقد بكيت أشد بكاء.

قرية فيلانوفا، منطقة فريول، إيطاليا

- تفضل بالمزيد من هذا المونتاسيو، عرض عليه ملكيور دي بوردنون. كنتَ تحب كثيرا هذا الجُبن، أليس كذلك؟

وافق أوريليو كامبيني باستحياء.

من النافذة ترتسم البادية على مرمى البصر. أشجار سرو بظلالها السوداء، كروم أعناب ملتوية تحت شمس خجولة. للحظة وجيزة تساءل الفرانسيسكاني إن كان فعَل خيرا حين أتى لاجئا هنا، في هذا الركن من إيطاليا، المنزوي بين البحر وسهل البندقية وجبال الألب، والذي يخيل للمرء أنه في أقصى الدنيا. إلهي كم كانت الرحلة طويلة وكم كانت شاقة! رأى نفسه يموت مائة مرة على متن ذلك المركب الذي حمله من ماسيليا إلى تيرجيست. وخزات عينه الميتة المقترنة بدوار البحر الموجع قصمت ظهره وعقله.

تطلع إلى مخاطبه خلسة. يعد ملكيور على الطرف النقيض تماما من أخيه المرحوم، أودريك، خِلقة وفكرا. الثاني كان كله ذكاء وحيوية؛ أما هذا فاجتمع فيه كل ما عند الشخص المغفل. كان أودريك يفرض هيبته؛ و ملكيور لم يكن مرنيا. كان كامبيني يكن له المحبة كثيرا. ألم يقل المولى: «طوبى لفقراء الروح فإن لهم ملكوت السماوات»؟

سأله:

- أين هو ابنك البكر؟



- لودفيكو؟ إنه يحلب الماعز.
- إنه يستحق أفضل من هذا. ألا تعتقد ذلك؟
- أفضل؟ والمقصود؟
- لا شيء. سوف نتحدث في الأمر. هذه الرحلة أرهقتني. سوف أذهب للنوم قليلا.

نهض الفرانسيسكاني وبحركة آلية تحسس معطفه على مستوى القلب وتأكد من أن الغلاف ذي جلد الماعز ما يزال دوما في مكانه.

قصر مونتيمور، قاعة الخرائط، أسبوعا بعد ذلك

من فرط ما كان التوتر السائد شديدا فقد كان في وسع يد ذات قدرات خفية أن تلمسه.

حضر هناك المستشاران المعتادان، بلتزار، بيدرو والملك.

- هكذا، قال هذا الأخير، كل شيء ضاع نهائيا.
- أجل، مولاي، أكد ديوغو باشيكو. تقرير عملائنا شديد الوضوح. لقد جابوا المنطقة. لم يجدوا أثرا واحدا للفرانسيسكاني. في نظري...
- نظرك! قاطعه ألفونسو. إنا نعرف قيمته. لقد تصرف رجالك مثلما يفعل العاجزون! ما زلت أسمعكتمتدح لي خصال كفاكو ذاك الاستثنائية. هراء!

حاول بلتزار تهدئة الوضع.

- جلالتكم، ربَّ ضارة نافعة. قد نواسي أنفسنا بالقول إنه بفضل الحيلة التي تصورها دون بيدرو، ضحى جيراننا بثلاثة سفن وبالقائمين عليها، دون فائدة.

يا لها من مواساة جميلة! قال العاهل ساخرا.

نظر بمؤخر عينه إلى ابنه. منذ بداية الاجتماع، لم ينبس هذا الأخير



بحرف، إذ كان منغمسا في قراءة التقرير الذي أعده الساحر سنة من
ذي قبل.

- دون بيدرو؟ صاح ألفونسو، هل يمكن أن نعرف رأيك؟

تجاهل الأمير السؤال وخاطب بلتزار:

- لقد تصفحت باهتمام كبير تقريرك المتعلق برسالة القس يوحنا. لم أجد في أي مكان منه ما يدل على أن كامبيني ذاك استطاع فعلا حيازة تلك الخريطة البحرية الغريبة، وبدرجة أقل كيف أمكنه الحصول عليها.

غلبت ملامح الضجر على وجه بلتزار.

- لأنك لم تكن هنا أثناء اجتماعاتنا الأولى. لقد بيَّنت كل شيء لجلالة الملك مباشرة، وكذا للمستشارين المرموقين الحاضرين هنا.

حدَّق الساحر في الملك وكأنه ينتظر موافقته.

- تفضل، صديقي! تفضل! بعد كل شيء، ليست هذه سوى المرة الرابعة التي أسمع فيها هذه الحكاية.

استمد بلتزار نفسا قصيرا.

- حتى تتضح الأمور، اسمحوا لي التذكير بالمعطيات الأساسية لهذه القضية. عام ١١٤٥، حلَّ شخص يدعى هوغس، مطران غابولا، بمدينة روما. ربط الاتصال برجل دين اسمه أوطو فون فريزنغن وأخبره بوجود ملك نصراني يسمي نفسه Presbyteri Joannis أو «القس يوحنا»، يتزعم مملكة واقعة في آسيا. وقد تم إخبار بابا ذلك العصر، وهو لوسيوس الثاني. ونحن لا نعلم رده. مرَّت اثنتى وثلاثين سنة...

استنشق الساحر مرة أخرى.

يوم ٢٣ تموز ١١٧٧، وصلت رسالة من توقيع القس يوحنا



الغامض، بين يدي كل من البابا ألكسندر الثالث، وملك فرنسا، وامبراطور بيزنطة. إذا كنا لا نعرف شيئا عن الموقف الذي اتخذه الملكان عند قراءة ذلك الخطاب، فإن لدينا، بخلاف ذلك معلومات عن القرار الذي اتخذه الحبر الأعظم. في الأسابيع التي أعقبت ذلك، شد طبيبه الخاص الرحال ذاهبا إلى بلاد التتار؛ هناك حيث حسب ما ورد في الرسالة، توجد مملكة القس يوحنا.

وشح بلتزار وجهه بملمح متذمر.

- وانقطعت الأخبار. لابد أن الرجل مات أثناء الرحلة. وتمر الأعوام دون أي ذكر لملف القس يوحنا. وها نحن في العام ١٣١٨.

- ما يقرب من مائة وخمسين عاما بعد ذلك؟ تعجب بيدرو. قرن ونصف دون أن يسعى أحد إلى معرفة المزيد حول هذه القضية الغامضة؟

- يمكن لنا افتراض أن الكرسي الرسولي شأن الملوك المتعاقبين استنكفوا عن إرسال حملات نحو أراضي معاديةودون أي ضمانة للوصول إلى المبتغى. هو الصمت إذن حتى عام ١٣١٨. زعيم المسيحية الجديد اسمه يوحنا الثاني والعشرون. مقر الكنسية لم يعد هو روما، وإنما أفينيون.

- أفينيون... إننا نقترب إذن.

زكى الساحر القول.

- في هذه اللحظة طفى على السطح من جديد ملف القس يوحنا. لماذا؟ ها قد مرت سبعة قرون تقريبا وأورشليم محتلة من طرف العرب. ما عدا فترة بحوالي ثمانين عاما تم خلالها استرجاعها من طرف الصليبيين، فإن المدينة المقدسة لم تبرح العيش تحت نير الاسلام. المدينة المقدسة، وكذا كنيسة القيامة، رمزنا جميعا،



علة وجود المسيحية. هذا الوضع هو سبة حقيقية لذكرى المسيح. قبر مخلصنا الذي تدنسه الأيادي الآثمة يعتبر تجديفا. إذا لم يهتم أحد خلال العقود الأخيرة بالملف يوحنا، فإنه على الضد من ذلك، لم يمر يوم واحد، هنا أو هناك، دون أن يعبّر أمير أو راهب عن طموحه لتحرير الأرض المقدسة. والدليل على ذلك هو حادث الحروب الصليبية. حينما اعتلى عرش بطرس، كان قرار يوحنا الثاني والعشرون قد اتخذ. يجب وضع حد للاحتلال العربي وطرد المسلمين من أورشليم. فالحبر الأعظم، واسمه الحقيقي جاك دويز رجل حازم. وقد برهن على ذلك سريعا. وما كاد يستقيم له الأمر حتى كان له موقف من صراع قديم يتواجه فيه فرقتان داخل طائفة الفرانسيسكان وفتك بأكبر ما تكون القسوة بالفرقة الضالة.

رفع بلثزار يداه الاثنتان بمثابة تحذير.

- لا تسألني، مولاي دون بيدرو، أن أشرح لك بالتفصيل أصول هذه المواجهات. إذ من شأن ذلك أن يبعدنا عن موضوعنا.
- لا تخشى شيئا. لم أفهم يوما شيئا بخصوص هذه الصراعات اللاهوتية. واصل، أرجوك.
- كان يوحنا الثاني والعشرون يطمح إذن إلى تحرير الأرض التي شهدت ولادة المسيح. لكن ها هو الحال. لا تمتلك الكنيسة الأسلحة ولا الجيوش القادرة على أداء المهمة على أحسن وجه. وتبين أن الحروب الصليبية كارثة حقيقية. الأمراء الذين يحكمون العالم الدنيوي منشغلون بشدة بحل نزاعات التنافس. وفي هذه الظروف إذن ذُكِر من جديد اسم القس يوحنا. تعرض المسألة للنقاش ويتم الوصول إلى الخلاصة نفسها التي عبر عنها مائة وخمسين عاما من ذي قبل. إذا كانت هذه المملكة موجودة دوما،



إذا كانت قوتها بذلك القدر من الأهمية الذي يصفه صاحب الرسالة الغامضة، حينها فإن كل الآمال سيكون مسموح بها. والعرب سوف يتم سحقهم.

توقف بلثزار للتذكير:

- أليس هذا هو المنطق عينه الذي ارتأيناه، أنا وجلالة الملك؟

- صحيح، قال ألفونسو موافقا. ومع ذلك، فيما يخصني، أوضح لك أنه وبصرف النظر عن أمنية طرد العرب، لاحت منفعة إضافية: وجود خريطة بحرية.

- ها أنا مقبل على ذكر ذلك، قال الساحر.

ثم سأل:

- هلا سُقيتُ قدحا من الخمر؟ لقد تيبس حلقي.

صفق غونسالفيس يديه.

- هاتوا خمرا! أمر رئيس كتاب العدل، بينما استأنف بلثزار حكايته.

- قرر يوحنا الثاني والعشرون إذن إرسال مبعوثَيْن.

- مهلا، قال بيدرو. لقد قلتَ منذ حين إنه تم ذكر اسم القس يوحنا. من ذكره؟ ومن ذا الذي فكر من جديد في هذه القضية، بعد مضي قرن ونصف من الزمان؟

- إنه فرانسيسكاني عاش في محيط البابا، وقد كان بالتأكيد ينتسب للفرقة المفضلة عند الأب الأقدس.

قطّب بيدرو جبينه.

- كيف يسعك الوثوق في الأمر إلى هذا الحد؟

- لأني لا أرى تفسيرات أخرى، وعلى الأخص لأنه هو من سيقود الحملة نحو آسيا.

- وما اسمه؟

- أودريك دي بوردنون. لقد عانيت مشقة كبيرة في رسم حياته من



جديد. ولم أفلح إلا في جزء من ذلك. ولد الرجل حوالي عام ١٢٨٦، في فيلانوفا، قرية صغيرة بفريول. ومنذ سن الرابعة عشر، انتسب إلى طائفة الفرانسيسكان. بعد ذلك بعشرين عاما تقريبا حل بمدينة أفنيون، وأخرج ملف القس يوحنا إلى النور من جديد، وأوصى بحملة جديدة. وافق الحبر الأعظم دون تحفظ.

- انطلق لوحده؟ قال بيدرو مستفسرا.

- كلا، رافقه رجل آخر. ينتسب بدوره إلى طائفة الفرانسيسكان. اسمه جيوفاني دي مونتكورفينو. كانت أوامر البابا واضحة: العثور على مملكة القس يوحنا واستغلال الرحلة لنشر عقيدة المسيح. أعفيكم من وصف الرحلة. اعلموا فحسب أنها ذكرت في مخطوط، أملاه بوردنون بنفسه، والذي سنحت لي الفرصة للإطلاع عليه.

- انت؟ كيف؟

- سوف أشرح لكم لاحقا الظروف التي تم فيها ذلك. ولنرجع إلى الحملة، إذا تفضلتم. البحر الأسود، طرابزون، فارس، فارستان، السلطانية، ملابار، فاندرينا، في شمال كلكوتا، ثم غرانغنورا، على امتداد ساحل كروماندیل، ثم ملیابورو سیلان. واقترب المبشران من جزر نيكوبار، وتابعا نحو مملكة سومطرة. واجتازا جاوا، ثم وصلا أخيرا إلى مدينة كانتون بالصين.

- هذا رائعَ، عقَّب بيدرو. حينما يخطر ببالي أني لم أتجاوز أبدا حدود مملكتنا...

- لم تنته القصة بعد. نزل الرجلان بشنغهاي، أكبر ميناء بحري في امبراطورية الوسط. ومن ثمة انطلقا صوب فوشوه، وكينصاي، المدينة التي امتدحها ماركو بولو، ثم بعد نان كينغ، ، يانغشوفو. وصعدا القنال العظيم، ونهر هوانغهو، ثم وصلا إلى خان بالِغ،



عاصمة الخان العظيم. وبعد وقت يسير من ذلك نجدهما في جزيرة ساليبيتْ الصغيرة، عند مصب نهر أولهاس، بالهند. هناك، استرجعا رفات أربعة إخوة فرانسيسكان استشهدوا بضع سنوات من ذي قبل. يتعلق الأمر بِتوما الطلنطيني، جاكوبو البادوفي، بييترو السيناني، ودمتريوس التّفليسي. شد أودريك ورفيقه الرحال إلى كطاي حيث دفنت الرفات. لا داعي للتأكيد لكم على أنه أثناء هذه الملحمة لم يتم ذكر المملكة الغامضة بتاتا، ولا القس يوحنا الذي لا يقل عنها غموضا. ومع ذلك، لم تضعف عزيمة المبشِّرين. بل واصلا دون كلل جوْبَ المنطقة إلى اليوم الذي مات فيه مونتكورفينو، عام ١٣٢٨ بمدينة بيكين؛ مات من شدة التعب، دون شك. وقبل أن يسلم روحه، فقد تأسى بتسميته أسقفا على المدينة.

- وبوردنون؟

- انطلق من جديد بهمة أكبر، وعامين بعد ذلك فحسب، أي عام ١٣٣٠، عاد إلى أفينيون. وقد تطلب منه سرد مغامرته العجيبة على مسامع البابا أياما كثيرة. وأمره الأب الأقدس، وإن أحبطه فشل البعثة، بإملاء حكايته لتحتفظ الأجيال المتعاقبة بأثرها. ولهذه الغاية، أوصاه بالعمل مع فرانسيسكاني آخر، الذي حل بمدينة أفينيون على عهد قريب.

- أوريليو كاميني!

- تماما. وهكذا، بإملاء من أودريك، سوف يدوِّن كاميني مذكراته. وفي غضون العام الموالي، بعد أن تم عمله، غادر أودريك أفينيون صوب مسقط رأسه بفيلانوفا. وقد علمتُ أنه مات بعد ذلك بوقت يسير.

رمى بلتزار بزفرة وشرب جرعة من الخمر.



- هذا كل ما في الأمر؟ صاح بيدرو. إني لم أعد أفهم قصدك. لم تلمح في أي لحظة إلى خريطة بحرية!
- لأن هذا يا مولاي جزء من الأمور اليقينية عندي. ألم أقل لك اني أفلحت في الاطلاع على النسخة الأصلية من مذكرات بوردنون؟
- لكنك لم تبين لي في أية ظروف وقع ذلك.

باعد الساحر ما بين ذراعيه وكأن التفسير لا يحتاج إلى بيان:

- أفينيون.
- أفينيون؟ هل ذهبت إلى هناك؟

ظل بلتزار مقيما على صمته لحظة ثم قال:

- عشرين عاما، مدة عشرين عاما كرستُ أيامي ولياليي بحثا عن تلك الخريطة، وأنا على يقين بأنها موجودة لا محالة في مكان ما. كل ما قرأته، وكم قرأت من الصفحات! كل شيء كان يزيد من اقتناعي. كما ترى، لا يعقل، أنه من بين آلاف الرحالة والبحارة والتجار الذين استكشفوا عالمنا منذ قرون، لم يكن هناك شخص لم يقم بالرحلة الكبرى. طوعا أو كرها. دفعته رياح إلهية، رمته عاصفة، أو جرفته رياح تجارية. عرب، صينيون، هنود، أحد ما، ذات يوم، لابد أنه قام بالرحلة. هل تلك قلة إدراك مني؟ طوباوية؟ من يدري! أحيانا عبر الطوباوية نصل إلى ما يتعذر بلوغه. ومثلكم جميعا، علمت برسالة القس يوحنا. لا أعرف إن كانت هذه المملكة ما تزال موجودة أو لم توجد أبدا. أعرف فقط أن هذه الرسالة ألهمت حملات يجسر على خوضها قليل من الناس. لقد ترقبتُ، رجوتُ أن ينظم حالم طوباوي مثلي رحلة ذات يوم. كان يوحنا الثاني والعشرون ذلك الحالم. وما إن علمتُ بعودة بوردنون إلى أفينيون، هرعت لملاقاته. لم أسعد بلقاء ماركو بولو. لكن هنا، سنحت لي الفرصة الوحيدة لرؤية وسماع رجل في وسعنا اعتباره مثيلا له.



- وأفلحتَ في ذلك؟
- في اللحظة الأخيرة. كان أودريك يستعد للذهاب إلى فريبول وقد فرغ توا من إملاء مخطوطه. كانت الصحف هناك، فوق مائدة. تحت ناظري. وبسرعة، ترك لدي بوردنون انطباعا بكونه امرؤ طيب المعشر، مهذب، ومتفتح. لقد رأى الشيء الكثير، وعاش الأكثر! وقد كان من الطبيعي جدا وبغير قليل من الفخر أن دعاني إلى قراءة حكايته. ودَّعني ولم ألقه بعد ذلك أبدا.

أخذ بلثزار من وقته قليلا لشرب جرعة ثم سأل:

- مولاي، هل تدري ما الطِّرس؟

أجاب بيدرو بالنفي.

- مصدر الكلمة إغريقي، palimpsêtos، الممحو. إنه مخطوط محيت أو كشطت كتابته الأولى حتى تعاد عليه كتابة نص آخر. وقد جرت العادة بذلك نظرا لندرة الصحف. كان باديا للعيان أن ورقتين من مذكرات بوردنون قد كتبتا بتلك الطريقة. الورقة الأولى تذكر لقاء القس بنوتي صيني اسمه لي فونغ، لقاء تم بميناء كبير يقع عند مصب نهر هوانغبو. من المؤكد أن تأويل نص مدمج في نص آخر ليس بالأمر الهيّن. لم أظفر منه إذن سوى بالجوهر. وخلافا لذلك، فقد اعترضتني صعوبات أشد بالنسبة للورقة الثانية. والسبب، أن الأمر لا يتعلق بنص...
- خريطة! صاح الانفانتي.
- خريطة بحرية. لستُ بحّارا، لكنني جغرافي. كان من اللافت أن ما أراه لم يكن يشبه في شيء الدلائل البحرية وأوصاف غيرها سنحت لي الفرصة بفحصها إلى ذلك الحين. بعض مناطق العالم، من محيطات وبحار كانت مرتبة بطريقة جديدة كليا. أخذتني رعشة من رؤية ذلك. خلال كل تلكالأعوام، حلمت بعيش تلك اللحظة.



لكن ظل هناك سؤال يؤرقني. «لأي سبب رأى بوردنون من المجدي تغطية تلك الأوراق وإخفاء خريطة نفيسة بذلك القدر؟ لم أتأخر في العثور على الجواب. فُتِح الباب. اقتحم كاميني الغرفة انتزع من يدي المخطوط انتزاعا. وبعد احتجاجي عليه، صاح في وجهي: «هذه الوثيقة في مِلكية الكرسي الرسولي».

- والطرس، ألم تسأله عن وجوده؟
- بالطبع، حينما عبَّرت له عن استغرابي، اكتفى بأن ردَّ علي بجفاء «هذه الوثيقة في ملكية الكرسي الرسولي». ثم اختفى وقد أخذ معه المخطوط بالطبع.

زفر بلثزار.

- لعلكم تتخيلون غضبي وإحباطي! بالنسبة لي، لم يكن هناك شك في أن كاميني هو صاحب الطرس. لأية أسباب؟ وحده من يعلم بذلك. في اليوم ذاته، سعيت للحصول على استقبال من طرف يوحنا الثاني والعشرون. قوبلت بالرفضثم وُجِّهت لي نصيحة ودية بأن لا أتدخل أبدا في هذه المسألة وبأن أعود إلى داري.
- وظلت القضية متوقفة.
- إلى أن أخبرنا واحد من جواسيسنا بعودة كامبيني إلى أفينيون. والبقية تعرفونها...

حرك بيدرو رأسه مرات عديدة، من الغيظ.

- هل لدينا أدنى فكرة عن المكان الذي استطاع الفرانسيسكاني اللجوء إليه؟

كان بيرو كويلهو هو من أجاب:

- ولا أدنى فكرة، سموك. لكن شيء ما يخبرني بأننا سوف نعثر عليه ذات يوم....



٢١

مونتيمور، البرتغال، مارس، ١٣٤٥

مضت خمسة أعوام. أربعة مواسم خمس مرات. أحرق الخريف الأشجار، وأحياها الربيع. مرت أصياف طيبةو شتاءات رحيمة. عامان بعد الموت المبكر للصغير لويس، وضعت دونا كونستانزا ثانية. بنتا هذه المرة. ولدت يوم ٢٤ نيسان ١٣٤٢. وعُمِّدت باسم ماريا. رفضت إيناس جازمة بأن تكون كافلة لها. وقد ساندها بيدرو. ، لم تستسلم للتهديدات أو للتوسلات. وما كان على كونستانزا سوى الإذعان. مثلما أذعن الملك، والملكة، والمستشارون، ومجموع الحاشية.

أياما معدودة عقب ولادة ماريا، جاء الخبر بوفاة البابا المباغتة. مات بنيدكت الثاني عشر أثناء نومه. لا شك أنه أجهد نفسه في العمل. واعتلى بابا آخر عرش بطرس. وهو فرنسي مثل سلفه. كان يسمى بيير روجي. واختار اسم كليمنت السادس.

اليوم، في مطلع الربيع هذا الموافق لعام ١٣٤٥، السماء صافية والريف مخضر حوالي القصر. تتمدد الطبيعة وتنتفض في نور شفاف. عطر لا يوصف يفوح في حدائق القصر. وتتأهب دونا كونستانزا لولادة طفل جديد.

- يوم رائع، لاحظ ديوغو باشيكو وهو يلامس بإصبعه زهرة الكركديه.



- بالنسبة لنا، لا ريب، لكن لا أثر له على من تتلوى من ألم الوضع. قد نعاتب الإنفانتا على كل شيء، لكن لن نعاتبها على قلة خصوبتها. ثلاثة أطفال في ظرف خمسة أعوام! حينما يخطر ببالي أن زوجتي الطيبة لم تقدر على أن تهبني أكثر من واحد بعد أربعة أعوام من الزواج!

هز بيرو كويلهو كتفيه.

- ثلاثة في خمسة أعوام. ليس في هذا أي استثناء. ، خاصة حينما نعرف الغضب الذي يسكن المنجبة. وعلينا الإقرار بأن النتيجة ليست مُرضية. وليد ميت، ثم بنت. يا لها من مأساة! والملك يسوؤه بالأحرى غياب الخلف. وعلى الضد من ذلك، ما يدهشني، هو أن السنيورة كاسترو غير ولود. هل تظن أنها عقيم؟

- في حالها، تلك بالأحرى ميزة.

أترع باشيكو عينيه واسعا.

- أجل، قال كويلهو مبيّنا. غياب الأولاد يسمح لها بتفادي أن يسلط عليها غضب جلالته. ومادامت بغير أطفال، سوف تظل صدر البجعة منتظرة إلى حين. إخال أن الملك قَبِل بالعلاقة التي تربطها ودون بيدرو. بل أظن أنه لا يبالي بها. لكن، بئس اليوم الذي تلد فيه! على الأخص إذا كان ذكرا.

- خصوصا، أضاف باشيكو، إذا لم تسبقها الإنفانتا في تلك الأثناء.

أضرط كويلهو بلسانه.

- حينذاك... إنك تعرف المثل : Quanto mais perto da igreja,mais longe de Deus، أقرب من الكنيسة، أبعد من الرب». كل شيء مكتوب، كما يقول المورو.

وبذكر القدَر المحتوم كان المستشار أقرب إلى الحقيقة دون أن يعلم ذلك.



وما كاد كاتب العدل[1] يكمل جملته حتى هرع خادم نحوهما.
أيها السيدان، قال وهو يتنفس الصعداء. لقد حلت مأساة فظيعة.
دونا كونستانزا...
- هل وضعتْ؟ قاطعه باشيكو.
- أجل، أجل، أيها السيدان، لكن...
- ماذا إذن؟ أو سوف تتلكم؟
- دونا كونستانزا في النَّزع.
لو أن صاعقة ضربت الأرض عند قدمي المستشارَين ما كان لها وقع أكبر.
- الانفانتا في النزع؟
- أجل، أيها السيدان. ساعة بعد الولادة، وضعت يدها على صدرها وأغمي عليها.
ارتسم الرجلان بشارة الصليب في الوقت نفسه ورفعا عيونهما نحو السماء. لا ريب أنها صدفة، لاحت غيوم عظيمة رمادية وسوداء وغطت السماء التي لم تكن فيها شيّة حتى ذلك الحين.
صعد المستشاران هرولة الممشى المؤدي إلى مدخل القصر حيث سبق وكانت أطياف مذعورة تركض في كل الاتجاهات.
لما وصلا قبالة حجرات دونا كونستانزا، وجدا هناك رجلين مسلحين يحرسان الباب، وزير العدل، حارس الأختام الأكبر، فاسكو مارتنس دي سوزا، وغونسالفيس الذي كان يذرع الفضاء جيئة وذهابا.
- والمحصول؟ استفسر باشيكو.
توشح غونسالفيس بملامح تناسب المقام.

(١) بالبرتغالية في الأصل: escrivao da paridade

- هي النهاية.
- يا للسوء... زفر كويلهو. من قال إنها منذ ثلاثة أيام احتفلت بعيد ميلادها الخامس والعشرين. هل تم إخبار دون بيدرو؟ وصاحبيّ الجلالة؟

دون بيدرو عند مرقد زوجته. لا أعلم أين الملك والملكة.

- والرضيع؟
- حسب آخر الأخبار، إنه في صحة جيدة.
- بنت؟ ولد؟
- ولد: فرناندو. هو ذا الاسم الذي اختارته الإنفانتا.

رمى باشيكو بزفرة جديدة.

- حمدا للرب! إذا كان لابد لها من الموت، فإنها لن تموت سدى.

كان هواء الحجرة ثقيلا، أثقل من ستائر القطيفة السوداء الأرجوان التي أظلمت بها النوافذ. وقد وضعت شمعدانات كبيرة من الفضة على جانبي السرير ذي المظلة حيث مددت دونا كونستانزا. هل كان الصوت الأجوفللقس وهو يتلو الصلاة من أجل المنازعين أم أنفاس الوصيفات هي ما يجعل الفتائل ترتنح؟ إن لم يكن ذلك قلب بيدرو الذي يخفق. وهو جاثي عند قدم السرير، يداه مضمومتان، كان في الوسع تبين أنه يصلي من حركات شفتيه.

بلثزار، على ركبتيه هو أيضا، لم يكن يصلي. منذ وقت طويل أصبح لديه يقين راسخ: المستحيل من شأن الرب؛ والمعجزات من شأن الانسان. والمأسوف عليها دونا كونستانزا لم يعد في مستطاعها إتيان أي شيء يذكر.

وعينه مسددة نحو الأمير، كان بلثزار يسعى، دون طائل، تخيّل الخواطر التي لا بد أنها تتزاحم في ذهنه. هل كان يشعر بالذنب؟ بأنه أصبح حرّا؟ ودونا كونستانزا في قلع الحياة، سوف يكون في وسعه



عيش علاقته دون قيود. في السراء، ما لم يكن في الضراء. حاد بلثزار ببصره عن بيدرو وصوب اهتمامه على القس. كان هذا الأخير قد تناول جرة مملوءةبالزيت والبلسم. غمس فيها إبهامه وشرع في المسح. العينان أول الأمر، ثم الفم.

وتلا بنبرة رتيبة:

- ربنا، أنظر أختنا، أنت الذي يعطف على الفقراء، أنت رجاء من يسعون إليك، ومحبة للجميع. امنحها خلاص روحك الأقدس، عظم فيها حياة يسوع المسيح التي تلقتها عند تعميدها. لأنك لست إله الموتى، بل إله الأحياء، أنت الحاكم لأزمان الأزمان. آمين.

في هذه اللحظة رفَّت دونا كونستانزا بجفنيها.

همست.

- دون بيدرو.

- أمسك الأمير بيدها.

- أنا هنا. لا تخافي.

كانت تلك هي المرة الأولى خلال خمسة أعوام التي يناديها فيها دون كلفة.

واصلَت:

- إني أعهد لك به... أعهد لك بفرناندو. امنحه المكانة التي يستحق...

أجابها بكلمات معدودة لا تَبين وداعب بحنو جبين المحتضرة. وكأنها لم تكن تنتظر سوى هذه الحركة لتلفظ أنفاسها الأخيرة.

أمر الملك بإعلان الحِداد أسبوعا.

أبرَدَ بريدا عبر المملكة بأسرها وحتى قشتالة إعلانا عن الخبر المشؤوم.

كان المنتقم جالسا إلى مائدته ينعم بنا لذ وطاب حينما وصله



الخبر. ولم يكن رد فعله سوى القول: «فليتقبل الرب روحها». الصباح ذاته، كانت عشيقته الحارقة ليونور دي غوزمان، قد ولدت له ولدا سابعا. وعليه، لم يكن الحزن واردا حقا.

ومن المستغرب، أن الملك ألفونسو، ما عدا بيدرو، هو من يبدو الأشد تأثرا من وفاة المأسوف عليها كونستانزا. وقد شوهدوهو يذرع أكثر من مرة ولمدة طويلة مسالك حديقة مونتيمور، رأسه مطرق، وملامحه مغتمة، ويداه مشبوكتان خلف ظهره. ورغم ذلك، فإن طفلا رأى النور يضمن له الخلف ولآل بيت بورغون الذي ينحدر منه. إذن، من أين يرد عليه الهمّ؟

فريول، قرية فيلانوفا، آب ١٣٤٦

منذ أسبوع المطر والريح معا يتحاربان في الأزقة. وتندفع الرياح العاصفة عبر الفجوات، وتصفر في المواقد المنطفئة. لم يشهد الناس أبدا مثل هذا الهبَوب فيسهل البندقية.

- هل تظن أنها نهاية العالم؟ سأله ملكيور دو بوردنون برِفْقٍ وهو يتناول من جديد ملعقة صغيرة من عصيدة الذرة. سعل كامبيني أوريليو وبَصق في الموقد.

منذ شهر تقريبا وجده يهتز بسعال فظيع يحرق حلقه ورئتيه، وكل السوائل المستخلصة التي وصفها عطّار القرية لم يكن لها أي مفعول، إلا انها كانت تغرقه في حال من النعاس المتواصل. هذا الجو السيئ لا ينذر بنهاية العالم، لكن ربما بنهاية كامبيني. منذ أن وجد ملاذا هنا، كل يوم، وضع على نفسه السؤال عينه: هل عليه أن يفشي السر أم لا لملكيور؟

استبد به السعال من جديد، مجبرا إياه على الانطواء، ويداه متصلبتان على حافة المائدة. سقط مخٌّ على فخذه، كان لزجا أشجّا.



- ملكيور، قال بين سعلتين. لدي شيء مهم أريد أن أقوله لك.

حرك الرجل رأسه وحدّق في طبق الفرانسيسكاني.

- إنك لم تأكل شيئا. ليس من الأفضل...

- انصت لي يا هذا! الأمر يخص أخاك أودريك.

- آه؟

ابتعد أوريليو عن المائدة، أمسك الكرسي الذي كان يقتعده، ونحت نظر ضيفه الحذر، اعتلى إحدى الساريتين التي كانت تعترض السقف من جانبيه. تلمّست يده طول الجهة العليا. حينما نزل، كان يمسك غلافا من جلد الماعز.

- انصت لي جيدا، أمره وهو يضع الغلاف على المائدة. ما سوف أفضي لك به، قد يبدو لك غامضا. لا ضير في ذلك. اعلم فحسب أن عليك تذكر أمرين.

- أظهر الفرانسيسكاني سبع ورقاتٍ دفعَ بها أمام ملكيور.

- بداية هذه.

- ما تلك؟

- سبع رسائل أنا كاتبها، والتي يجب عليك توصيلها مستعجلا إلى أصحابها. سوف أدلك في وقته وحينه على السبيل إلى ذلك وتوقيته. هل فهمتَ قصدي جيدا؟

- بالتأكيد.

ردد ملكيور:

- سبع رسائل يجب علي توصيلها مستعجلا إلى أصحابها. سوف تدلني في وقته وحينه على السبيل إلى ذلك وتوقيته».

- تماما. الآن ها هو الأمر الثاني الذي يجب تذكره. نحنح كامبيني جرعة من حلقه:

- إن الأمر يتعلق بخريطة...



مونتيمور، البرتغال ديسمبر/كانون الأول ١٣٤٦

- «أنتِ بستان مقفل حقا، أختاه، عروسي، بستان مقفل حقا، نبع مختوم حقا. نضيض مائك تخرج منه روضة أشجار الرمان وفيك أشد العطور ندرة: سنبل الطيب والزعفران، قصب الذريرة، والدارسين، وكل أشجار اللّبّان؛ والمر والألُوة، وفيك ألطف الروائح. نبع يخصب البساتين، آبار المياه الرقراقة، وغُدران لبنان الجارية!»

تمالكت إيناس نفسها من القهقهة قبل أن تجيب:

- قومي، يا ريح الشمال، أقبلي، يا ريح الجنوب! هُبّي على بستاني، ولتَقَطّري عطوره! وليدخل حبيبي بستانه، وليذق ثماره الطيبة!»

انحنى بيدرو على الورقة التي كانت في يد المرأة الشابة وأنشد بدوره:

- نزلت إلى بستاني، أختاه، عروسي، قطفت مُرّي وبلسمي، أكلت شهدي وعسلي، شربت نبيذي وحليبي».

- توقف يا حبي! هذا النص فاحش بشكل لا يصدق.

استعاد الانفانتي الورقة ورماها على العشب، ثم أخذ إيناس بين ذراعيه بجموح.

- فاحش؟ ذلك مؤكدبالنسبة لمن يجيد قراءة معنى الكلمات الملتبس. لكن فقطمن له حس فاحش يستطيع ذلك. هل تملكين هذا الحس، حبيبتي، أختي؟

- متى كتبتَ ذلك؟

- خسارة! لستُ كاتبه. لكن كان في وسعي القيام بذلك.

- من إذن؟

- إنه ملِك.



نظرتْ إليه إيناس برِيبة.

- أجل، استأنف بيدرو كلامه. ملِك عاش منذ زمن بعيد جدا. بل قبل أن تنشأ البرتغال. قبل ذلك بكثير.

- واسمه؟

- سالومون[1].

- المذكور في الانجيل؟ مستحيل؟ النص مفرط في فجوره!

- ومع ذلك، فتلك حقيقة لا مراء فيها. مما يدل على أن حتى الملوك قد تصيبهم لوثة الحب وتجيش عاطفتهم تبعا لذلك.

لثم بشفتيه عنق إيناس وهمس:

- أحبك، يا صدر البجعة...

أظلمت عين المرأة الشابة هنيهة.

- لكن إلى كَم من الوقت بعدُ؟

تطلَّع إليها، مستغربا.

- سؤال غريب. هل تشكين فيّ؟

نكَّست.

- ماذا يحدث، إيناس؟ إني أعرف عن ظهر قلب أصغر رعشة في صوتك.

- هذه المرة، أنت مخطئ. كل شيء على ما يرام. نهضت ورتبت ملابسها.

- فلنرجع. الشمس تغرب. أشعر بالبرد قليلا.

حبس ذراعها.

لم تنسي أني أرحل غدا عند الفجر وأني سأغيب مدة طويلة؟

- القنص، أجل. ترافق والدك.

---

(١) الملك سليمان بن داود.

- لقد ألزمني بذلك. وقد أجبرت على القبول.
- حسنا فعلتَ.

تظاهرت بالانصراف. منعها.

- إذن، أخبريني الآن بالخواطر التي تشغل بالك. لا تسمحي للحيرة بالاستحواذ عليكِ.

منحته ابتسامة مطمئنة.

- لقد أجبتك، بيدرو. كل شيء على ما يرام. لا تحاول إذن توهم ما ليس له وجود. هيا، إني أشعر بالبرد.

هناك بعض من تلك النجوم الخافقة فوق المعسكر والليل الوضّاء. والجمر المتوهج. ورائحة اللحم المشوي. بقايا ظبي شادن تم قنصه، المُقطع إربا إربا، والذي التهمه الأدلاء والكلاب. هناك تلك البيوت المبيَّضة بالجِير، ذات النوافذ القرمزية؛ والخلوات، صوامع التبتل، المستلقية المنعزلة في حضن التلال؛ قلاع الحراسة على قمة لاسِيرا الشرقية، وتلك المَقطرة الفلق التي تراءت في ساحة إستراموزا، حيث على طرفها يتأرجح لص محبوس وقد عُرِض لقصاص الغوغاء؛ كان هناك أيضا قطعان الخنازير السود المندفعة في البراح، وفي الأخير، هذا المساء، تلك الوقفة بمعبد ساوْ باؤلو.

كان الركب يغط في نومه، والكلاب، المتكورة، توقفت عن الجري. واختلى الملك بنفسه في خيمته، وحده بيدرو، الجالس قرب النار، كان صاحيا. من أن يأتي هذا الألم الذي استبد به، منذ معركة الكتيم والذي لم يستطع تحديده؟ هذه المرة لم تكن رائحة الدم البشري والملامح المنقبضة للجنود الذين اخترقهم سيفه هو ما أسكره، وإنما رؤية تلك الحيوانات البريئة المذبوحة. لماذا؟ هل هناك قسط نائم من كيانه قد صحى بغتة، ومعه روائح القسوة قادمة من زمن كان يستلذ به الناس الأضاحي البشرية، حيث كان الإنسان المتوحش



والجاهل يفرح بالقتل؟ فيه هو، بيدرو؟ هو الذي، حتييوم الناس ذاك، لم يستمتع إلا بنشيد الكلمات والاستعارات الشعرية، ها هو آخذ في الشبه بأبيه. كلا! أبدا!

استعاد لحافه واستلقى بالقرب من النار. سيكون في النوم خلاصه. من المعروف أن الليل يسنح بالأشباح؛ إن أفلح في النوم، غدا سيكون قد نسي.

- مولاي بيدرو!

- مصالا؟ ماذا تصنع هنا؟

كانت لحية العبد معفرة بالتراب. وعيناه اللتان أحاط بهما السّخام نشيان بتعبه العظيم. الواضح أنه ركض بفرسه بأقصى سرعة، للوصول هنا، ولم يوفر جهدا.

جثا على مقربة من الانفانتي.

- الأمر يخص دونا إيناس.

اعتدل بيدرو.

- هل حلَّ بها مكروه؟

تردد البربري قبل أن يجيب.

- لا تسعفني العبارة... لن تؤاخذني إن...

- تكلم!

- هو ذا، مولاي، هو ذا. غداة رحيلك، أتت دونا إيناس لزيارتي وحتى قبل أن تكشف لي سبب مقدَمها، جعلتني أقسم على أن لا أفشي السر.

مطّ مصالا شفتيه انزعاجا.

- فليغفر لي الله. لكن مثلما جاء في الكتاب: «ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به».

- أوَ سوف تتكلم؟



- حسب ما قالته دونا إيناس، هناك آنسة من بين صديقاتها غرر بها أحد نبلاء الحاشية. والظاهر أن هذا النبيل هو مولى بغيض لا ينوي الوفاء بعهوده. وقد استبد اليأس بالمأسوف عليها وهي مستعدة للإقدام على ما لا يحمد عقباه. وقد سألتني دونا إيناس ما إذا كنت أعرف، من باب الصدفة، هل هنالك مِن بينِ الخدم والخادمات في القصر شخص مؤهل...
- مُجْهِضة؟
- تلك هي العبارة.
- وما اسم تلك الآنسة؟
- لا أردي. لم تشأ دونا إيناس الإفصاح لي عن ذلك.
- ومن أجل أن تقص علي هذه الحكاية أقبلت على هذه الرحلة كلها.

عبث البربري بلحيته على نحو متوتر.

- الحق أقول، مولاي... لا أدري كيف أقول ذلك. إني أعرف قليلا بني البشر، النساء على الأخص. لقد تفرست مليا دونا إيناس أثناء حديثها إلي. ملمحها النقي بشدة في العادة، بدا أقل سكينة. حدسٌ...
- أسكت!

أغمض بيدرو عينيه، وأسلم نفسه للصورة الأخيرة التي حملها معه من إيناس.

- *أحبك، صدر البجعة.*
- *لكن إلى كَم من الوقت بعدُ؟*

وثب الأمير واقفا على رجليه وصاح:

- أقبل، مصالا! لا وقت للهدر!

حينما طلع الفجر، أعطى الملك إشارة الرحيل نحو جبل أوسًا. وفي اللحظة التي كان يهم فيها بهَمْز مطيته فطن إلى غياب دون بيدرو.



فريول، قرية فيلانوفا، اليوم ذاته

أغمض ملكيور عيني كاميني باحترام ثم ركع.

عجيب، حدث نفسه، كم إن ملامح هذا الفرانسيسكاني مغتمة. لقد سبق ورأى ملكيور موتى. ولاحظ دوما أن في النزع الأخير يفارق الانقباض وجوههم. وتظهر السكينة. الإقرار الهادئ أمام نهاية العذاب الأرضي. بينما على هذا الوجه، كل شيء فيه منقبض، وكأنه بعد أن جاز باب السماء، في حضرة الخالق، رأى نفسه من المبعدين. أمر غريب.

نهض ملكيور ومشى نحو المائدة حيث بسطت خريطة بحرية وكذا الرسائل السبع التي كتبها المتوفى. لم يفهم شيئا، ولعله القليل، من قصة القس يوحنا، والمتعصبين الذين يعارضون ملازمي الأديرة، كما لم يفهم شيئا من تلك اللعنات التي رما بها الفرانسيسكاني في وجه الكنيسة. لا شك أن للرجل دوافعه. لم السعي بعيدا؟ بعد كل شيء، ألم يكن أوريليو صديقا لأودريك، أخيه؟ وهذا وذاك عالمان. وملكيور ليس إلا فلاح بسيط. ثم، إذا كان ملكيور يشعر بالشك في قدرة على فهم بعض الأمور، يكفيه أن ينظر إلى أي شخصيات مرموقة بعثت هذه الرسائل كي يقتنع نهائيا بأن منجزات هذا العالم الكبرى سوف تكون دوما أبعد من مناله.

تناول قائمة الأسماء وأعاد قراءتها للمرة الربعة.

قداسة البابا كليمنت السادس

جلالة فليب السادس، ملك فرنسا

جلالة إدوارد الثالث، ملك انجلترا

جلالة قسطنطين الحادي عشر، دراجاسيس، امبراطور بيزنطة

جلالة ألفونسو الرابع، ملك البرتغال

جلالة ألفونسو الحادي عشر، ملك قشتالة وليون.



وفي الأخير، وحده المرسل إليه السابع ينتسب لعامة الناس. يخص الأمر الأب لويجي كريمونتي، رئيس الدير الفرانسيسكاني في تيرجيست. على بعد فراسخ معدودة من هنا. أكثر من مرة، خلال مقامه، ذهب كامبيني إلى هنالك. لم يدرك ملكيور سبب تلك الرحلة الغريبة، لكن منذ أيام قليلة أصبحت الأمور واضحة: فالأب الرئيس هو من سوف يتكفل بتوصيل الرسائل عن طريق حملةِ صحفِه. وهم رُسُل، كما شرح له كامبيني، يقومون في الأديرة والكنائس بما يقوم به خيَّالة بريد الملك.

رمى مليكور بزفرة مستغرقة. إن المهمة التي ورثها معقدة جدا.

٢٢

قاعة المجلس الكنسي، القصر البابوي، أفينيون، حزيران، ١٣٤٧

كان كليمنت السادس يتميز من الغيظ.

وهم جلوس، قباله، كان الأربعون أسقفا المدعوون على عجل لا ينبسون بكلمة. وفيمَ كان سينفعهم الاحتجاج؟ من منهم سيجد في نفسه تلك الشجاعة؟ وحتى لو برز هذا المتجاسر، فإنه لن يكون بالتأكيد من جماعة الكرادلة الخمسة والعشرين، وكلهم فرنسيون، الذين يَدينون بترقيتهم للحبر الأعظم الجديد؛ خمس وعشرون، من بينهم إثنا عشر واحد من أقربائه المقربين.

- كيف؟ كيف تم السماح بحدوث مثل هذه الورطة؟

لوَّح الحبر الأعظم بصحيفة.

- هل قرأتم هذه الرسالة؟ هل قرأتموها؟

فتَّش جيب رداءه الناصع البياض وتناول نظارتيه.

- «إلى كل الولاة والنواب، الأساقفة والملوك في كل مكان من هذا الكون، وإلى كل الذين تصلهم هذه الرسالة، أنا، أوريليو كاميني، أخ فرانسيسكاني، خديمكم الصغير والحقير لوجه الرب الإله، أقرأكم التحية والسلام.

تفكروا في الأمر، واعلموا أن يوم الممات قريب!



لقد خنتم الأمانة. خنتم وتجاهلتم الأمر الربّاني، بعد أن أكلكم الطمع والغرور، والشهوات وأموال هذه الدنيا الفانية. إنكم تختالون في ذهبكم وقصوركم، مثل الخنزير في وحله. نكّبتم عن الرب ووصاياه. وحرفتم تعاليم المسيح، مخلصنا، الذي يدعو لنذر الفقر ولأجل هذا سوف تحل عليكم اللعنة! إذ كما جاء في الكتاب إن الذين نسوا المولى ونكبوا عن وصاياهعليهم اللعنة وهو بدوره سينساهم. وعندما يحين يوم مماتهم، كل ما حسبوا أنهم مالكوه سينزع منهم. وكلما كانوا من العلماء والأقوياء في هذه الدنيا، كلما ضاعف عذابهم في الجحيم! لقد كذبتم! كذبتم لمَّا جعلتم الناس يصدقون أن هناك مملكة نصرانية في مكان ما من العالم المعروف مملكة القس يوحنا. باطل! باطل! بئس الناس أنتم! أتباعكم هم من كتبوا تلك الرسالة بتحريض من البابا لوسيوس الثاني. وكل من خلفه، رغم علمهم بالأمر أبّدوا الخديعة الخسيسة. لم ينهوا عن ذلك. بل الأسوأ من هذا، بعثوا بعض المساكين الأشقياء ليضلوا في الطرقات والبحار، ويموتوا فيأغوار ليس لها قرار، بغرض وحيد ألا وهو رعاية الشائعة. ومن بين هؤلاء الأشقياء، كان هناك صديقي الأعز، أودريك دو بوردنون. وسوف تجدون هنا رفقته نسخة من المراسلات المتبادلة في سرية تامة بين الأساقفة المتورطين فيالخدعة البشعة. وهذه الوثائق هي جزء من الملف ١٢٤٧B، المصنف باسم القس يوحنا، والذي عثر عليه، بمشيئة الرب، في أرشيف لا طران. وعلى الأخص لا تسارعوا لإنكار صحتها! لا تتجاسروا! إن النسخ الأصلية في مكان آمن. وستظهر للعيان إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

لقد سمحتم عن قصد بأن ينتشر هذا الاعتقاد بغرض وحيد هو الحفاظ على نفوذكم في العالم النصراني. وكلما دام الرجاء في تحرير الأرض المقدسة، وكلما رعيتم الشك، لن يمس قدرتكم سوء. يا لكم من أشقياء!



هذه الرسالة بلاغ لكم بالتخلص من كل تلك القروح ألا وهي أموالكم العينية، وثرواتكم، وممتلكاتكم وأراضيكم. صلوا! توسلوا إلى الرب بأن يمن عليكم بمغفرته وبأن يسمح لكم بالحصول على الجسد الأقدس والدم الأقدس، جسد ودم سيدنا يسوع المسيح، ذكرى له.

وللشعب الذي اؤتمنتم عليه، فلتشهدوا أنفسكم على تقديس المولى: كل ليلة، اجعلوا المنادي ينادي أو ينذر بعلامة ما، أنكم ممتثلون لهذا البلاغ. وإن لم تفعلوا، اعلموا أنكم ستؤدون الحساب يوم القيامة أمام الرب إلهكم يسوع المسيح.

الأخ أوريليو كاميني،

فيلانوفا، فريول.

سعى البابا إلى استرجاع نفَسه.

- لقد أرسِلَت نسخ من هذه الرسالة إلى ملوك كل فرنسا، وانجلترا والبرتغال وقشتالة وامبراطور بيزنطة! تصوروا الإهانة! تعرفون ما يجب علينا فعله، حسبما أظن؟

لم يأته جواب.

- التكذيب! هتف كليمنت السادس. التكذيب بأي ثمن! إشاعة فكرة أننا نتعامل مع متهفك أو مجنون. لكم الخيار!

جازف كاردينال بالقول:

- الكاتب... ذاك الفرانسيسكاني. لقد ألمع إلى أنه إذا نحن خالفناه، فالنسخ الأصلية. ...

أمال البابا رأسه إلى الخلف وحدق في السقف.

- ألم تفهموا شيئا إذن؟ أكرر لكم أنه ينبغي الإنكار.

انتصب في جلسته.

- إنكار كل شيء جملة وتفصيلا! من يستطيع الإقرار بأن الأصلية ما



هي إلا نسخ مزورة قد تم وضعها من الصفر؟ من؟ من يضع موضع شك كلام الأب الأقدس، والحالة هذه كلامي؟ انكروا! انكروا كل شيء!

أطبق الصمت، بالكاد خرقه صوت الأشغال التي أخذها الأسقف الأكبر على عاتقه بعد وفاة بنيدكت الثاني عشر.

- هل أفلح، واصل كليمنت السادس، هل أفلح أحد في جمع أخبار عن هذا الشخص؟
- أجل، قداستكم، من حسن الحظ، لقد عثرنا على أثره بفضل إشارتين ذكرهما في الرسالة: تلكما التي تذكر أودريك دو بوردنون، والقرية التي كان يقيم بها كامبيني. فيلانوفا، قرب تيرجيست. وقد ذهب واحد منرسلنا إلى عين المكان.
- وعليه؟
- لقد مات أوريليو كامبيني. كان يقيم عند أخ أودريك. ذهب رجل ثقتنا إلى المقبرة ورأى القبر.

جعل بريق من الانشراح أسارير البابا تنبسط.

- هذا خبر رائع! لن يكون في وسع الشخص البذيء أن يسوءنا. وماذا عن أخ أودريك! هل يعلم شيئا؟
- إنه رجل قليل الفطنة. لم نفلح في الظفر بشيء منه، لكنه أقر بأن كامبيني أقام عنده بالفعل.

رفع كليمنت السادس يده وبإيماءة عريضة ومدروسة بارك الجمع.

- انصرفوا في سلام، إخوتي. ولا تنسوا: انكروا، انكروا كل شيء، حتى ولو وضعت رؤوسكم تحت المقصلة!

مونتيمور، البرتغال، تموز ١٣٤٧

قهقه الملك ألفونسو الرابع.



- ألستَ أنت، كويلهو، من قال، منذ عام تقريبا، بخصوص فرانسيسكاني الشؤم ذلك: «شيء ما يخبرني بأننا سوف نعثر عليه ذات يوم»؟ وعليه، لقد كنتَ محقا!
- من كان يسعه تخيل ذلك؟ تمتم كاتب العدل. هذه الرسالة بالكاد قابلة للتصديق!

وشرع العاهل يضحك بصخب.

- أحاديث ملفقة! تدليس! عظيم! مملكة القس يوحنا، مملكة شبح! لو أن هذا المقلب لم يكلفنا الكثير، لقُمت بالتصفيق لصاحبه.

بوجه علته الكآبة، قال بلتزار:

- شئنا أم أبينا، يا صاحب الجلالة، فإن تصفية الحساب هذه داخل الكنيسة لا تدل في شيء على أن الخريطة لم توجد. ثم إن كامبيني يحرص على ذكر ذلك في رسالته. بينما أني رأيت تلك الرسالة! رأيتها بعينيَّ هاتين! إنها موجودة!

صار وجه الفونسو محتدما من جديد. ردَّ بقوة:

- تمام، سينيور، هيا إذن! انطلق للبحث عنها!

في لندن، وبيزنطة والبلاط الفرنسي وفي قشتالة، تساءل الملوك: هل يجب أن يضحكوا أم أن يبكوا؟

أما أخوا إيناس، فإنهما لم يواجها السؤال، لقد كانا مشغولان كثيرا بإطفاء نيران الانتقادات: أساسا تلك الصادرة عن ألفونسو الحادي عشر.

مونتيمور، آب ١٣٤٧

بكثير من الحيطة والحذر، رفع بيدرو الرضيع من مهده وضمه بشدة إلى صدره.

بياتريس، قال همسا، بياتريس، بنت إيناس دي كاستروودون بيدرو. لك عينا جدتك الزبرجديتان وسواد شعر أبيك.



نظر إلى إيناس والعتاب بادي عليه.

- لو أن مصالا لم يخبرني... كيف وسعك العزم على حرماني من مثل هذه السعادة العظيمة؟ حينما يخطر ببالي أنكِ أوشكت منذ شهور معدودة...

- أرجوك. لقد وعدتني بأن لا نعود أبدا إلى ذكر لحظة الغواية تلك.

- أنتِ على صواب. مع ذلك، أجيبي عن سؤال أخير، واحد.

وضع الرضيعة في مهدها ودنا من إيناس.

- هل كنتِ جادة؟ هل كنتِ حقا عازمة على التضحية بولدنا؟

أجابت دون أدنى تردد:

- أجل.

- خوفا؟

- خوفا من أن أضع ذكرا. خوفا من أن يرى أباك والحاشية في ذلك تهديدا لفرناندو.

صاح:

- هذا غير معقول! أليس ابن كونستانزا ابني كذلك؟ باسم ماذا أحرمه من حقوقه لصالح ولدنا؟

طأطأت رأسها، وقد أخجلها ذلك تقريبا.

- بسبب حبنا، بيدرو. هذا ما ظننته على الأقل. هذا الحب، ألم يتجاوز الحد؟ ألا يجعلنا نقترف أسوأ الحماقات؟ لقد أردتُ فقط أن أحميك من نفسك. أعذرني.

تأملها في صمت، وهو عاجز عن معرفة إن كانت مخطئة أم على صواب.

- إنك جميلة، قال برفق. لم يسبق أبدا أن كنت جميلة بهذا القدر. إني...

لم يكمل جملته. هناك من يطرق على الباب.



- أدخل! قال بيدرو آمرا.

دس خادم رأسه من خلل الباب.

- مولاي، جلالته ينتظرك على عجل في قاعة المشورة.

- الآن؟

أكد الخادم قوله.

حينما ولج بيدرو داخل القاعة، لاحظ بسرعة حضور غونسالفيس، باشيكو، كويلهو وكذلك الساحر. وإن فاجأه الأمر، فهو لم يظهر من ذلك شيئا. لاحظ أيضا وجه الملك الواجم والجو المتوتر الذي يعم القاعة.

- أرسلت في طلبي، أبي.

أشار العاهل إلى كرسي.

- خذ مكانك.

كانت أصابع ألفونسو تنقر على المائدة، بينما في الوقت نفسه، كان يتطلع إلى ابنه وكأنه يراه للمرة الأولى.

بعد صمت وجيز، استفسر بإقتضاب:

- أحوال بنتك بخير؟

- بفضل الرب، أجل، أبي.

- لقد اعتبرتَ من المشرّف منحها اسم زوجتي، الملكة، أمك.

- مشرّف؟ أليس من عظيم الشرف... أن...

كان لا بد له من استئناف جملته:

- أليس من عظيم الشرف أن تمنح اسما بمثل هذه القداسة؟

كسى قناع من الصقيع وجه ألفونسو.

- حسب علمي، اسميتَ بنتك الأولى ماريا. هل يجب أن أستخلص من ذلك أنك اعتبرتها غير جديرة، هي، بما تفضلت به على بنت عشيقتك؟



- ماريا..لم يكن ذلك من اختياري، بل هي كونستانزا. أنا... أنا لم... أنا لم أعترض على ذلك.

توقفت أصابع العاهل.

- كفَّ عن هذه التأتأة!

أهْلس أحدهم. هل كان باشيكو؟ أو واحد من المستشارَين الآخرَين؟ أما بلثزار فلا يليق به هذا النوع من التصرف. أحس بيدرو بوجنتيه تحمرَّان. شدَّ قبضتيه.

واصل الملك:

- لقد حسمتُ أمري! وجود دونا إيناس بقصرنا لم يعد مرحب به.

ترنح بيدرو.

- ماذا؟ ماذا تقول؟

- لم يعد مرحب بها فحسب، بل نعتبرها غير مرغوب فيها ومسيئة. في هذه الأحوال، سوف تخبر تلك المرأة بأنها مأمورة بمغادرة البرتغال. إننا نحكم عليها بالنفي.

وثب بيدرو نحو الملك.

- كلا! لن تستطيع ذلك!

قام الملك.

- لا أستطيع؟

- أبي، صاحب الجلالة... أتوسل إليك...

قام بيدرو بخطوة إلى الأمام. دفعته يد ألفونسو.

- بداية من الغد، سوف تلزم دونا إيناس بمغادرة أراضينا والعودة إلى قشتالة. لا أريد أن أراها مطلقا!

- كلا!

- اصمت!

- كلا! ليس لديك الحق! إيناس لي. سأتبعها! ولو ذهبت إلى الجحيم.



- تتبع عاهرة!

رفع الانفانتي جبينه وقال بنبرة تحدي:

- خلقتنا الطبيعة من دم واحد! أصلها مَلكي، سليلة ملِك، إنها جديرة بملِك!

- عاهرة!

- ملِكة!

همَّ الفونسو نحو سيفه. من ذعره، اعترضه بلثزار. لم ير أي من المستشارين الثلاثة أن التدخل مفيد.

- هدئ من روعك، صاحب الجلالة، رجاء الساحر. إنه ابنك.

- ابني؟

تحرك بيدرو خطوة إلى الخلف.

- موقفي واضح. قال معلنا. إذا قمتَ بنفي إيناس، فإنك تنفيني.

- هي تهديدات الآن! حسنا ارحل! ارحل، دون بيدرو!

- لا تدفعني للتحدي! إني...

قاطعه بلثزار وخاطب الملك:

- صاحب الجلالة، كثيرا ما تتجاوز الكلمات خواطرنا. امح من ذاكرتك كلام دون بيدرو.

واقترح بتكتم:

- ألا يمكن التفكير في حل وسط؟

تهالك الملك فوق أريكته بكل ثقله وترقب التتمة. لكن الساحر استدار صوب الانفانتي.

- انصت لي، مولاي. ليس من المستحسنأن يعصى ابن اباه. إذا التزم صاحب الجلالة انصراف دونا إيناس، يجب الوفاء بهذا اللزوم.

- إني...



- دعني أكمل! هل تقبل بأن تنسحب هذه المرأة، من دون أن تغادر البرتغال مع ذلك؟

حدّق بيدرو في والده طويلا.

- إذا لم يكن لدي خيار آخر، الجواب هو «نعم».
- إذن، فلترحل! أرعد العاهل. خذها إلى حيث تشاء. لكن لدي شرط!
- ما هو؟
- أن يكون هناك ما لا يقل عن خمسين فرسخا[1] فاصلة بينك وبينها! هل تسمعني؟ ليس أقل من خمسين فرسخا!

تابع الانفانتي النظر إلى أبيه خزرا قبل أن يذعن.

- سوف يكون الأمر وفق مشيئتك.

ألقت الملكة نظرة كئيبة نحو النافذة المترعة على سماء الليل. تسلل هواء ساخن إلى الغرفة. أمسكت مروحتها وبسطتها بشدة. لا سبيل للنوم.

لقد حاولتِ الحديث مع بيدرو لمعرفة أين ينوي أخذ إيناس. لكن هذا الأخير رفض الجواب قطعا، محتصنا بأسئلة تتردد كاللازمة: *لماذا؟ من أين تأتي تلك العدوانية الكامنة في المِلك؟ ألم تمت كونستانزا؟ ألم يكن بيدرو حرا؟*

لم تقل بياتريس شيئا. إنها تعرف الأجوبة مع ذلك. لكنها لم تقل شيئا.

نهضت، ومشت حتى الباب المتصل بغرفة الملك. وضعت يدها على المقبض لكنها غيرت رأيها. ما جدوى تدخلها؟ في كل الأحوال، كان ألفونسو يغط في نوم عميق. كان في وسعها سماع صوت نفَسه الأجش من خلال دقّة الباب.

---

(١) ماتتا كيلومتر.



ألفونسو ينام، بالفعل. لكن ذهنه يرتقي نهر الزمن.

السماء صفراء والأرض زرقاء فولاذية. والأشجار ثابتة لم تعد تتنفس. لا نسمة، ولا نفَس. أقزام وعفاريت الفتنة يتقاتلون ضربا بالطواعين، ويهددون بإحراق المملكة بأسرها. أطفال يكشرون عن أنيابهم، ويصرخون باللعنات في ممرات القلعة.

يدفع ألفونسو باب قاعة المشورة. لا ينظر نحو أبيه ويجلس قرب منشار، موشحا شفتيه بابتسامة.

ذكره صوت الملك دينيس في الحين بالامتثال للضوابط.

- دونْ ألفونسو، ها قد مضت ساعة تقريبا ونحن في انتظارك! ساعة! كان في وسعك استبدال ملابسك قبل حضورك! يا لحالك! وسخ مثل خادم الاسطبل!

- لقد عدتُ من رحلة صيد، أبي.

- الصيد! الصيد! ألا ترى بأنه هدر للوقت! تستطيع على الأقل تخصيص بعض الساعات للقراءة ولشؤون المملكة!

قال ألفونسو متهكما:

- قراءة أشعارك؟ لقد حاولت فعلا. لكن النوم غلب مثابرتي. في رأيي...

- اصمت! تستطيع على الأقل الاعتذار من الجمع!

قام ألفونسو بانحناءة ساخرة.

- معذرة، ايها السادة، كنتُ أجهل بأن وجودي ضروري بكل هذا القدر.

أشار إلى شاب في فتاء السن يجلس يمنة أبيه.

- أليسانشيز هنا؟

- لا أرى صلة بالموضوع؟

- إنك تدهشني! هل نسيتَ بأن دونْ سانشيز هو أيضا ابنك؟ أخي غير الشقيق؟



كزز دينيس على أسنانه.

- هو كذلك بالفعل. وهو لا يمضي أيامه في الصيد! إنه يحترم تقاليد البلاط ولا يملك من الفظاظة لجعل الملك ومستشاريه ينتظرون.

ضحك ألفونسو باستهزاء:

- كما جرت العادة، لا تعتبر سوى الأشخاص التابعين لك! آسف، أنا لست واحدا منهم!

دبَّت حركة في القاعة.

قام المستشارون قومة رجلٍ واحد.

للأسف، مولاي، أعلن واحد منهم. لا يمكننا السماح بالإهانة.

قدم التحية وانسحب راجعا على عقبيه، وسار على هديه مرافقوه.

- أنظرا زمجر الملك دينيس. أنظر كم يحتقرك الناس! إنك لا تزرع سوى الشقاق والغضب في هذا القصر. متى تتبدل؟ متى تدرك الدور الذي لك؟ سوف تبلغ الثلاثين! متى؟

نادى ألفونسو على الفتى المقيم على صمته دائما.

- هل صرتَ أبكما، سانشيز، أخي؟ هل تعيينك قهرمانا للقصر يشل لسانك؟

ألصق قزم أنفه على زجاج النافذة.

أطلق سانشيز ضحكة متوترة.

- هل الذنب ذنبي إن ارتأت حكمة والدنا بأنك غير جدير بهذا المنصب؟

قهقه القزم.

غادر ألفونسو المائدة، التف حولها ومشى صوب أخيه غير الشقيق.

- أيها الغبي المسكين! هل تعلم اللقب الذي يطلق على والدنا في شوارع لشبونة؟ «صانع أبناء الزنا!»



بصق على الأرض، وكرر، لكن هذه المرة مخاطبا العاهل:

- صانع أبناء الزنا!

وظل دينيس كله لا مبالاة.

- انبح إذن، ما دمتَ عاجزا عن العض!
- أوه! بلى! أستطيع العض. لا تدفعني لأوريك البرهان!

طمأن سانشيز الشاب العاهل بنبرة ملؤها التكلف:

- لا تحزن، يا أبي، لن أسمح بأن يمسّك سوء.

ربّت الملك على يد الفتى الشاب.

- لا مكان للخوف.
- يا ابن العاهرة[1]! صرخ ألفونسو.

لوَّح بقبضته على مرآى من العاهل.

- أبي العزيز، سوف ترى إن لم أكن قادرا على العض! طفح الكيل! أطالب بحقي الشرعي. تُفضل ابن الزنا هذا على ابن نفسك؟ تمنحه كل أوسمة الشرف؟ ذاك من حقك. ومن حقي أن أرفض ذلك! سواء شئت أم أبيت، سوف يكون التاج لي. إذا لم تكن شاهدا في السابق على مملكة أشعلت فيه النيران وسالت الدماء، إذن، ما عليك سوى اللوذ بقمة أعلى برج من هذا القلعة وافتح عينيك جيدا.

صفق الأقزام بشدة.

أطلق عفاريت الفتنة صيحات الانتصار.

النيران تحرق البرتغال الآن. فتح الأب والابن أبواب جهنم. لم يعد نهر التاجة هو الذييتدفق عبر الوديان المقفرة بل نهري الحقد والنسيان، الستيكس والليثي. وتجتاز طيور الهاربيات الممسوخة السماء متأهبة لغرز مخالبها في صدور كل الأطفال غير الشرعيين.

---

(١) بالبرتغالية في النص: Filha da puta



لاهثة، مذعورة، مسرعة من قلنبيرة حيث تسود أشد أعمال العنـ
قــوة، الملكة إيزابيلا، القديـــة إيزابيلا، تفرج يديهافي الســماء،
ذراعاها مصلوبتان، سعيا منها للحؤول بين زوجها وابنها. دون طائل.

البابا بنفسه يناشد ألفونسو بأن ينهي الرعب. يكتب له. رسالة يوحنا
الثاني والعشرون هناك، أمام ناظري الأمير. في الوسع أن نقرأ فيها
بأن الملك دينيس لم يتقدم بأي طلب لإقرار الشرعية. لن يرث سانشيز
العرش.

لا يصدق ألفونسو كلمة من ذلك.

يستمر الصراع المحتدم. عام، عامين، ثلاثة أعوام.

مخيم مؤقت وسط أرض سهلة.

الأرض حمراء من الدم.

ألفونسو يذرع خيمته جيئة وذهابا. يلعن، يوبّخ أباه والدنيا. إنه
يرغي.

- كفى، ألفونسو! كفى رحمة بنا، توسلت إليه الملكة إيزابيلا.
- لا تقحمي نفسك في هذا، أمي. لقد صبرتِ حد الإفراط على
عشيقات هذا الرجل. اليوم، فأنا أنتقم لشرفك أيضا!
- الرحمة! الرحمة لأجل البرتغال. الرحمة لأجلي.

وفي الأخير، أذعن ألفونسو لتوسلات أمه. انسحب الأب راجعا إلى
ليريا، والابن إلى بُومْبال. بسخاء، ولإقناع ألفونسو بحسن نواياه، منحه
دينيس السيادة على قلنيرة، مونتيمور وبورتو. وتم النطق بالمصالحة عند
المذبح. وأعطي الأمر بإقامة الأفراح في المملكة بأكملها.

انسحبت طيور الهاربيات، من يأسها.

وأعاد نهرا الحقد والنسيان للتاجة مجراه.

ليس لوقت طويل.



بعد عام من ذلك، استبد الجنون بألفونسو من جديد. مادام لم ينل من أبيه وسانشيز، ابن الزنا، لن يجد سبيلا للنوم.

متمردا من جديد، ها هو يزحف على لشبونة، وخرج أبوه املاقاته، بعد أن لعنه.

اصطدم الخصمان في الفالادي.

أخذت السهام والحجارة تتهاطل.

لكن لمن ذلك الطُّيف الذي يشرع طريقه بين رجال الجيش؟ من هي تلك المرأة التي تتقدم على متن بغل يحيطها ستة فرسان. الملكة؟ أي نعم. إيزابيلا، هي مرة أخرى. صانعة السلام. نصبت خيمتها بين الجيشين. لن تقع المعركة. لكن هذه المرة، لن يتصالح الأب والابن.

حينما همد، بذلك الخنجر في القلب، ترك الملك دينيس إرثه لابنه الذي يمقته. ليس العمر ـ لأنه بلغ من السن الرابعة والستين ـ ولا متاعبُ حكم طويل، بل هذا العذاب هو ما أوصله إلى القبر.

الآن يجب الاهتمام بابن الزنا.

بسرعة! تجريده من كل أملاكه. سانشيز يقاوم. يحمل السلاح. تحترق أرض البرتغال من جديد. سوف تحترق لمدة ثلاثة أعوام. ومرة أخرى القديسة إيزابيلا، صانعة السلام، تتدخل وتفلح في إقامة السلام بين الإخوة الأعداء، مجبرة ألفونسو على أن يرد لابن الزنا جميع أملاكه.

عاد الفجر. والهدوء أيضا. واسترد البرتغال أنفاسه.

العاهل ممدد، ذراعاه مطويتان على صدره. وقد جمعت الملكة إيزابيلا حول فراش موته كل أبناء الزنا الذين تناديهم أبنائها.

أطلق ألفونسو صرخة حيوان جريح وانتصب على سريره.

وجهه غارق في العرق. إنه يرتعد. إنه يئن.

ذلك الكابوس. دائما الكابوس عينه. لكن هل ذاك كابوس؟

طابق وجه بيدرووجه دينيس.




@3abeth

٢٣

وسط زوبعة من الرمال والغبار، توقف الركب الذي تجره أربعة أحصنة عربية، قبالة بوابة دير سانتا كلارا

كاندون بيدرو أول من ترجل وأهوى بيده إلى إيناس. عهدَت بالرضيع الذي كانت تحمله بين ذراعيها إلى خادمتها ثم وضعت قدما على الأرض:

- إذن هنا سوف أقيم، من الآن فصاعدا، قالت بابتسامة متعبة قليلا. سأكون بعيدة جدا من مونتيمور.
- ستة وخمسين فرسخا بالضبط. مشيئة والدي تُحترَم بالحرف.

أجال ناظريه بحثا عن مصالا. كان البربري قد ترجل منذ حين من على مطيته.

- فليتكلف الخدم بالجهاز. رافق الخادمة والرضيع. لقد تم إخبار كبيرة الدير.

أخذ المرأة الشابة برفق إلى قمة منحدر مخضرّ. أسفل شجرة أرز مهيبة، في الوسع رؤية المشهد الذي يمتد إلى ما لا يتناهى، يقطعه خط الموندِيغو المتعطف. كان النهر يجري بين الضفاف بلونها الأمغر. يعبر قلنبيرة قبل أن يتلاشى في اتجاه البحر.

- سوف تتعلمين عشق هذا المكان، قال بيدرو. إنه يليق بمملكة بما



أن أربعة ملوك رأوا فيه النور. حينما قرر جدي، دون إنريكي، نقل عاصمة المملكة إلى جنوب كيمارايس، وقع اختياره على قلنبيرة.

أما بخصوص الدير...

استدار نحو البناية القَبْفَة.

- لا ريب أنه المكان الأشد قداسة في نظري. لا أدري إن كنتِ تتذكرين ذلك. لقد أسررت لك منذ أمد بعيد أن جدتي، القديسة إيزابيلا، أنشأت سانتا كلارا وبأنها فكرت أن تمضي فيه أيامها الأخيرة.

- بالطبع. أذكر ذلك. ذلك الصباح ذاته حينما أخذتني إلى إسترموزا، داخل تلك الكنيسة حيث كان علي ارتقاء ما لا أدري من الدرجات عددا.

دسَّ بيدرو ذراعه حول محزم المرأة الشابة.

- ذات يوم. ذات يوم، أقسم لك بذلك، سوف نعيش أحرارا.

- ذات يوم، غدا، بعد ألف عام. ما أهمية ذلك؟ منذ أن صرتُ مِلْكا لك، سبع سنوات من ذي قبل، توقف الزمن.

- هيَّا. سوف أعرفك على الأم فِلِيبا. رئيسة الدير.

كانت الأم فِلِيبافي انتظارهما أمام بوَّابة الدير. تغطيرأسها بخِمار أسود. يَابسة، لها وجه مسنن علته الغضون؛ لم تبلغ بعد الأربعين لكنها تبدو أكبر من ذلك بعشرة أعوام. حيَّت الأمير بمالا يزيد عن الاحترام، وتطلعت إلى إيناس بعين محرضة. يشعر المرء بأنها متأهبة.

- احتراماتي، أماه[1]، هذه إيناس دي كاسترو. سوف تقيم بينكم من الآن فصاعدا. هي وبنتها، بياتريس.

رفعت رئيسة الدير حاجبها، بينما عبَر مقلتيها بصيص استنكار.

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: Madre

- بنتك، مولاي؟

أكد بيدرو برباطة جأش.

- أجل، بنتي. هناك أيضا خادمة دونا إيناس وكذلك خادمي، مصالا.

دبَّت ملامح انزعاجفي غضونها.

- هل هناك منمشكل؟ استفسر بيدرو.

ترددت الرئيسة قبل أن تجيب.

- إنك تعلم بالتأكيد، مولاي، أن هذه الدار موجودة بمشيئة الملكة القديسة وبأن هذه الأخيرة نصَّت في وصيتها بأن لا يقيم فيها سوى أفراد من العائلة المالِكة.

- وهذه هي الحال، أماه. أب دونا إيناس سليل الملك سانشو الرابع، عاهل قشتالة، واسمح لنفسي بأن أذكرك أنه ليس سوى جدي من أمي. وتبعا لذلك، فوجودها بهذا المكان شرعي جدا.

لم تنبسط أسارير الراهبة رغم ذلك.

- أعذرني، دون بيدرو. لم أكن أعلم ذلك.

استدارت نحو إيناس.

- مرحبا بك إذن في جماعتنا، دونا إيناس. اعتبري هذا الدير وكأنه بيتك.

رأت من المجدي التوكيد:

- يقدم الغذاء بعد قداس الصباح والعشاء بعد صلاة النوم. أعتقد أنك تؤدين الصلوات الطقوسية.

أخذ بيدرو على عاتقه المبادرة بالجواب:

- بالطبع، أماه. لكن من الواضح أنه لا يمكن إجبار دونا إيناس على أداء أي فريضة.

وافقت الراهبة.



- بالطبع، مولاي.

اقترحت وهي تشير إلى المبنى.

- هل تشائين أن أريك المكان؟

هزت إيناس رأسها يمنة ويسرة.

- في وقت لاحق، إذا تفضلت بذلك. كان الطريق طويلا. أفضل أن تتم مرافقتي إلى حجرتي.

- فهمت القصد. تفضلي واتبعيني، أرجوك.

سارت خطوة واحدة واستدارت في الحين، وقد استبد بها الخوف بغتة.

- مولاي بيدرو، لقد ذكرت حقا وجود رجل؟

- أجل. مصالا. خادمي. إنه مكلَّف برعاية دونا إيناس.

خبطت صدرها.

- مولاي! رجل هنا؟ ذلك مستحيل! تمنعنا قواعدنا من ذلك منعا باتا.

- آسف، إنها حال قوة قاهرة. من اللازم أن يظل مصالا بجانب دونا إيناس.

كادت الراهبة أن تختنق.

- دون بيدرو...

- حق اللجوء، أماه.

- دون بيدرو...

- حق مقدس في حال الخطر.

وبدلا من إدخال السكينة على الرئيسة، فإن الملاحظة الأخيرة أفزعتها أكثر.

- خطر؟ ماذا تقصد من كلامك؟

تجاهل بيدرو السؤال.



- ماذا لو رافقتنا إلى حجرة دونا إيناس؟ لقد أخبرتك بذلك. كان الطريق طويلا.

أقل شيء هو أن الحجرة متواضعة. ولعلها ستكون شديدة البرودةلولا المزخرفات الخشبية المغطية للجدران التي تمدها بشيء من الدفء. هناك صليب يلقي بمثل ظل متوعد فوق السرير. ومركع وخزانة ملابس من خشب السنديان الدُّكن ومائدة وكرسي.

- ليس هناك مرآة، لاحظت إيناس، بصوت فيه شيء من الحنين.

- سوف أجعلهم يضعون واحدة.

خلعتْ شمْلتها وتهالكت فوق السرير.

- أشعر بأن قلبك مهموم، قال بيدرو. لا تحزني. أرجوك. فكري في الغد.

سالت دمعة على خد المرأة الشابة.

- لستُ حزينة، بيدرو. إني كئيبة فحسب. هذا شعور يعرفه شعبك كما تعرفه أنت جيدا. أظن أنكم تسمون ذلك[1] la saudade.

- saudade مرادف للعُزلة. لستِ فيعزلة. ولن تكوني كذلك أبدا. سوف أناضل، يا إيناس.

أمسكت يد بيدرو وحملتها حتى خدها.

- إن أباك ليس من الذين يستسلمون. إنه من صخر. قلبه قدَّ من خشبِ زيتونة.

- وقد يتحول قلبي إلى فأس! لقد وقفتُ على حجة ذلك منذ أمد ليس ببعيد.

أومأت بحاجبيها.

- ماذا تقصد؟

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: ومعناها العزلة.

لقد استطعت أثناء معركة الكتيم ملاحظة أني كنتُ قادرا على خوض الحرب وهزم أعدائي دون أن يخالجني أي شك.

- لكن أليست علة الجندي هي أن يقتل؟ ذلك اليوم، كنتَ جنديا.

- مع فارق بسيط: إلى ذلك الحين، فكرة إراقة الدم، ولو كان دما للعدو، كانت ترعبني. الآن أعرف أن ذلك ممكن.

أرخت يده.

- بيدروا لماذا تخبرني بكل هذه الأشياء؟ الحرب، الدم... هذه الكلمات لا تنتسب لحكايتنا.

- أنتِ على حق. بمشيئة الرب لن تكون جزء منها أبدا...

فارق إيناس في اليوم الموالي، عند الفجر.

في الأفق المائل إلى الزرقة، أعادت يد غيمةٍ كتابة كلمات عجوز مجنونة، عرّافة: *لا تدنس أبدا المكان المقدس، اقسم على أن لا تفعل!*

قصر مونتيمور

أشهد الملك ألفونسو زوجته.

- أليس هذا قمة الاستفزاز؟ ردي علي! كيف عنّ له وتجرأ على إسكان تلك العاهرة في مكان من أقدس الأمكنة! الإساءة لذاكرة أمي! على مرأى ومسمع من شعبي!

تنهدت بياتريس.

- وهل تركتَ له خيارا؟

- لقد قمت بما هو أفضل. لقد تنازلتُ! لو حكّمتُ عقلي، لكانت تلك المرأة هذه الساعة في قشتالة وليس في سانتا كلارا.

- وفي هذا التنازل زيادة شرف لك. لن تندم على ذلك.

شدَّ الملك قبضته.

- تضرّعي، بياتريس، بأن لا يكون هو من يندم على ذلك... وداعا!
- إلى أين أنت ذاهب
- للصيد! الصيد لأطفئ نار الدم الذي يغلي في عروقي.

فريول، قرية فيلانوفا، كانون الثاني ١٣٤٧

أعاد بلثزار عباءة فوق كتفيه، شكر السوّاق الجالس على مقعد عربة موحلة واتجه صوب البيت. طرق الباب، فتح له ملكيور.

- هل يمكن لي الدخول؟

تردّد ملكيور.

- ماذا تريد؟
- أسأل عن الأخ كامبيني. في القرية، قيل لي بأني سأجده هنا.
- أوريليو؟
- أجل. اسمح لي بالدخول. الصقيع يعم الخارج.

تجاوز بلثزار العتبة.

كانت النار تزمزم في الموقد. سيدة تطرز، تجلس على كرسي مقوس. فتاتان صغيرتان تلعبان النرد بعُظَيْمات في ركن من البيت.

صفق الساحر كفّيه وهو يرتعد.

- إلهي كم إن الجو بارد. ليس هذا من جاري العادة، أليس كذلك؟

جلس من غير دعوة على أول كرسي.

- أنت صديق أوريليو؟ سأله ملكيور، الذي ظل حذرا على الأقل.
- أنا أكثر من صديق. إنه...
- ألم يتم إخبارك في القرية إذن؟
- ماذا إذن؟
- هذا غريب. الناس على علم مع ذلك.

تظاهر بلثزار بالدهشة.



- على علم بأي شيء؟
- طيب... ذلك أنه مات. منذ حوالي ثمانية عشر شهرا.
- كلا! هذا غير ممكن!
شدّ الساحر رأسه بين يديه. ذُعر ملكيور.
- أنا آسف، سنيور. اعذرني.
- وا حزناه! وا أسفاه!
وجهد نفسه للإجهاش بالبكاء.
التصقت الفتاتان ببعضهما، وقد استبد بهما الذعر. هرعت المرأة.
- هل تريد أن تشرب شيئا؟ لدينا قليل من ماء الحياة.
- بكل سرور، بكل سرور، شهق الساحر.
- لم تقل لي ما اسمك، جازف ملكيور.
ابتلع الساحر جرعة.
- كاميني، أعلن بصوت مكسور. مارسيلو كاميني.
- كيف؟
أرتع ملكيور عينيه، متحيرا.
- أنا أخ أوريليو.
- أخوه؟
- بل أخوه غير الشقيق. لكن في نظري وفي قلبي لم أعتبر ذلك فرقا أبدا.
ومن جديد غمس وجهه بين يديه وتصنع الجهش بالبكاء مرة أخرى.
- بعد فوات الأوان... بعد فوات الأوان، غمغم. يا إلهي! يا لها من مصيبة![1].
- عجيب، استغرب ملكيور. لم يخبرني أبدا أن له أخ.

---

(١) بالإيطالية في الأصل: Che disgrazia!

- عادي. تفرقت بنا السبل حينما انتسب إلى الرهبانية. ذهب هو إلى روما ورحلت أنا صوب البرتغال، خنخن الساحر في قوله شارحا.
- صحيح أنك لا تتحدث باللكنة الإيطالية. ألم تر أوريليو منذ أمد بعيد؟
- آخر مرة، كانت منذ ثلاثة أعوام، في أفينيون. ثم جاءت تلك الرسالة...
- رسالة؟

قلّب في قوارة قميصه.

- تفضل. اقرأها. الراجح أنها أرسلت قبل وفاته بأيام قليلة. لا بد أن أخي المسكين كان يعرف بأن أيامه صارت معدودة.

أمسك ملكيور الصحيفة وردّد:

- *«أخي العزيز، الوقت ينفد. أيامي صارت معدودة. حينما تتوصل بهذه الرسالة، ارجوك، دع كل ما عندك وعجل بالذهاب إلى قرية فيلانوفا، في فريول، أعرف. إنها رحلة طويلة من لشبونة إلى سهول البندقية، لكن من الضروري أن تفعل ذلك. لقد عهدت بخريطة بحرية للشخص الذي من كرمه نزلت عنده ضيفا. وهذا الشخص مأمور بمدها لك. إنها ثمينة بقدر لا يتناهى. على الأخص بالنسبة لك، أنت الذي اخترت السياحة في البحار بدل السير على خطى المولى. أقبلك بحرارة. أوريليو، أخوك الذي يحبك».*

وبقدر ما كان ملكيور يكتشف مضمون الرسالة، كانت ملامح الأسف تستبد بوجهه.

- لو أني علِمْت، همهم تانلا. لقد فات الأوان، يا للحسرة.

تملّك الذعر بلتزار.

- ماذا تقصد بكلامك؟ لمْ تحتفظ بالخريطة؟



- لقد احتفظت بها طبعا. واتبعتُ وصايا أوريليو. أسابيع قليلة قبل مماته، قال لي: «احفظ هذه الخريطة بحرص شديد. سوف تسلمها لولدك، لودوفيكو، حينما يبلغ من السن ما يؤهله ليصير نوتيا. ستجعل منه أشد من يغبطه الناس من بين الرجال كافة في العالم المعروف. لكنه وحده. وليس لأي شخص غيره. أبدا. بأي ثمن». ذلك أن كاميني، خلال مقامه، تعلّق كثيرا بلودوفيكو.
- أظن أنك احترمت وصيته الأخيرة؟

بحث ملكيور عن الكلمات المناسبة.

- كيف أشرح لك ذلك... نحن ناس فقراء. لنا الكد وخرفان الماعز والمونتاسيو. لقد صرت هرِما. ليس لدي سوى لودوفيكو كي يخلفني. إنه ابني الوحيد. البنتان سوف تتزوجان ذات يوم. هذا ما آمله على الأقل. وحرفة النوتي...
- ماذا صنعت بالخريطة؟ قال بلتزار بحماسة.
- حسنٌ... لقد سلمتها لولدي، مثلما وعدت بذلك.

انبسطت أسارير بلتزار قليلا.

- إذن هي ما تزال في حوزته؟
- لا أدري. أظن. يجب أن يُسأل عن ذلك.
- اين هو؟

أشار ملكيور إلى الأرض البادية عبر النافذة.

- في مكان ما صُحبة الماعز.

نهض بلتزار دفعة واحدة.

- هيًّا بنا! سوف تدلني على الطريق.
- الآن؟
- حالا... من فضلك!

لوى ملكيور شدقه. لم يفهم البتة الغاية من هذا الاستعجال.

- حسنا، وافق مكرها، اتبعني.

دير سانتا كلارا

نسمة دافئة، تضوع بنفحات طيبة برِّية، تصعد مع الغروب.

كانت إيناس تمشي قُبُلا. ومصالا يتبعها متكتما. وبينما وصلا غير بعيد عن الخلوة المجاورة للدير، هتفت:

- انظرا نافورة.

رفع مصالا ناظريه.

فعلا. نافورة قديمة من المرمر بدت في الحين بين نبات السرخس، نُجِتَتْ كلهابزخارف عربية بديعة.

اقتربا منها.

غطت شقوق حوافها. لاشك في أن المقيمات الكلاريس تجلبن الماء من هنا. في قاع الحوض حفرت رؤوس ثلاثة أسود.

- إبداع جميل، لاحظ البربري. تذكرني بنافورة لمحتها منذ أمد بعيد في غرناطة، مع أنها لا تضاهيها بهاء وحسنا ودقة. في قصر الحمراء. القصر الأحمر.

- القصر الأحمر؟

- الأجل. الذي يطلق عليه النصارى «لالَامْبْرا».

رأت إيناس كرسيا من حجر.

- لنجلس.

ما كادت تأخذ مكانها حتى بادرت بالسؤال:

- إذن أنت تعرف غرناطة؟

ابتسم.

- غرناطة، إشبيلية ومدنا غيرهما تحاذي البحر الداخل.

- لا بد أن رأسك تضج بالقصص.

- قصص كثيرة عدد رمال مسقط رأسي. قصص حياة وموت وصداقة وخيانة.



- وحب؟ هل سبق أن وقعت في الحب، يا مصالا؟

- لو أني لم أقع في الحب، هل أكون رجلا جديرا بهذا الاسم؟

- إن بيدرو رجل جدير جدا باسمه.

- وأنت، دونا إيناس، جديرة به مثله.

عبر ظل حدقتي إيناس بلون الزبرجد الأخضر.

- لقد ذكرَ خطرا... هل تعرف السبب؟

حرّك البربري رأسه يمنة ويسرة.

- كلّا. لكن قصتكما بعينها أليست مرادفا للخطر؟ ما إن جمعكما القدر بدون بيدرو، حتى صرتما في خطر، أنت وهو.

- لاشك. لكن أضِيف عنصر جديد. لم نعد اثنان، إذ هناك أيضا طفلتنا. لأجلها أرتعد الآن.

- لا ينبغي لك.

انغلقت يد مصالا على مقبض خنجره الذي يزينه جناحان.

- هل ترين هذا النصل؟ إنه لا ينتظر سوى إشارة مني ليقفز من غمده. الويل لمن يجرؤ ويتحدَّاه! سوف أفضي لك بسر، دونا إيناس. سر لم أكشفه أبدا. حتى لدون بيدرو. منذ حين، سألتِني إن كنتُ قد وقعتُ في الحب سابقا.

- ظننتُ أنك قصدتَ...

- أجل. كان اسمها ليلى. ذات شعر بلون العسل وأسنان من لؤلؤ. كانت كل حياتي. كنا نعيش حينذاك في واحة على أبواب الصحراء، قرية هادئة، في قلب وادي درعة. وهبتني ليلى أربعة أبناء. ثلاثة أولاد وبنت واحدة. لا أدري إن كانت السعادة موجودة في هذا العالم، ولكن ما عرفته يشبهها. إلى أن جاء اليوم حيث...

نحنح جرعة من حلقه.

- هاجمت قبيلة عربية القرية فكان الرعب. هؤلاء الرجال كانوا من



الشيعة وهم يكنون لنا الحقد، نحن الخوارج. إني ما أزال أرى زوبعة الرمال التي أثارتها جيادهم. أسمع وساظل أسمع حتى آخر يوم في حياتي صرخات ليْلَايَ الودود ممزوجة بصرخات أطفالي. لقد دمَّر العرب كل شيء. كانت النار تصاعد من كل الأنحاء. ولم يبق شيء. لاشيء سوى الرماد والجمر المشتعل. كان خنجر مغروسا هنا(وضع اصبعه بمحاذاة فخده الأيمن)، وقد تركوني ظنا منهم أني ميت. لم يجانبوا الصواب. إذ، منذ ذلك اليوم، لم أعد حيًا. بل تظاهرت بأني حي.

وختم بصوت أجش:

- إنك ليلى دون بيدرو. ولن أسمح أبدا بأن تقع المصيبة من جديد. أبدا...

٢٤

سانتا كلارا، ٢ آب ١٣٤٩

بيدرو حبيبي

مضى عامان اليوم. بياتريس تعدو في الحديقة مع مصالا. أستطيع رؤيتهما من النافذة. إنها رائعة. متمردة بقدر ما نشاء. حيوية. تستطيع أن تفخر بها. أسبوعان منذ أن لم ترها، كم إنها تبدلت. الأطفال يتبدلون بسرعة. نحن أيضا دون ريب. لكننا نتصرف وكأننا لا ترى ذلك. وأنا التي أحدث نفسي بأني سوف أبلغ الثلاثين قريبا! ثلاثون عاما. المفروض أن أشعر بأني عجوز، عجوز، ومع ذلك، يبدو لي أني ما أزال تلك التي لمحتها، ذلك اليوم المبارك، في كاتدرائية لشبونة. الحب، أنا على يقين بذلك، ينفخ فينا قليلا من الأبدية. الحب والولادة أيضا. في المرآة ـ تلك المرآة التي ناضلت من أجلها كثيرا لدى الأم فليبا ـ في تلك المرآة أرى انتفاخ بطني. إن علمي بكوني أحمل الحياة من جديد يعيد لي شبابي. هذا سخيف. أعرف. لماذا الكذب؟ إني أخاف من الشيخوخة كثيرا. ليس بسبب التجاعيد التي تمدنا بها، ولكن من أن تلفيني قبيحة. هل ستظل تحبني حينما أصبح عجوزا؟ مقوسة الظهر، مضطربة؟

في الدرج، وضعتُ رسائلك. لقد بلغ عددها الذي أحصيتُ مائة



وعشرين رسالة. تنقصان برسالتين عن رسائلي. هل ترى؟ مرة أخرى أناالتي أحبك أكثر.

ليلا، حينما يغشاني النوم، أعيد قراءة كلماتك. ثم أنام وأنا أتخيل بشدة بأنك بجانبي. أتخيل أنفاسك. أحس ببشرتك. وأحضنك.

مصالا، أهلكته الحيرة. إنه يهرع نحوي ما إن أسعى إلى حمل أدنى غرض. يستبد به الذعر حتى عندما يراني ممسكة مِنْوال نسيجي. وكأن هذا الطفل الجديد الذي سوف يولد هو طفله شيئا ما.

ولد ذكر هذه المرّة؟ أرغب في ذلك كثيرا، وفي الوقت نفسه، تعود لي مخاوفي القديمة. سوف يكون ما شاء الرب. أسابيع معدودة فقط. إني آمل أن تكون بجانبي من هنا لذلك الحين.

إيناس التي تموت من بعدك.

مونتيمور، ١٠ آب ١٣٤٩

حبي الأجمل.

كيف يسعك لحظة تصور أني سوف أكف عن حبك حينما تصبحين عجوزا؟ هل نتوقف عن حب الحياة لأن الخريف حلّ أو الشتاء؟ ألستِ حياتي؟ هيًّا! كفي إذن عن تعذيب نفسك، فكري فحسب في طفلنا الذي يستعد للخروج إلى الدنيا. ولد أو بنت؟ ما أهمية ذلك! سوف يكون منا. هذا كل ما يهم. اطردي مخاوفك أيضا. لم يعد لها سبب للوجود. ألم أذعن لرغبات والدي؟ ثم، اعلمي أن لدي خطة. وقد شرعتُ في تنفيذها. سأحدثك عنها في الوقت المناسب.

لقد تلقيت البارحة خبر محزنا. تذكرين بلثزار، الذي كنا نلقبه الساحر. مات بلثزار البارحة عند المساء. يجب القول إنه منذ عودته من فريبول، لم يعد أبدا الشخص نفسه الذي كانه. فقَدَ كل رغبة في العيش. كان يُرى، تائها في ممرات القصر، محدثا نفسه ساعات



كاملة، ذاهلا، هاربا حتى من صحبة الملك. أحيانا، كان يذكرني بشبح. أعتقد أنه لا محالة مرض أثناء تلك الرحلة المرتجلة إلى إيطاليا هناك حيث ذهب لمواصلة بحثه، وقد استحوذت عليه أكثر من أي وقت مضى تلك الخريطة البحرية الغامضة. بعد عودته، سعينا جهدنا لمعرفة حصيلة تلك الرحلة، دون جدوى. لم نفلح في انتزاع سوى نتف من كلام، جمل لا صلة بينها، يأتي فيها ذكرُ راعي شاب وجُبن وماعز. أعتقد بأنه كان يهذي. الرجل المسكين. أخبرني خادم بكلماته الأخيرة التي نطق بها قبل وفاته . Uma cabra comeu a minha vida . أكلت معزة حياتي. أتساءل حتى الآن ماذا كان قصده.

أتركك، يا ودّي. في غضون بضعة أيام سوف أكون بجانبك وسوف نستقبل معا مولودنا الجديد.

دون بيدرو، الحيُّ بفضلك.

مونتيمور، ايلول ١٣٤٩

أخذ بيرو كويلهو قطعة من لحم الظبي وحملها إلى فمه.

- ولدٌ ذكر، قال وفمه ملآن. لقد وضعت له دونا إيناس ولدا.
- أجل. علمتُ بالخبر، أكد غونسالفيس. أي اسم اعطوه؟
- جواوْ.
- هذا أمر جسيم. هل أنت مدرك للخطر الذي تمثله هذه الولادة؟ هو الذي أعماه هواه، قد يقرر دون بيدرو تفضيل هذا النغل على حساب فرناندو، ابنه الشرعي. والأسوأ من ذلك، فهو قادر على الأمر باغتيال فرناندو.
- اغتيال ابن بوحه؟ صاح كويلهو. إنك تهذرا

بدرت من غونسالفيس ضحكة ساخرة.

- هل تذكر أقوالك التي حدثتنا بها، منذ سنوات معدودة؟ كنتَ



تعلن: «غدا أنه يجب على كل منهما ـ إيناس وكونستانزا ـ أن ترزق بمولود ذكر. وسوف يكون طويلا حقا ذلك الطريق الذي ينتهي باختيار الإنفانتي!». لقد وصلنا إلى نهاية الطريق.

احتج كويلهو، دون اقتناع.

ـ حتى هذه الساعة، لاشيء يدل على أن منطقي خاطئ.

ـ ذلك ما سوف نراه. في كل الأحوال، لا تستطيع إنكار أن الأمور تزداد سوءا. خاصة منذ أن اندس عنصر لم يتوقعه أحد في هذه الحكاية. غضب الشعب. أعتقد أنك على علم بالإشاعة التي عمّت: مشؤومة على قومها[1]. دونا إيناس تجرّ الشؤم. والسبب وجيه. أولا، وقع ذلك الزلزال، ثم جائحة الطاعون. وها إن البلاد منذ عامين تمر بفترة جفاف لا نظير لها في التاريخ. الفلاحون مقتنعون بأن دونا إيناس هي المسؤولة. هذا بغض النظر عن أن أصواتا، ارتفعت، في كل مكان تقريبا، لتنتقد صراحة الحياة الفاجرة التي يعيشها دون بيدرو. أصوات رجال الكنيسة، بالطبع، وأيضا أصوات النبلاء. وسط هؤلاء، نشهد الانقسام الذي يعم. البعض يتعصب لجانب الانفانتي؛ والبعض الآخر، للملك. وطرف ثالث لابن كونستانزا، ورابع لولد إيناس.

ختم غونسالفيس بحزم:

ـ هذه الحكاية آخذة في إفساد مملكتنا.

ـ ما العمل. الملك هو من بيده حق التصرف.

أومأ رئيس كتاب العدل برأسه.

ـ بالتأكيد. لكن ألسنا مستشاريه؟ الملك تحت تأثير الملكة، التي تلعب دور المماطل في هذه القضية. ربما حان الوقت لنأخذ بزمام الأمور.

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: Olho gordo.

وافق كويلهو، وهو يبدي تعديلا طفيفا في الكلام:

- لقد تحدثت عن مزاج الشعب الغاضب. فلنصبر. بقليل من الحظ، سوف يبرز سبب آخر للغضب. صبرا...

لم يطل أمد انتظار السبب الذي رجاهبيرو كويلهو. ستة أشهر من بعد ذلك، يوم ٢٧ آذار ١٣٥٠، لفظ الملك ألفونسو الحادي عشر الملقب بـ «المنتقم»، أنفاسه الأخيرة بينما كان على رأس جيشه يقود حصارَ جبل طارق.

ما إن أغمض عينيه، من سوء حظ الجميلة ليونور دو غوزمان، حتى سارع الأثرياء والنبلاء إلى إعلان بيدرو الأول، الابن الشرعي من ألفونسو ودونا ماريا، ملكا وحاكماعلى قشتالة وليون. كان الفتى قد بلغ أربعة عشر عاما. وأخيرا! وبالنسبة لدونا ماريا، الزوجة المُهانة، المهمَلة، تلك التي كثيرا ما تعرضت للتحقير، دقت ساعة الانتقام. في الأسابيع التي أعقبتها، أسرعت وطردت من البلاط كل أولاد الزِّنية، تمرات مجون الملك المتوفى وعشيقته. ثم، ودون أدنى شفقة، رمت غريمتها السابقة في زنزانة بالقصر الملكي. والظاهر أن ذلك لم يكف للحد من الضغينة التي تضاعفت خلال كل تلك الأعوام. يوما بعد يوم، أسبوعا تلو أسبوع، استعذبت جرَّ «الغوزمانة» كما كانت تسميها، حيثما ذهبت، حتى تعرضها، والسلاسل تقيد قدميها ومعصميها، لسخرية الحشود. لكن لابد أن ذلك لم يكن كافيا. عشرة أشهر من بعد، واستجابة لرغبة قصوى حتى تشفي غليلها، أمرت دونا ماريا باغتيال ليونور. عثر عليها مذبوحة في زنزانة بسجن تالافيرا.

في البرتغال، تم استقبال الخبر بفرح عارم، وبكثير من الفخر. أخيرا، رُدَّ الاعتبارلشرف المملكة، الذي طالما استخف به «المنتقم».

- هكذا، صاح الشعب البسيط، هكذا يجب معاملة تلك النساء العاهرات!



امرأة عاهرة...

إيناس.

امرأة عاهرة...

بالطبع، سارت العبارة على كل الشفاه. وسافرت تلك الكلمات حتى بلغت أبواب مونتيمور، حتى أقاصي جبل استرلا، وذات صباح، بلغ صداها سانتا كلارا.

كنا في شهر أيار، وما عدا بعض الودق الخجول، فالسماء كانت تمتنع بعناد عن فتح صنابيرها. وحدها إيناس كانت تذرف دموعها بغزارة.

ضمَّها بيدرو بين ذراعيه بشدة شيئا ما. كان يسعى جهده لتهدئتها، لكن كان جليا أنه هو نفسه يتعذب.

- ماذا سوف يحل بنا؟ سألت المرأة الشابة، وهي حائرة. هل تريد هجري؟ هل تريد هجري؟

- توقفي، إيناس، أستحلفك.

- ألا ترى بأن شعبك يكرهني، بأنه يمقت أبنائنا! بأنه يشبهني الآن بليونور دي غوزمان. ألا ترى كل الدنس الذي رُميتُ به؟

- لن يطول ذلك. لقد اتخذت قراري. ولا رجعة فيه.

تفرسته إيناس، مذعورة.

- إنك تخيفني. أي قرار؟

استمد الانفانتي نفَسا قصيرا قبل أن يعلن:

- سوف أتخذك زوجة، يا إيناس.

بُهتت.

- أجل، استأنف كلامه. سوف نتزوج. وللأسباب التي تعلمينها، سوف يجري الحفل في سرية تامة. كوني على يقين، مع ذلك، أنه لمَّا تحين ساعة ذلك، سأعلن زواجنا للأرض بأسرها.



- أنت مجنون، حبيبي! هذا محال. إنك...

- لقد رتبت كل شي. كل شيء. دونْ جِيل، مطران غواردا، صديق لي. سيمنحنا بركاته. سوف يحضر إلى هنا يوم الأحد. كما سيحضر أيضا الملازم سانشو؛ ذاك الذي أراد القبض علي حينما كنت في ساغرس. إنه يساندني، إنه حليفنا.

انقطعت أنفاسها من سماع ذلك. همهمت:

- المطران؟ كيف يمكن ذلك؟ ألا يعلم أن بيننا قرابة؟ الكنيسة تحرم وتدين قطعا باتّا زواج ذوي القرابة الدموية.

أخرج بيدرو طيًا من جيبه وسلّمه لإيناس:

كليمنت السادس، مطران، خادم خدام الرب، إلى ابنا الأعز في المسيح دون بيدرو، الابن البكر لابننا في المسيح، ألفونسو، ملك البرتغال والغرب الذائع الصيت، سلام وبركة رسولية. صرامة القوانين المقدسة تمنع وتحرم الاقتران بالزواج بغية جعله محالا بين من تجمعهم صلة قرابة معينة، حفاظا على الآداب العامة الحسنة. في بعض الأحوال، يستطيع من هو مطران روما، استنادا إلى السلطة المطلقة التي يستمدها من كونه ممثل للرب، أن يعدّل صرامة كهذه ومنح عفو من باب الإنعام الخاص.

وبما أن دافعنا كان هو العطف المميز نحوك، لأسباب تسمح لنا بأن نأمل في المستقبل السلام والسكينة في هذه الممالك، فإننا نريد الاستجابة لدعواتك. في رسالتك، طلبت منا بكل تواضع، أن يُسمح لك بالزواج من أي امرأة نبيلة المحتد، مخلصة للكنيسة المقدسةفي روما، حتى ولو كانت بينكما صلة دموية، وقريبان نسبا بالعرض من الجيل الثاني من جهة، ومن الجيل الثالث من أخرى، وأنه حتى لو كان هناك عائق قرابة أو صلة بينكما من الجيل الرابع، يمكن لكما الارتباط شرعيا بروابط الزواج. واستنادا إلى السلطة الرسولية في



الإنعام الخاص، فإننا نلغي ونبطل كل شيء ونتعم عليك وعلى من سوف تتزوجها بالعفو. هكذا، فإن الجيل الذي سوف يولد من زواجكما سيكون شرعيا، دون أي حاجز آخر. وبالتالي، ليس لأي شخص آخر أن يقف بوقاحة ضد هذا العفو، وإلا فليكن متيقنا بأنه يعرض نفسه لغضب وسخط الرب القدير والحوارييّنالمنعميّن القديس بطرس والقديس بولس.

حرر في أفينيون، اليوم الثاني من رزنامة مارس، السنة الثامنة من عهدنا البابوي.

وضعت كفها على جبينها، وقد أخذها الدّوار.

- كيف أمكن ذلك؟ بأي معجزة؟

- المال. المال. حتى الكرسي الرسولي يتأثر بهذه القدرة. صحيح، كانت النقاشات حامية، لكني لم أشك في النصر. ليس هذا كل ما فيالأمر. لقد أرسلت في إحضار أخويك. سوف يشهدان على زواجنا.

- أخوَيّ؟

- هما في الطريق إلينا.

- يا له من تهوّر! لم يكن ذلك ضروريا. ليس بعد ما وقع. حكاية الخريطة تلك. خصوماتكم.

- ذلك من الماضي. لا جدوى من الكلام عنه. أشدد على أن يحضر أفراد يمثلونأسرتك. سوف يسدُّون غياب أفراد أسرتي، بما أنهم هجروني.

ارتمت في أحضان الانفانتي.

- يا إلهي، كل شيء يمضي بسرعة...

كانت عينا إيناس متقدتان. في الوسع أن يرى المرء فيهما اعترافا لا نهاية له، فرحة غامرة، والقلق في وقت معا. قلق شديد نحس إزاءه بأن لا شيء يستطيع قهره.

٢٥

سانتا كلارا، الفاتح من أيلول ١٣٤٩

رفع بيدرو ولده وتأمله كما لو أنه الطفل الوحيد في الكون.

- أحبك، جْواوْ. إنك لا تعرف ذلك بعد، لكن ذات يوم سوف تدرك ما المقصود من هذه الكلمة. ذات يوم، سوف تكبر وأنا من سيشعر بأنه ضئيل جدا.

سلَّم الرضيع لخادمة إيناس واستفسر قائلا:

- هل أنت جاهزة؟ لقد أسرج مصالا الحصانين.
- أجل.

غادر الزوج الحجرة وتوجه نحو الفِناء حيث كان ينتظرهما البربري. حيّاهما هذا الأخير وسحنته مغتمة ثم أعان المرأة الشابة على ركوب إحدى المطيتين.

- ليلة مضطربة مرة أخرى؟ قال الإنفانتي متهكما. أم هو طعام الدير الذي لا يناسبك؟
- شيء من الإحسان، يا مولاي. أعرف أن مشاعري لا قيمة لها في نظرك، لكن في وسعك على الأقل التعاطف معي.
- التعاطف؟
- أجل، زمجر مصالا. التعاطف! ألا ترى إذن في أي حال وضعتني؟ قد يصرف النظر عن أن مسلما مؤمنا أجبِر على العيش



محاطا براهبات، لكن أن يطعم الخنزير يوما بعد يوم فتلك قسوة تشق عن الوصف!

أفلت بيدرو ضحكة خفيفة.

- بالفعل. أتعاطف معك.

مشى خطوة نحو مصالا وربت على كرشه.

- صحيح، قال متصنعا الحيرة. هزالك ظاهر للعيان.

- هو ذاك. تهكُم. لست سوى أمير لاقلب له.

تدخلت إيناس.

- اطمئن. أعدك بالتدخل شخصيا لدى الأم فليبا.

انحنى البربري.

- الفضل يعود لك، دونا إيناس. أنت على الأقل تفهمين قصدي.

ثم واصل بسرعة، لكن بنبرة أشد حزما:

- هناك أمر آخر يحزنني: تنقصكما الحيطة.

- ماذا تقصدبكلامك؟ استغرب بيدرو.

- فكرة النزهة على ضفاف النهر دون حراسة، لا تعجبني أبدا.

- لسنا في حرب، حسب علمي، رد الأمير. ماذا تريد أن يقع لنا؟

- لا يتعلق الأمر بحرب، وإنما بأرواح شريرة. إنك على علم بالمشاعر التي يكنها الشعب لدونا إيناس.

أشار إلى الأفق وأكد:

- هناك، دون حماية، قد يصيبكما أي شيء. هيا، كن عاقلا. دعني أرافقكما.

حرك بيدرو رأسه يمنة ويسرة.

- هذا أمر لا جدال فيه. لقد تجاوزت سنَّ ذات الرداء الأحمر. وعلى كل حال...

داعب الإنفانتي مقبض سيفهمواصلا كلامه:



- بمعية هذا لا أخشى شيئا ولا أخشى أحدا. لكن كفانا ثرثرة.

امتطى حصانه وهتف مبتسما:

- هيا يا مصالا! لا تبدي تلك الهيئة. وإذا ضجرتَ، اذهب وقدم فروض الطاعة للأم فِليبا!

منذ ساعة خلت، كان المركب، الذي يقوده نوتي بمهارة، ينزل بتؤدة نهر المونديغو في صمت بالكاد يخدشه خرير الماء. في السماء، هناك في الأعلى، شمس متجبرة تلفح الغيوم النادرة بينما كانت أشجار وتلال مصطفة على طول الضفاف، تغرق ظلالها الخضراء في منعطفات النهر. بعد حين ظهرت أسوار قلنبيرة. وقد حمله التيار، حُمل المركب داخل المدينة إلى أن وصل بمحاذاة لابًا دُوس إسْتيوس. يبدو وكأن كل نبات الدنيا ضرب لنفسه موعدا هناك. وسط عطور تجل عن الوصف تتداخل أشجار الجمّيز والبقس والزيتون وأزهار الكوبية والسوسن والقرنفل والزنابق البيض، والنعناع والدفلى وإكليل الجبل، وأشجار الخوخ والبرتقال والليمون والزعرور.

ظلت إيناس ساكتة. لكنها كانت تُشعِر المرء بأنها مسحورة بالمنظر الحسن.

- قلنبيرة تستحق فعلا لقبها، «الخضراء»، قال بيدرو.
- هكذا إذن كنت تنوي أخذي إلى جنة عدن؟
- كلا، بل أقرب من المنبع. صبرا. لقد اقتربنا كثيرا.

انتظر الانفانتي توكيدا من النوتي:

- أليس كذلك، مانويل؟
- بلى، مولاي.

أشار بسبابته نحو مكان يقع عند المنبع ثم واصل قائلا:

- عند مدخل باب سانتا كلارا.
- باب سانتا كلارا... أليس هناك حيث نُحتت عبارة عجيبة يقال إن من كتبها مدجَّن، بعد استرداد المدينة؟



- صحيح.
- أية عبارة؟ سألته إيناس.

قرأ بيدرو:

- كتبتُ هذا ذكرى لعذابي الأبدي. يدي سوف تفنى ذات يوم، لكن العظمة ستبقى». جملة عجيبة...
- تشهد في كل الأحوال على شعور بالمهانة والحزن الذي أحس به الكاتب، وقد أجبِر بغتة على العيش تحت السيادة المسيحية.
- عودة عادلة للأمور إلى نصابها، رد بيدرو. مائة عام من ذي قبل، كان على المسيحيين والمستعربين، أن يقدموا فروض الطاعة للعرب. عجلة الحظ لا تظل ثابتة إلى الأبد. ومن انتصر اليوم قد يصير مغلوبا غدا.
- ها قد وصلنا، أعلن النوتي. هل تريدان أن أرسو عند الضفة؟

وافق بيدرو الرأي.

بعد أن رسا المركب، نزل بيدرو بادئ الأمر وهوى بيده نحو إيناس.

ترجلت المرأة الشابة وأحدَّت النظر في المكان بإعجاب.

- يا لها من برك مائية ونوافيرا يبدو لي أنها تعود لقرون.
- هيّا، اتبعيني.

سحبها أسفل نافورة من المرمر يزيِّنها سمندل له لونان وأعلن بابتسامة متواطئة:

- A fonte dos amores... ينبوع الحب. هكذا تسمى. أردت أن يكون هذا المكان شاهدا على قَسَمي. قسمٌ لن يستطيعإبطاله لا الزمن ولا العقبات الموجودة في طريقنا.

وضع يده على قلبه وأضاف بصرامة:

- أنا، بيدرو، أمير البرتغال، أقسم هنا على أن أحب، وأعز،



وأحمي سيدة خواطري، وذلك، أمام الناس والقانون. أقسم، إن فرق بيننا الموت، بانتظارها للأبد كله، حتى يوم القيامة. وبين الملائكة، والأصفياء أو الملعونين، أقسم بأن أعثر عليها.

عمَّ الصمت.

وصدرها منقبض من التأثر، كانت إيناس تتأمل بيدرو.

بعد وقت طويل، أفلحت في الهمس قائلة:

- لن ننتظر يوم القيامة. لن نموت أبدا، أنا لا أنت. إن المرء لا يموت أبدا حينما يحب. أبدا...

٢٦

قصر مونتيمور، بعد خمسة أعوام

كان الملك ألفونسو واقفا بمهابة. ثابت. ليس في عينيه أي تعبير، وأظفاره مغروسة تقريبا في متكئي وِثابه.

- حدَّق في مستشاريه الثلاثة كل بدوره، ليتوقف عند ديوغو لوبيز باشيكو.

- خمسة أعوام، بادر قائلا، وصوته هادئ على نحو يثير العجب. خمسة عوام طويلة. هو ذا الزمن الذي استغرقتم حتى تكشفوا لي هذه البذاءة. خمسة أعوام.

- جلالة الملك، احتج باشيكو، كان ذلك سرا تاما، مطلقا. ما عاد الفاعلين الحاضرين في كنيسة غواردا، لم يتم إخبار أحد. منذ أسبوعين فقط، أبلغنا القندلفت بالخبر. وقبل إخبارك، رأينا من الحكمة التأكد من أقواله. وجاء التأكيد من المطران. بحسبه، كانت رسالة البابا تبدو وكأنها أمر. لم يكن في استطاعته معارضة الزواج. خبط العاهل بقبضته المتكئ.

- وولدي كانت له الجرأة لإشراك أخَوي تلك العاهرة في جريمته. رجلان سعيا للإساءة إلى المملكة؟

- هناك ما هو أخطر، مولاي، نبَّه غونسالفيس. لقد علمنا بأنه لا يمر شهر دون أن يلتقي هذان الشخصان مع ابنك في سانتا كلارا.



وأنت تعلم بأنه منذ وفاة ألفونسو، لم يعد فرانسيسكو وخوان مغضوبا عليهما. وخلافا لذلك، قام الملك الجديد بإرجاعهما إلى البلاط وأعادهما إلى منصبيهما. اليوم، هذان المارقان أقرب إلى العرش مما كانا عليه في عهد العاهل المتوفى.

- اللعنة، ماذا يدبران بمعية ولدي؟ ماذا وراء هذا التواطؤ؟

أجاب باشيكو بشيء من الوقار:

- مؤامرة، مولاي.
- مؤامرة؟
- نحن على يقين بذلك.
- أوضح كلامك!

تابع غونسالفيس الكلام:

- خطتهم واضحة: انتظار وفاتك لتتويج دونا إيناس على عرش البرتغال. طريقة غير مباشرة تريد بها قشتالة الاستحواذ على بلادنا. إيناس ملكة، محاطة بأخويها وفوق هذا دعم الملك، وتكون نهاية استقلالنا. هذا بصرف النظر عن أن ابنك سوف يعهد على الأرجح بالخلافة لجُواوْ، ابنه غير الشرعي.

استنشق ألفونسو الهواء ملء رئتيه.

- عظيم، همس. إذن ماذا تنصحون؟

تسلل صمت ثقيل داخل القاعة.

تبادل المستشارون الثلاثة النظرات تداولا في الأمر. لكنهم كانوا يعلمون الجواب.

- ليس هناك سوى حل واحد. ، يا جلالة الملك، أعلن باشيكو.
- أنا أنصت لك.
- القضاء على إيناس دي كاسترو.

كبح الملك رجفة.



- إنك... إنك تقصد نفيها؟
- كلا، مولاي. القضاء عليها جسديا. وهي حية، ستبقى المملكة معرَّضة للخطر.
- باشيكو على صواب، وافق غونسالفيس. ينبغي لك وضع نهاية لهذا التهديد. ففي ذلك بقاء البرتغال. إلى ذلك الحين، أبنتم عن شهامة خارقة للعادة. الآن، يجب الكف عن ذلك.
- قتل إيناس...
- أجل، مولاي. لا خيار لك. إما هي أو البرتغال.

هل هبّت عاصفة حينها في رأس العاهل؟ ما لم يكن سيلا جارفا ينزل عبر حوافّ قلبه، أو رائحة الموت التي تمسك بخناقه. انقبضت يداه. شحوب شديد يغطي لحيته وتجاعيده بما يشبه القناع. *قتل إيناس... بغتة، لما عاد من قبره، لمح وجه أبيه المليء بالغطرسة*. كان يشكل نوعا من الفسيفساء المتناثرة مع وجه دون بيدرو. شوهت كشرة شفتي *الفونسو*. ثم تصلّب.

- فليكن! على أن لا أسمع بها أبدا. لكن خذوا حذركم: اقتلوها بأيديكم. هل سمعتموني؟ بأيديكم أنتم! لا أريد أن تموت على يدي رجل معدم من العوام. ينبغي للدم الشريف أن يراق بدم شريف. انصرفوا!

سانتا كلارا، ٧ كانون الثاني ١٣٥٥

إنها هناك، جالسة على الكرسي الحجري، قرب النافورة. إنها تقرأ. مصالا يقف على بعد خطوات معدودة ويلهو مع الصغيرة بياتريس. جْواوْ، الأخ الأصغر، ينام في مهده.

تردد صوت عدو فرس في الصمت.

رفعت إيناس رأسها برشاقة ثم وضعت يدها على قلبها.



- بيدرو! إنه بيدرو العائد!

ندت عن البربري ابتسامة حانية.

- آه! دونا إيناس. إنك لا تحكمين عقلك. في رسالته الأخيرة، أخبرك بأن عودته ستكون غدا.

- وماذا في ذلك؟

هز مصالا كتفيه.

- فعلا. لم لا. إنه...

غير مصدق لما يرى، والعينان جاحظتان، رأى العبد جسده مطعونا. هل ذلك ممكن؟ هل هوى في حافة الجنون؟ ذلك الرمح المغروز وسط صدره تماما، كيف ظهر؟ تلك الزهرة الحمراء التي ترسم تويجاتها عبر النسيج لا يمكن أن تكون حقيقية. دم؟

صرخة. كلا، استغاثة! إنه صوت إيناس.

ثلاثة رجال بلباس أسود. هجموا كالبرق. هم على بعد مسافة نفَس من المرأة الشابة. سيوفهم تلمع.

- كلا! صاح مصالا.

انغلقت أصابعه على قصبة الرمح. حاول إخراجها. انكسرت القصبة.

زحف نحو إيناس. محبطا.

لم يعد يرى وجه المرأة. إنها تتكلم. ماذا تقول؟

- ارحموا طفليَ... الرحمة لهما.

ضربة حادة. ثم ثانية، فثالثة. مثل وقع خطوات في بركة ماء.

ماء النافورة الآن. أحمر. الحوض.

أحمر.

تغاضوا عن الطفلين. لكن جسد إيناس تم سحله. باعدوا بين ذراعيها. يخال المرء أنها مصلوبة. تهوي النصال من جديد.

انسحبت الظلال الثلاثة، وابتلعها المغيب.



٢٧

السماء صفراء والأرض زرقاء فولاذية. والأشجار ثابتة لم تعد تتنفس. لا نسمة، ولا نفَس

احترق البرتغال.

فتح الأب والابن أبواب جهنم. لم يعد نهر التاجة هو الذييتدفق عبر الوديان المقفرة بل نهري الحقد والنسيان، الستيكس واللِّيثي. وتجتاز طيور الهاربيات الممسوخة السماء.

لاهثة، مذعورة، تسعى الملكة بياتريس الحؤول بين زوجها وابنها. دون طائل.

يستمر الصراع المحتدم. يستمر عاما كاملا.

بمعية أخوي إيناس، اللذان هبَّا من قشتالة، يدمر بيدرو اقاليم الشمال، ويهجم على مزارع الملك ومستشاريه. يزحف على غواردا، حيث لجأ عدد من الهاربين. المدينة غير محصنة جيدا. المطران، دون جيل، ينشر على حدود المدينة سفنا شراعية ويخبر الأمير أنه يموت ولا يستسلم. أذعن دون بيدرو للأمر. ألم يجمعه المطران بإيناس؟ انسحب بيدرو إلى كنافيزيس.

يلعن، يوبِّخ أباه والدنيا. إنه يرغي.

لم يعد يذكر نبوءة الساحرة العجوز من إيفورا. *النار والنصل*. صراع *الأسد والشبل*.



ـ كفى، بيدرو! توسلت إليه الملكة بياتريس التي جاءت للقاء الأمير.
الرحمة! الرحمة لأجل البرتغال. الرحمة لأجلي!

في الأخير، أذعن بيدرو لتوسلات أمه.

يوم ١٥ آب ١٣٥٦، عيد السيدة العذراء، تمت المصالحة الرسمية بين الملكوالأمير. وتم النطق بها عند المذبح. وأعطي الأمر بإقامة الأفراح في المملكة بأكملها.

وللتعبير عن ثقته وعطفه تجاه، منح ألفونسو لابنه الولاية العليا والسفلى من المملكة شرط أن يحكم باسم الملك وفي انسجام مع القوانين المعروفة. وشهد الشعب، الذي تنفس الصعداء، زوال ذلك الجنون الفظيع الذي هدد دعائم البلاد.

هرب ديوغو لوبيز باشيكو وألفارو غونسالفيس وبيرو كويلهو من البرتغال. وقيل بأنهم لاذوا بقشتالة.

حينما همد يوم ٢٨ أيار ١٣٥٧، ترك الملك ألفونسو الرابع إرثه لابنه الذي يمقته. ليس العمر ـ لأنه بلغ من العمر ستة وستين ـ ولا متاعبُ حكم طويل، بل هذا العذاب هو ما أوصله إلى القبر.

٢٨

قصر مونتيمور، ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٧

أزاح بيدرو خيطا ذهبيا غير مرئي عن صدراه وأشار إلى مهندسه المعماري بالقدوم.

- وبعد؟ أين وصلت الأشغال؟

- في طور الإنجاز، جلالة الملك. لقدعمل صنَّاع المرمر والنقاشون على نحو رائع. في غضون أسبوع على أكبر تقدير، سوف يتم الانتهاء من الناووسَين الكبيرين من ألكوباسا. وحسب مشيئتكم، فقد وضعناهما في كنيسة الدير، أقصى الصحن الأوسط، قرب موهف سكرسيا.

- كنتُ قد التمستُ وضع المرمر الأبيض.

- تماما. لقد نحتنا منه الأشد بياضا ونصوعا.

- والراقدان، هل هما وجها لوجه؟

أمَّن المعماري على الكلام.

- ستة ملائكة يسندون الراقد الذي يمثل جلالتكم. وعند قدم الثاني، ودائما وفق أوامركم، قام النحّاتون بتمثيل مشهد صلب المسيح ويوم الحساب.

- ممتاز. لقد قلت أسبوع، أحقا؟

- أجل. أسبوع.



- يمكنك الانصراف.

استدار ملك البرتغال الجديد صوب ملازمه الأكبر.

- تقريرك. أنا أسمعك.

تقدم الرجل.

- بفضل المعاهدة التي أبرمتم مع عاهل قشتالة، فقد استطعنا الاستفادة من الحكم الذي نطقتم به بخصوص القتلة الثلاثة. المدعوون بيرو كويلهو، ديوغو لوبيز باشيكو وألفارو غونسالفيس.

- جريمة قتل وخيانة! هل قُبِض عليهما؟

- اثنان منهم فقط، يا مولاي. بيرو كويلهو وألفارو غونسالفيس.

- وباشيكو؟

- كان في رحلة لصيد طائر الحجل. حينما وصلنا، ترصدناه. وبينما كان في طريق العودة، حذَّره من وجودنا متسول كان قد اعتاد التصدق عليه. أعاره أسماله. وبفضل ذلك أفلح في الإفلات من قبضتنا. يبدو أنه انتقل إلى فرنسا.

صرخ بيرو متذمرا.

- والاثنان الآخران، أين هما الآن؟

- في السجن الملكي.

كانت رائحة الصديد والعرق تفوح من غرفة التعذيب.

مشاعل معلقة إلى الحواف الحجرية تشيع ضوء مصفرّا على الأدوات المروِّعة.

كانت النار متقدة في مجمر.

المستشاران مسمران على الجدران، والأذرع مقيدة فوق الرأس، والحديد يسلسل الأرجل. دنا بيدرو على مهل من بيرو كويلهو.

- لقد سلبتَني حياتي.

ملتفتا صوب ألفارو غونسالفيس، أضاف قائلا:

- وأنت رميتَ بي في الجحيم.

بمثابة جواب، انكفأ الرجلان على صمت متغطرس.

مدَّ بيدرو يده نحو أحد الجلّادين.

- خنجر! الأشد شحذا!

امتثل الجلاد.

وضع بيدرو سنان النصل بمحاذاة قلب كويلهو. لم ينبس المستشار ببنت شفة.

غاص السّنان. مزّق الجلد وما تحته.

تقبَّض كويلهو، محاولا التخلص من الجدار.

واصل سنان النصل فتح طريقه بين الأضلاع.

أنشأ دائرة، وحفر فتحة محمرَّة.

أخذ الدم ينفجر نغارا مع تقطع. وقد لطخ صدار بيدرو.

اهتز جسد كويلهو متنفضا. رمى زفرة ولفظ آخر نفس فيه.

واصل النصل التنقيب بين الجلد وما تحته.

أمر بيدرو الجلَادين:

- اكسورا أضلاعه!

تردد صدى ثلاث ضربات من مِدق.

لما صارت الفتحة أوسع بما فيه الكفاية، أدخل فيها بيدرو يده دون وجَل. أغلقت أصابعه على القلب وانتزعته بحركة قاطعة.

- أسود، قال العاهل. أسود مثل الحِداد. أسود مثل كلام السوء. لهذا القلب سواد الجبناء.

رمى العضو في المِجمر ومشى نحو غونسالفيس.

حينما كان الخنجر يغوص في صدره، أطلق المستشار صرخة مذعورة ذابت في ما يشبه النباح. نباح كلب يتم قتله.



مونتيمور، قاعة العرش، ١٥ تشرين الثاني ١٣٥٧

قضاة، ضباط الجيش، ورؤساء المحاكم، والأثرياء، كل ما ضمه البلاط من نبلاء كان مجتمعا في القاعة الشاسعة. كلهم دون استثناء، بلباسهم الرسمية، استجابوا لدعوة عاهلهم. ورغم أن الوقت كان وقت ظهيرة، وأن الشمس الساطعة تلمع فوق القصر، فقد تم إشعال كل الشمعدانات.

السؤال الملح نفسه كان يجري على كل الألسن: ماذا يقع؟ لأية غاية جمعهم الملك؟ الحرب ضد مملكة أراغون قال أحدٌ مبديا رأيه. تنازلٌ عن العرش، قال آخر.

وضع قرع الطبول حدا للتساؤلات وللإشاعات.

- الملك! أعلن القهرمان الأكبر.

ظهر بيدرو، والرأس مرفوع.

ما كاد يتجاوز العتبة حتى دبَّت حركة من الفوضى بين الجمع.

لم يكن الملكفادما لوحده.

كان يتبعه مَحمَل للموتى مدّد عليه شكل ما. شكل ذاب شحمه ولحمه. مزق بشرية. لو أن هذه الجثة لم تكن مكسوة بملابس مَلكية، ما ظهر غيرُ الهيكل العظمي.

هجم على قاعة العرش صمت مريع. صدمة وفزع.

هل كانت حقا هي؟ هل كان ذلك ممكنا؟ هي وقد بُعثر قبرها؟ مَن غيرها؟

عبر الحمّالون القاعة بحظى مهيبة. حينما وصلوا قبالة المنصة التي بها كرسيان للعرش طُليا بالذهب، وضعوا حملهم الجنائزي ولزموا أماكنهم.

رفع بيدرو يده.

سُمع دويُّ مائة بوق، يسنده قرع للطبول من جديد.



وبعدما عاد الصمت، قال آمرا:

- أجلسوا دونا إيناس على كرسي العرش!

سرت همهمات مكتومة.

لما ثبت الهيكل العظمي بين متكئات المرفقين والظهر، استأنف بيدرو الكلام، لكن هذه المرة مخاطبا الحاجب الأعظم.

- التاج!

مشى الحاجب الأعظم نحو المنصة. كان يمسك وسادة صغيرة من المخمل الأرجواني وُضع فيها إكليل.

رفع بيدرو الإكليل ثم وضعه على جمجمة الهالكة. جلس بعد ذلك على كرسي العرش المجاوِر وهتف بصوت عال:

- أيها السادة! تفضلوا بتقديم الولاء لملكتكم! الملكة المصلوبة!

وحينما لم يجرؤ أحد على الاستجابة، أعطى أوامره من جديد:

- اركعوا! اركعوا أمام دونا إيناس!

حينها تقدم النبلاء الأوائل إلى العرش. وبالتناوب، وضعوا ركبهم على الأرض، وبالتناوب قبلوا يد الجثة الرجفة.

حطَّ الليل على المملكة، لكن وكأن الوقت واضحة نهار أو كأن النجوم هجرت السماء إلى الأرض.

خمسة آ

خمسة آلاف شمعة، يحملها خمسة آلاف من المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة الذين تم استقدامهم من لشبونة، تضيء مسافة الخمس عشر فرسخا الفاصلة بين مونتيمور ودير الكوباسا.

هبَّت على الريف ريحُ جنون مستفحل، ممزوج بالروائح العطرة.

دونا إيناس ممدةعلى محفّة يحملها فرسان يُستبدلون على رأس كل ساعة. يصاحبهم رجال شرفاء، وأيضا نساء من العامة وأطفال وشيوخ وفتيان.



و بيدرو يعدو في المقدمة.

بدت ألكوباسا مع طلائع الفجر الأولى.

الملك أول من دخل الكنيسة.

صعد الجناح الأوسط.

الناووسان الاثنان هناك. وجها لوجه. أحدهما لا غطاء له.

وضع الفرسان جثمان إيناس باحترام.

دون جيل، مطران غواردا، حاضر. تلا صلاة الموتى. وقرعت الأجراس.

ركع بيدرو أمام مليكته.

امتدت يده نحو الناووس. وسم شعار نبالة آل كاسترو يجاور شعار البرتغال. على الإفريز، حُفِرت عبارة:

ATE AO FIM DO MONDO

حتى نهاية العالم.

خاتمة

حَكم دون بيدرو مدة عشرة أعوام. مات في إسترموزا، عام ١٣٦٧. وحسب مشيئته، تم إرجاعه إلى ألكوباسا حيث دفن منذ ذلك التاريخ جنب إيناس. وقبل وفاته، فقد حرص على أن يعين خلفا له فرناندو، ابنه البكر من زواجه بدونا كونستانزا.



ملحق

ايناس وبيدرو في الأدب

ورد ذكر حبهما الجارف أول الأمر على يد فرناو لوبيز (١٣٨٠ ـ ١٤٥٩)، بعنوان أخبار د. بيدرو الأول. ويبدو أن هذه الأخبار كانت جزء لا يتجزأ من مؤلفأكبر ضاع رسمه. بعد ذلك، تم دمج الحكاية في الملحمة الشعرية لصاحبها لويز فاز دي كامويس (١٥٢٤ ـ ١٥٨٠)، اللوزيات، وهو عمل يعتبر معلمة حقيقية في الأدب البرتغالي. وعلى مر القرون، استلهم كتاب آخرون هذا الحب الجارف، من بينهم هنري دو مونترلان، الذي جعل منه مسرحية (الملكة الميتة)، فيكتور هيجو (إيناس دي كاسترو)، مسرحية كذلك، كتبها وهو في سن السابعة عشر. أنطونيو فريرا (مأساة كاسترو) أو أيضا لويس فليز دي غيفارا (أن تسود بعد الموت).

بيدرو من منظور تاريخي

لم يتفق رأي مؤرخي عصره حول حكمه. اعتبره البعض بيدرو العادل، ونظر إليه آخرون على أنه بيدرو القاسي. بعد وفاة إيناس، أصبح الصيد هوايته الأولى. إذ سوف يشاهد الناس مروره، يعدو رفقة فرسانه الطّراد، ولا يخلي أبدا سيلطريدته، بل ويقتلها بيديه.

وطوال حياته، أبان عن إسراف لا نظير له. مثلما كتب فرناو لوبيز ذلك: «كان الملك دون بيدرو فرحا بما تقدم يداه، إلى حد أنه كان



يأمر بأن يفك نطاق حزامه ـ الذي كان لم يكن حينها يوضع بشدة ـ حتى تكون حركاته مريحة وحتى يعطي بسخاء، ويقول»، *في اليوم الذي لا يعطي فيه الملك شيئا، فإنه لا يستحق عندها لقبه»* .

وقد أستحوذ عليه حب إقامة العدل، مما دفعه لارتكاب أفعال متطرفة كان لها أثر صادم على معاصريه. هذه العدالة، كان يقيمها حسب عبارة فرناو لوبيز: aos modos antigos[1]، أي بصرامة لا تعرف الشفقة وتخرج عن السيطرة. وحول هذا الموضوع، يضيف فرناو لوبيز زيادة في التدقيق: «وإذا قيل في الكتاب المقدس إن العواصف والويلات تنزل على عامة الناس حينما يهمل الملك العدل، فلا يمكننا قول ذلك عن هذا الملك. خلال حكمه، لا نجد بالفعل حالة واحدة غفر فيها لأحد قتل شخصا آخر ـ حتى ولو أن هذا الأخير استحق ذلك بطريقة أو بأخرى ـ أو خفف فيها الحكم على القاتل إلى عقاب يسمح له بالبقاء على قيد الحياة.

ومثل ملوك عصره الآخرين، أرسى علاقات جديدة مع الكرسي الرسولي والسلطة الملكية.

إلا أن زواجه من إيناس يظل محاطا بالشك. ودائماوفق فرناو لوبيز: «في شهر حزيران من السنة الرابعة من حكمه، اتخذ بيدرو قرار الجهر علنا بأن إيناس كانت زوجة له». وبعد استدعاء عدد من الشخصيات، من نبلاء وأصدقاء خلصاء، أقسم على الإنجيل» بأنه لما كان إنفانتي البرتغال وكان والده ما يزال مقيما في براجانزا، وربما مرت على ذلك سبعة أعوام ـ لكنه لا يتذكر لا اليوم ولا الشهر ـ فقد قبل باتخاذه زوجة شرعية، بموافقة زوجية مصدق عليها فورا، حسب طقوس الكنيسة المقدسة، دونا إيناس دي كاسترو، بنت دون بيدرو

---

(١) بالبرتغالية في الأصل: وفق التقاليد العتيقة



فرنانديز دي كاسترو، وأن دونا إيناس هذه بعينها قبلته زوجا تبعا للطريقة نفسها. «وعقب هذا القران بثلاثة أيام، أكد دون جيل، مطران براجانزا إشرافه على المراسيم.

العفو البابوي

حرصا على متطلبات الرواية، فقد نسبناه لكليمنت السادس. وفي حقيقة الأمر، حسب فرناو لوبيز، فإن صاحبه هو البابا يوحنا الثاني والعشرون. وها هي الأقوال التي يجريها المؤرخ على لسان موثق دون بيدرو مخاطبا المشككين: «يريد مولانا الملك أن لا يظل ذلك قيد الكتمان، بل يريد على خلاف ذلك أن تعلموا جميعكم بالأمر حتى لا يولد أي شك حقيقي في مستقبل الأيام حول هذا الموضوع. [...] لهذا التمس جلالة الملكمني أن أحيطكم علما بصفة كلية، وأن أعرض عليكم هذا المنشور الذي سُلِّم له وهو إنفانتي، فيه يمنحه البابا العفو اللازم للزواج بأي امرأة كانت، حتى ولو لها قرابة شديدة به، مثلما كان الشأن بالنسبة لدونا إيناس أو أشد».

لقد تم نسخ نص المنشور بالكامل في أخبار فرناو لوبيز. هل هو نص مزور؟ لا شك في ذلك. إن نحن اعتمدنا الترتيب الزمني الرسمي، ماذا نلاحظ؟ لقد ولد بيدرو عام ١٣٢٠. اقترن في زواجه الأول ببلانكا القشتالية. وطلقها على الفور تقريبا. ومات يوحنا الثاني والعشرون عام ١٣٣٤ في الرابع من كانون الأول على وجه الضبط. عام ١٣٤٠، تزوج بيدرو دونا كونستانزا. توفيت بعد ذلك بتسعة أعوام. وإذا كان بيدرو قد تزوج فعلا إيناس عام ١٣٣٥، يتبين إذن أنه من المستحيل أن يقوم يوحنا الثاني والعشرون، الذي فارق هذه الدنيا، بمنحه العفو المذكور. وحتى لو افترضنا زواجه من إيناس قبل وفاة يوحنا الثاني والعشرون، أي على أقصى تقدير عام ١٣٣٩، كيف



أمكنه الزواج بعد ذلك من دونا كونستانزا؟ والتفسير الوحيد لهذا النص المزور يكمن على الأرجح في رغبة دون بيدرو المستميتة في إعادة الاعتبار لدونا إيناس ومنحها الشرعية في نظر الشعب والبلاط.، والمراسيم الجنائزية التي فرضها تدخل في هذا السياق.

رسالة القس يوحنا

إن الصورة الأسطورية لملك ـ راهب شرقي اسمه جوهانس قد تشكلت في القرن الثاني عشر. وهي مستمدة من تقليدين مسيحيين، يجعلانمن القس يوحنا سليلا من جهة للملوك المجوس الثلاثة وللقديس توما من جهة أخرى. ويزعم أنه ملك قاهر وينتسب للكنيسة النسطورية[١]. وقد انتشرت القضية ـ كما جاء ذكرها في الرواية ـ مثل النار في الهشيم. إن الأمل الذي شرعتهالرسالة يتمتع بقدرة تأجيج أوهام العالم اللاتيني. يتعلق الأمر بربط الصلة ـ سياسية وعسكرية ـ بين مملكة القس يوحنا المفترض والممالك المسيحية؛ حينها سوف يتم تضييق الخناق على الإسلام والقضاء عليه؛ الأرض المقدسة وقد تخلصت من المارقين. في العقول الغربية، يمثل الملك يوحنا حصن المسيحية المنيع ضد العالم الاسلامي، وهو بالتالي مركز كل الآمال.

أن تؤخذ الرسالة على محمل الجد فذلك ما بيَّنته جميع نصوص الرحالة الذين ذهبوا سعيا وراء هذه المملكة. بادئ الأمر، تم تحديد موقعها في بلاد الهند، ثم في الصين، وفي الأخير، في أفريقيا. كان ماركو بولو يؤمن بوجودها وظن أنه واجدها أثناء رحلاته عبر آسيا. إن الذهاب بحثا عن يوحنا مثل هدفا لا محيد عنه بالنسبة لغالبية الرحالة

(١) النسطوريونكانوا أتباعا لمذهب الهرطقة الذي دعا له نسطوريوس القائل بأن يسوع المسيح له طبع ثنوي، إلهي وبشري.



والمبشرين الذين كانوا يذهبون نحو آسيا خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر. لم يلتق به أي أحد، ولم يجده أحد. وعلى مر القرون، فإن أغلب الحملات العسكرية البرتغالية كان هدفها الرئيس هو تحديد هذه الامبراطورية. عام ١٤٩٨، حينما وصل فاسكو دي غاما إلى الموزمبيق، سأل السكان الأصليين عن الشخص. قيل له بأنه لا محالة يبعد قليلا من هناك في اتجاه الشمال. وبالفعل، في الشمال توجد إثيوبيا مسيحية، لكنها ليست نسطورية، ولا وجود بتاتا للقس يوحنا، ولا مملكة تشبه من قريب أو من بعيد الوصف المقدم في الرسالة المعروفة. من كان كاتبها؟ مختلق أكاذيب؟ كاتب له خيال جامح؟ صاحب دعاية؟ كيفما كان الأمر، نستطيع الإعتراف له بأنه ساهم على نحو غير مباشر في ازدهار الحملات البرية والبحرية وأثار حس الاكتشاف.

اودريك دي بوردنون

رحالة ومبشر لا يعرف التعب، مساره المذكور في الرواية وفيٌّ للواقع، مع فوارق بسيطة. وقد نشرت مذكراته بعنوان رحلات السعيد الأخ أودريك دي بوردنون. *إلى آسيا في القرن الثاني عشر*. وقد تم تطويبه عام ١٧٥٥.




@3abeth

الفهرس


@3abeth


@3abeth

هذا الكتاب

داخل مُصَلًّى قصر سانْ سِرْفاندو، شموعٌ معدودة تسلط ألسنةَ لهبها على تمثال المسيح الحجري المسمَّر فوق المذبح، مضيئة أثناء ذلك رجلين متأهبَين.

ـ هل تظن أن الراهب الفرانسيسكاني سيأتي هذه المرة؟ سأل أصغرهما.

ضجيج عربة تنحدر مسرعة من الزقاق النازل حجب الجواب جزئيا.

ـ الرسالة... لقد تعهَّدَ... لا داعي للقلق...

ـ ثلاث ليالٍ ونحن نأتي إلى هنا. لقد وصل حقا من روما، منذ أكثر من أسبوعين، أليس كذلك؟

ـ رويدك. سوف يأتي.



